

المكتبة الفلسفية

تواريخ

الحكام والفلاسفة

تأليف الفيلسوف

شمس الدين الشهرزوري

من علماء القرن السابع

تحقيق وضبط

المستشار

توفيق عاي وهبة

الأستاذ الدكتور

أحمد عبد الرهيم الساج

الجزء الثاني

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الثانية

٢٠١٣ هـ - ١٤٣٤

حقوق الطبع محفوظة للناسخ

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

٢٥٩٣٦٢٧٧ / فاكس: ٢٥٩٣٨٤١١ - ٢٥٩٢٢٦٢٠

E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الشهرزورى ، محمد بن محمود الشهرزورى ، ١٢٨٨-٠٠ ،
تواريخ الحكماء والفلاسفة / تأليف : شمس الدين الشهرزورى ،
تحقيق وظبط : احمد عبد الرحيم الصايح ، توفيق على وهبة
ط ١ - القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ٢٠٠٨

مج : ٢٤ سم 2

تدمك : ٣٩٩٣ - ٣٤١ - ٩٧٧

١ - الفلاسفة

أ- الصايح ، احمد عبد الرحيم (محقق)

ب- وهبة ، توفيق على (محقق مشارك)

ج- العنوان

ديوى: ٩٢١

رقم الايداع : ١٧٢٨٥ / ٢٠٠٨

«أخبار زينون الأكبر»

هو ابن «طالوغورس».. وكان من أهل «القيطيس».. وتمييز كلام الأصغر عن كلام الأكبر متعذر.

وكان له من التلاميذ: «أنباذوقلس بن قوماسدووس بن كناطلس»، وكان «أنباذوقلس» متوليًا لدروس «زينون» بعده.

وكان «زينون» مدعيًا رأي السبعة الذين يسمون «ماغاريقي»، وكان «زينون» أيضًا كامل الأدب، شديد الحماية.. وخلف كتابًا واحدًا في علم الطبيعة.

وكان عارض «مارماندس» في كلامه، وقوله -موافقًا لرأي «زينون».. وغرضه وكان مذهبهما مذهب نوع الغوامض.

وكان «ألوقيلوس» السوفسطائي تلميذًا لزينون الحكيم هو «وبراحليمطس» المظلم، و«أنباذوقلس»، و«ثاليس»، و«فروطوغورس»، و«برهليطس»، و«سقراطيس»، و«ذي مقراطيس» على عهد «زينون» الحكيم. وكان في عهدهم «دياغوراس ليس» المارق.. وكان مقيمًا بمدينة (أطيقى)، فلما تهادى في النفاق، والكفر، والتعطيل.. طلبه السلطان والحكام ورؤساء (أطيقى) ليقتلوه.

وبذل السلطان وهو يضارب الأركون.. وأمر فنودي في الناس من قدير على «ديوغورليس» الذي من (سيلون) فقتله.. فجائزته.. بكرة.

فبلغه ذلك.. فرحل إلى أرض أحياناً إلى مدينة اسمها (بالتن) فسكنها.
وحدثت حروب بين أهل (أطيقى) وأهل (لاقونيا).. وطالت فاشتغلوا
بالحرب عنه.

وبقي -بعد ذلك- (أربعًا وخمسين سنة)، وأصيب.
له بعد موته كتاب مكتوب بلغة أهل (أفريقيا) مملوءاً بمباحث في الأمور
الإلهية.

وكان «زينون» شديد العصبية، عظيم الأنفة لأهل خاصته.. كان له
أصدقاء وإخوان بمدينة (سوراقوسا) اعتدى عليهم (بالوحوش)
(الأنطرون).

فأزمع على حتفهم.. فبلغ ذلك «زينون»، وانتهى إليه قصتهم.. فاتخذهم
بفرسان، وبمنفسه، وبسلاح كثير، وتوجّه إليهم وهم غافلون.

فبلغ خبره إلى (بالوحوش)، فجمع جنده، وسار إلى (محشوده)، فجهم
عليه حتى أخذه.. فأمر به أن يُعذب عذاب من خالف السلطان.

فأبدى من نفسه الشجاعة والصبر، وجعل (بالوحوش) يتهدده،
ويتواعده بأشد التواعد إن هو لم يطعه كما أطاع أصحابه.

فقال له: اعلم يا هذا.. أنه لا طاعة لشيء.. من المكاره: إن يضرني إلى
العمل بشيء من القبائح، وأصبر، وأتجلد.. ولا يُنل أحد من إخواني بسوء..

وإنما أراد «بالوحوش» أن يستطرد؛ ليضمحل بأصحابه، ويقول عنهم ما
يجد به السبيل إلى قتلهم؛ لأن أهل (سوراقوسا) لما هاجوا على «بالوحوش»،

وقوّاهم «زينون» بالرجال والسلاح.. طلبه وأخذه؛ لأنه توّهم عليه طلب الرئاسة.

فلما ألحّ عليه، عَضَّ «زينون» على لسانه، فقطعه، ومضغه، ورمى به إلى «بالوحوش» مويّساً له مما سأله من النقول على أصحابه.

فبسط العذاب عليه... إلى أن مات.. ولم يقر بأن أحداً كان شريكاً له، ولا معيناً له على إعطاء السلاح، وطلب الحرب.

وقال مرتجّزاً بشعره، وهو تعدى: ما أحوج الفضيلة في أمور كثيرة إلى معونة سعادة البخت.

وكان «زينون» رجل معتل القامة، أحسن الأنف، حَسَن الصورة، على خده خال، أدعج العينين، عظيم الهامة، معتدل اللحية، سريع الالتفات، رافعاً رأسه إلى السماء، كثير الكلام، ذا أدب كثير، حلو المنطق، رزين العقل، بطيء الحركة، إذا مشى لا يُلحق بسرّعه، يؤخذ بيده عصا تثني كصورة المَقْص، مفصص بعاج وزُمرّد، مات وله (ثمان وسبعون سنة).

آداب زينون

ما ترك قول «أرسطو» لنا سبيلاً إلى منتفع به منّا، ولا يتنعم بلذة، ولا يرغب في بقائه ما فصل جوابه على الموت جرائنا، وإن كُنّا له غير حذرين، إلا كفصل ما أصّل من نفسه عنها من قُربانها من الحرص والشهوة والغضب، كما بقي حدث لنا من الجرأة على الموت حدث له.

وقال: الموت راحة.

ونظر إلى إنسان قد صرف هِمَّتَه إلى صناعته، فقال له: لم تهلك الصنعة أهلكت؟

وحكي عنه أنه قال لتلاميذ: إن ذهب منكم شيء، فلا تقولوا ذهب منّا، ولكن قولوا: رددناه؛ لأنه لو كان لكم.. لكُتِم مالكيه منذ كنتم.. بل تمتعوا به إذا كان عندكم.

والإنسان الساكن في الدار.. إذا نزل فيها.. فهي له بيت، وإذا خرج منها فهو غريب منها.

وقال لتلميذ له: أكثر من الإخوان؛ فإنهم شفاء للنفوس.

وقيل له: ما النوم؟

قال: راحة من التعب، وملائم للموت.

وقال: لا ينبغي للرجل أن يتزوج امرأة حسنة؛ فإنه يكثر عشاقها، وتزهو على زوجها.

وقال: النوم: موت قصير... والموت: نوم طويل..

وقال له بعض الملوك: عظمي.

فتناول له شربة ماء، وقال: لو مُنعتَ هذه، وعَظُمَ عطشُك.. بماذا كنت تشتري؟

فقال: بنصف مُلكي.

فقال: لو اشتريتها، وعسر خروجها.. بماذا كنت تشتري؟

فقال: بنصف مُلكي.

فقال: فما الفخر في مُلكٍ لا يساوي شربة ماء؟

وقال: محبة المال بدء الشرور، وذلك أن سائر الشر مُعلّق بمحبة المال.

وجاءه رجل فأعلمه أن ابنه قد تُوفي، ولم يكن له ابن غيره.

فقال: لم تذهب عليّ؟ إنما أنا ولدتُ وَلَدًا ميتًا لا غير ميت.

وقال: لا تخف موت البدن، ولكن خفْ موت النفس.

فقال له: ولمَ قلت ذلك، والنفس لا تموت؟

فقال: إذا انتقلت النفس الناطقة من حدّ النطق.. إلى الحدّ البهيمي، وإن

كان جوهرها ألا تبطل، فإنها قد ماتت من العيش العقلي.

ورأى فتى على شاطئ النهر مهمومًا محزونًا على الدنيا، فقال له: لو كنت

في غاية الغنى، وأنت راكب في البحر وسط اللُجّة، وقد أشرفت أنت ومالك

على الغرق.. هل كانت غايتك إلا النجاة بنفسك؟

فقال له الفتى: نَعَمْ..

قال: وكذلك لو كنت مَلِكًا وقد أحاط بك عدو، ومن يريد قتلك.. هل كانت غايتك إلا النجاة؟

قال: نعم..

قال زينون: فأنت الملك، وأنت الذي نجوت من البحر.. فاقنع بما أنت عليه وتعزّز.

قال: فتعزّز ذلك الفتى بما سمع من قوله ووعظه.

وقيل له: لم لا تشرب الخمر؟

قال: قبيح لمثلي أن يغلبه الخمر، بعد أن غَلَبَت الملوكة.

«أخبار الإسكندر ذي القرنين»

هو «فيليبس الملك بن لفظس» الملك، وكان مُلك «فيليبس» سبع سنين.. وكان سبب قتله: أن رجلاً من عظماء (إميجابة) يقال له: «قلوس».. عشق امرأته أم «الإسكندر» فراسلها، واستمالها... فامتنعت عليه، فعمل على أن يقتل «فيليبس»، ويأخذ ملكه، ويأخذها.

فاتفق أن «فيلاطن» الملك مات، فأرسل «فيليبس» عسكرياً في رجل من أصحابه لمحاربة «سربطون بن فيلاطوس»؛ لأنه كان قد عصاه.

وبعث عسكرياً آخر مع ابنه «الإسكندر» إلى مدينة (سفرافوس) لمحاربة أهلها لعصيانهم أيضاً.

فلما رأى «قلوس»، وتفوق عسكر «فيليبس» عنه، طمع فيها، وأزمع على قتله.. فجمع من وافقه على غرضه من الرجال، ووثب على «فيليبس»، قيد أو هاج أهل البلد وجيشه، وافتتن البلد.

ووصل «الإسكندر» في ذلك الوقت، فسمع مغلبة، فسأل عن حال الناس؟ فأخبروه بحال أبيه، فدخل مُسرِعاً، فوجد أباهُ مشرفاً على التلف، ووجد أمه أسيرة في قيد «قلوس» فَهَمَّ أن يضربه بسيفه، وخشي على أمه؛ لتشبهه بها.

فقال له: الله تعالى اقتله، ولا تتوقف بسببي.

فضربه «الإسكندر» بسيفه حتى قارب التلف.. ثم تركه صريعاً، ومضى

إلى أبيه وبه رَمَقَ، فقال له: قُمْ أيها الملك فخذ السيف، واقتل عدوك، وخذ
ثأرك بيدك.

فقام «فليس» فقتل «قلوس»، ثم مات، فدفنه الإسكندر، وملك بعده.
وكان «فليس» يؤدي إلى «دارا بن دارابن» ملك الفُرس من البيض
المعمول بالذهب في كل سنة عددًا معلومًا، ووزنًا مقدّرًا، إتاوة، يحملها إليه،
ويستكفي بها أذاهُ.

وكان قد أسلم ابنه «الإسكندر» إلى «أرستطاليس»، وأوصاه بتعليمه
وتأديبه.. فعلمه.. وأدّبه، وثقّفه، فكان غلامًا له هِمّة، وذكاء، وعقل، ونفس
شريفة.

فلما حضرت «فيلبس» الوفاة، أحضر ابنه «الإسكندر»، وجدّد له البيعة،
وتقدم بعد الإكليل على رأسه، وأجلسه مجلس الملك، ودخل علي القُواد
والجنود، وفتّبل أهله سلام الملوك.

ثم دعا «أرسطاطاليس»، وسأله أن يعهد إلى ابنه عهدًا بحضرته، داعيًا له
إلى مصلحته، وعزّي الملك عن ذلق الدنيا.

فأجابه إلى ذلك، وكتب له العهد الذي أوله: «ليس الأمر بالخير أسعد من
المطيع.. ولا المتعلم بأسعد من المتعلم».

وهو عهد موجود في أيدي الناس، واشتدت عليه، ثم قَصَى نَجْبُهُ، فقام
«الإسكندر» في الناس، فقال: «أيها الناس.. إن مَلِكُكُمْ قد مات، وليس لي
عليكم ولاية ولا إمارة، وإنما أنا رجل منكم أرضى بما رضيتم، أدخل فيما

دخلتم، لا أخلفكم في شيء من أموركم، فاسمعوا قولي ومشورتي، وأنزلوني بمنزلة الناصح لكم الشفيق عليكم، المكلف بأموركم.

فقد عرفتم ذلك مني في حياة والدي.. وإني آمركم بتقوى الله عز وجل، والتمسك بالطاعة، ولزوم الجماعة.. فملككم أطوعكم لرَبِّه تعالى، وأرفقكم بالعامّة، وأغناكم بأموركم.. فقد عرفتم ذلك مني، وأرحمكم لمساكينكم، ويبذل نفسه في صلاحكم، ولا تشغله الشهوات عنكم، وتأمنون شرّه، وترجون خيره، ويباشر قتال عدوكم».

وهي خطبة طويلة، ولما سمعوا قوله، وتعجبوا منه، ومن رأيه ونظره فيها لم ينظر فيه الملوك قبله.

فقالوا له: «قد سمعنا قولك، وقبلنا مشورتك ونُصّحك لعامتنا، وقد وليناك أمرنا.. فعش الدهر علينا ملكًا، ولا نرى أحدًا من أهل الدنيا أحقّ بالملك منك».

ثم قاموا إليه، فبايعوه، ووضعوا التاج على رأسه، ودعوا له بالبركة، فقال لهم الإسكندر: قد سمعتُ ثناءكم عليّ، وسروركم بتمليككم إياي عليكم.. وأنا أسأل الذي وهبنا منكم المحبة، وأثبت في قلوبكم طاعتي أن يُلهمني العمل بطاعته، ولا يشغلني بشيء من شهوات الدنيا وزينتها عن صلاحكم.

ثم كَتَبَ إلى عمّال مملكته، وصاحب كل ناحية: من «ذي القرنين المقدوني» إلى «فلان بن فلان».. الله تعالى ربّي وربكم، وخالقي وخالقكم وخالق السموات، والأرض، النجوم، والجبال، والبحار، وقَدَفَ في قلبي معرفته، وأسكنه خشيته، وألهمني حكمته، ودَلَّنِي على عبادته، واستحق ذلك عندي بما

ابتدله، وتعبيره إياي من البشر الذي تحيّر منهم النّجباء، ويصطفي منهم الأصفياء.. فله الحمد على ما يُقدّم إليّ من إحسانه، وحُسن صنعه، وإليه أرغب في تمامه.

وقد علمتم ما كان عليه آباؤنا وآباؤكم من عبادة الأوثان دون الله عزّ وجلّ، وأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تُبصر.

وأنه ينبغي لمن عرّف وعَقِل أن يستحي لنفسه من عبادة وثن، أو صورة يتخذها، فانتهوا، وارجعوا إلى معرفة ربكم تعالى، واعبدوه وخُدّه، فإنه أولى وأحقّ بذلك من هذه الحجارة».

وهي خطبة طويلة، وكتب إلى جنده يعرفهم بسيرته ومقصده، وينهضهم إلى قتال عدوهم، وإلى الدعاء إلى التوحيد والعدل.. فمن خالفه وخالفهم في ذلك.. حاربوه.

ونَفَذَتْ كتبه إليهم، فتحرك أهل مملكته، فاجتمعوا إليه مستعدين.. فأمر لهم بالأرزاق، ورَتَّب الرجال، فرعوا -من جزالة رأيه وسمق هِمَّتِه، وسماحة نفسه، وتركه الاختصاص بالأموال دونهم- شيئاً لم يروه من غيره، مع تواضعه، وحُسن خُلُقِه، وقُرْبِه من المساكين والضعفاء، ورحمته لهم، وشدة غضبه في باب الله تعالى، وعِظَم هيئته.

فتقرر في نفوس الناس أنه سيكون منهم أمرٌ عظيم.. فلما مَلَكَ وقوي، واستقامت له الأمور، وبعَثَ إليه «دارا» يطالبه بأداء ما جَرَى الرسم بأدائه من الإتاوة.

فكتب إليه «الإسكندر»: إني قد ذبحت تلك الدجاجة التي كانت تبيض

ذلك البيض.

وكان اليونانيون - في الحين الذي مَلَكَ فيه «الإسكندر» - طوائف كبيرة، ولا يجمعهم ملك واحد.. فجعل «الإسكندر» يعرف ملوك قومه حق جمعهم، وملك عليهم، وهو أول من جمع اليونانيين على ملك واحد.

ثم نازعته نفسه إلى غزو ملوك المغرب جميعاً.. فغزاهم، وظفر بهم، وملك المغرب بأسره.. ثم سار إلى مصر.

وبَنَى «الإسكندر» في السنة السابعة من مُلكه على البحر الأخضر، وسَمَّاهَا باسمه..

ثم سار إلى الشام، وسار منها إلى أرمينية، وبلغ «دارا» خبره، فكتب إليه: «من «دارا» الملك.. إلى أهل (طبرس).. أما بعد، فقد بَلَغَنِي خروج هذا اللص المارد في جمع من اللصوص من أظهركم.. فخذوا أصحابه، فاقدفوا بأسلحتكم ودوابهم في الخبر، وأتوا إليَّ باللص رئيسهم.

فإن ذلك لن يعجزكم لجلدكم وخبرتكم وكيدكم.. وإنما هذا غلام رومي حقير، فما عذركم عندي إن أخرتم ذلك».

ثم إن «ذا القرنين» خرج حتى نزل نهر (أسطوخوس)، فبلغ ذلك «دارا» فكتب إليه: «من (دارا) ملك الملوك: الدنيا الذي يُضِيء مع الشمس.. إلى «ذي القرنين» اللص.

أما بعد... فقد علمت أن ملك السماء جعلني ملك الأرض، وأعطاني الرِّفعة، والتصرف، والعز، والكثرة، والقوة.. وقد بَلَغَنِي أنك جمعت

لصوصًا، وأخذت بهم نهر (أسطوخوس)؛ لتفسد في أرضي.. وعقدت التاج، وملكته نفسك، وهذا لعمرى من سفه الروم، وسفه الروم معروف.. فارجع إذا نظرت إلى كتابي غير مؤاخذ بسفهِك؛ فإنك غلام حقير ليس مثلي، جازاك وأبق على نفسك وبلادك، وإلا فلست أومشوم على بلاده، وقد بعثت إليك تابوتًا مملوءًا ذهبًا؛ لتعرف كيف كثرته عندنا، وقوتنا به على من نريده، ونكره لتعلم عدلها وعدل سمسهم؛ لتعلم أن عندي عددًا كثيرة وقوة؛ لأنك صبي.

ووجه بالكتاب من رُسله.. فلما وقف عليه «الإسكندر» أمر بهم، فكُتِّفُوا وجُردوا، ودعا بالسيف كأنه يريد قتلهم.

فقالوا: يا سيدنا.. من رأيت من الملوك قتل الرُّسل.. هذا لم يفعله أحد قبلك؟!

فقال لهم «الإسكندر»: إن صاحبكم يزعم أني لص، ولست ملكًا.. وأنا أفعَل بكم فعل اللصوص، فلا تلوُموني ولوموا صاحبكم الذي عرَّضَكُمْ لي، وأنا لص.

فقالوا له: يا سيدنا.. إن صاحبنا لم يعرفك، ونحن قد رأيناك، وعرفنا ما أنت عليه في نفسك وفضلك وكرمك.. فاردد علينا نفوسنا، وامنن علينا؛ فإننا نخبر «دارا» بما رأينا، ونكون من شهودك.

فقال: أما إذا خضعتُم، وسألتم.. فأني مُجيبكم، ومشفقكم؛ لتعلموا عطفِي ورحمتي.. فأني قريب عند الخضوع، بعيد عن التعزز.

فخلَّى وثاقهم، ودعا لهم بالطعام، فأكلوا، وكَتَبَ إلى «دارا»: «من ذي القرنين بن فبليس الملك.. إلى الذي يزعم أنه ملك الملوك، وأن جنود السماء

هالته، وأنه إله، وضوء الدنيا «دارا بن دار».

أما بعد... فكيف يحسن ممن كان يضيء لأهل الدنيا كإضاءة الشمس أن تهاب إنسانًا حقيرًا ضعيفًا عبدًا مثل «ذي القرنين»؟ فلا تظنك يا هذا إلهًا، ولكنك إنسان مترف، أُملي لك فطغيت، أو لا ترى أن الله تعالى يولي الملك والغلبة من يشاء، وإنسان ضعيف طاغٍ يسمّى باسم الإله الذي لا يموت، ولكن حق له أن يغضب من على يُسمّى باسمه، وتسَلِّط على جنده..

وكيف يكون إلهًا من يموت ويَبْلَى، ويذهب سلطانه، ويترك دنياه لغيره؟ ولكنك الذي من ضعفك لا تطيق مناولة ذي القوة والبأس والنجدة.. وأنا سائر إليكم لقتالك، ولا قيك بمثل من يلقي به الملك الذي كُتِب عليه الموت؛ لأنني إنسان.. الموت في عُنقي، وأجلى آتٍ، ولا أرجو النصر إلا من «الحي» خلّقتني، عليه توكلتُ وإيَّاه أعبد، وبه أستعين أن يظهرني عليك.

فقد أعلمتني في كتابك بكثرة ما أوتيت من الذهب والفضلة والكنوز، ما بنا إليه حاجة، فلا تخلفني عن طلبه حيث كان، وبعثت إليّ بدرّة وكوّة، وتابوت ذهب.. فأما الدرّة فأبني سوط، بعثني الله عليكم لأذيقكم بأسه، وأكون لكم ملكًا ومؤدّبًا وإمامًا.

وأما الكوّة فأبني أرجو أن يجمع الله لي مُلك الأرض باجتماع الكثرة في يدي..

وأما التابوت فإنه طائر عجيب، ورسوخ في نصر الله إياي عليك؛ لأن التابوت خزانة من خزائنك، مملوءة ذهبًا.

فهذه علامة تحول خزانة من خزائنك إليّ.

وأما السمسم فعدد كثير، ولكنه لئِن المجسَّة، مأكول ليست فيه كراهة ولا نكايَة.. وقد بعثت إليك من خردل تقفير، فذُق طعمه.

واعلم أنك علوتَ في نفسك، وسطوتَ في سلطانك، وظننت أنك أَرعبتنا بما ذَكَرتَ من عزَّتكَ.

وأرجو أن يُضعفَكَ اللهُ تعالى، ويضعَكَ بقدر ما رفعتَ من نفسك؛ حتى يتسامع بك أهل الأرض، وأن يُظهرني عليك بثقتي به تعالى، وتوكلي عليه.. والسلام».

وختم كتابُه، ودفع به إلى الرُّسل، وأمر لهم بالذهب الذي كان «دارا» قد بعث به إليه، فقدم عليه رُسله.. وقد واقع «ذو القرنين» خليفة «دارا» بأذربيجان فهزمه.. فقَدِمَ على «دارا» مهزومًا، وأمر «الإسكندر» بقتل (فارس) فدفنوا.

ثم ارتحل إلى الجبل، فافتتح به مدائن كثيرة، وفرض لبعض أهلها، فاتَّبعوه، وارتحل إلى جبل (طواس).. ثم إلى مدينة (فيلا)، ثم إلى مدينة (قوم ايليون)، ثم مضى إلى (مقدونيا).

وكان رجوعه لأجل وجع أمه، فوجدها قد برأت.. فسكنت نفسه لذلك، وارتحل منها إلى (يدلا) فغلَّقوا الأبواب.

فأمرَ بإحراقها بالنار.. فنادوه: «يا ذا القرنين.. إنَّا لم نغلِّقها لقتالك، لو كن خلفنا أن تبلغ «دارا» أنا فتحناها لك فيها فيهلكنا».

فقال لهم: افتحوها، فإني غير داخلها حتى ينصرنى «الله» عزَّ وجلَّ على

«دارا»، فلا تخافوا فقد علمتم وفائي بعهدي، وصنعي إلى من دخل في طاعتي.
ففتحوا له الأبواب، وأخرجوا الطعام والعلوفات، ارتحل منها إلى
(أسطيدوس، وقطبرا)، وهما على البحيرة المنتنة.

ثم ارتحل منها إلى (فيرطوس)، ثم ارتحل إلى (الناس)، ثم رحل.. حتى
أتى «دارا» فكانت لهم وقعة عظيمة، التحموا فيها من طلوع الشمس.. إلى
انتصاف النهار.. وسالت الدماء سيل الأروية، واشتغل أصحاب «دارا»
بالغنائم، وثبت المقدونيون على حالهم.

فلما نظر «دارا» إلى جهاته، ورؤساء أصحابه، وخيار أعوانه قد بادوا،
وأكثر من بقي جريح، أو مشغول بنهب -تحفَّى في خاصته هاربًا.

واحتوى «ذو القرنين» على ما خلف، وأسر خلقًا كثيرًا من رجاله.. فكان
فيمن أسير أمه، وامرأته.

وسار «دارا» هاربًا حتى وقع على نهر كبير قد صار أعلى جليد، فعبر عليه،
واتبعه أصحابه فانخسف بهم الجليد، فغرق أكثرهم.

وسلم «دارا»، ومضى حتى دخل بيت الهنة عائدًا بها من «ذي القرنين»..
ثم دبّر رأيه، وأمره، فقال: ما هي أقرب إلى النجاة من الدخول في أمان
«الإسكندر»؛ فإنه كريم المقدرة، وافي العهد.. فكتب إليه كتابًا يستعطفه،
ويتذلل له، ويسأله أن يرحمه، ويبعث إليه بأمه وابنته وصاحبته.. ووعدّه أن
يعطيه ما في كنوز فارس، وخزائن آبائه.

فلما قرأ «الإسكندر» كتابه نهض بأصحابه نحوه، وبلغ «دارا» إقبال

«الإسكندر» إليه، فخرج هاربًا فيمن بقي من أصحابه إلى «فور» ملك الهند.

ولحقه «الإسكندر».. فلما تراءى الجمعان، والتقوا وثب بـ«دارا» صاحبها ووزيره ليقتلاه؛ ليحصل بذلك الحومة عند «الإسكندر»، فعاتبها «دارا»، وذكرهما جميله وإحسانه إليهما، وأن لا تسفكا دمه لغيرهما، فإن «ذا القرنين» ملك، وإن تقربتما إليه بقتلي لم تسلما؛ لأن الملوك تأخذ بثأر الملوك.

فضرباه بسيفيهما حتى وقع عن فرسه، وأدركه «ذو القرنين» قبل أن يُقضى، فنزل عليه، ووضع رأسه في حجره، ونفض التراب عن وجهه، ووضع يده على صدره، ثم قال وعيناه تدمعان: يا «دارا».. قُمْ من مصرعك، وكن مَلِكًا على أرضك.. وإلهي يا ملك فارس، لأُمَكِّنَكَ ولأُمَلِكِكَ، ولأُرَدِّنَ عليك ما أخذتُ منك، ولأُعَيِّنَكَ على عدوك.. وإني لنادم منك؛ لأنني طُعمت من طعامك أيام حياتك كأني رسول.. فقم غير مؤاخذ منك بما سلف، ولا تجزع عند حلول البلاء من غيرهم؛ فإن أهل النعمة والبلاء أصبر على البلاء من غيرهم.. وأعلمني من فعل هذا لأنتقم لك منه.

فقال «دارا» وعيناه تدمعان، وقد وضع يد «ذو القرنين» على وجهه وهو يُقبلها، وقال: يا «ذا القرنين»... لا تتكبر، ولا تتجبر، ولا ترفعن نفسك فوق قُدرتك، ولا تركزن إلى الدنيا، فقد رأيت ما أصابني، ولك في عِبرة أنت مكتفٍ بها.. فاحذر مصرعي، وتوق ما صيرني إليه المقدار، واحفظني في أمي، فصيرها أملك في المنزل.. وأما امرأتي فصيرها بمنزلة أختك.. وقد زوجتك ابنتي «روشنك».

ثم وضع يده على فيه، فمات.. فأمر «الإسكندر» بـ«دارا» فغُسل بالمسك

والعنبر، وكُفِّنَ بالثياب المنسوجة بالذهب، ونادى المنادي في الروم والفرس.. فاجتمعوا مشتملين بالسلاح، فكتبهم كتائب، وصفَّهم صفوفًا.. ثم أمرَ بعشرة آلاف رجل مسلمة أن يمشوا أمام سريرهِ، وقد استلُّوا سيوفهم، وعشرة آلاف خلفه كذلك، وعشرة آلاف عن يمينه، وعشرة آلاف عن شماله.

ومشى «ذو القرنين» في مقدَّم سريرهِ، ومعه عظماء الروم، وفارس، وساداتها.. وسارت الكتائب والصفوف، ومشت الرجال على مراثيها.. حتى انتهوا إلى حفرتهِ، فجلس «الإسكندر» عندها، وأمر بدفنه.. فدفنوه، وأمر بالقبض على قاتلي «دارا» فأخذوا وُصِّلوا عند قبرهِ.

فلما رأى ذلك رجال الفرس ازدادوا له محبة، فأمر جنوده أجمعين أن يمرُّوا بين المصلوبين رجلًا رجلًا.. ثم بعث إلى «روشنك»، وأعلمها ما كان من وصية أبيها، ومسألته لها أن يتزوجها.. وعرض عليها ذلك.

فأجابته، فأمر لها بهال، فجرت وُحِلت إليه.. ثم خلَّف على فارس أخا «دارا»، وصيِّره مكان أخيه، وملك على مملك فارس تسعين ملكًا، وهم ملوك الطوائف، وأحرق كُتُب دين المجوسية، وعَمَد إلى كُتُب النجوم، والطب، والفلسفة فنقلها إلى اللسان اليوناني، وأنفذها إلى بلاده، وأحرق أصولها، وهدم بيوت النيران، وبنى مدينة بالشرق، ونقل إليها الناس من البلدان بأهاليهم، فأسكنهم إياها، وسَمَّاها (عرجالوس)، وهي مدينة (مرو).

وبنى مدناً كثيرة، ووصل إلى «الإسكندر» - في مسيرة لمحاربة ملوك الأمم - كتاب أمه «روقيا» فقرأه، فإذا فيه:

- من «روقيا» أم «الإسكندر» إلى ابنها الإسكندر الضعيف المثابة، الذي

بقوة «الباري» تعالى تقوّى، وبقدّرتَه قَهَر، وبعزّته استعلّى..

«يا بُنَيَّ، لا تودع العُجب قلبك؛ فإن ذلك مُرْدِيكَ، ولا تَدَعِ للعظمة فيك مطمَعًا؛ فإن ذلك يضعك.

يا بني .. ذلّل نفسك، واعلم أنك عن قليل تتحول عَمَّا أنت عليه.

يا بُنَيَّ .. إياك والشُّح؛ فإنه يرى بك.

يا بُنَيَّ .. انظر الكنوز التي جمعتها، والأموال التي حوتها.. فعجّل حملها عليّ مع رجل مفرد على فرس جَوَاد.

فلما ورد عليه كتاب أمه .. جمع من كان معه من الحكماء، فسألهم عن معنى ما كتبت إليه، فلم يجد ذلك عندهم، ولا عرفوا ما أرادت.

فدعا مكاتبه، وقال: «انظر في كل ما جمعناه، فاحصٍ عِدَّتَه، واكتب بمبْلَغِه، ويبيّن فيه المواضع التي أودعناه».

ثم ختمه، وحمله رجلاً على فرس جواد، وقال له: امض بهذا الكتاب إلى أُمِّي.

ثم قال: إنما سألتني أن أبعث إليها بعلم ما اجتمع عندي من المال، والمواضع التي أودعته فيها، ثم ارتحل إلى «فور» ملك الهند، فسار شهراً في أرض مجهولة وعرة، وجبال، وكتب إليه: «من ذي القرنين: ملك ملوك الدنيا.. إلى «فور» صاحب الهند.

أما بعد.. فإن إلهي الله الذي لا إله إلا هو الذي أيّدي بنصره، وأعزّني بالفتح، وعلّاني بالقهر للأعداء، ومكّن لي في البلاد، وبعثني نقمة على من كفر

به وجحدته.

فإني أدعوك إلى إلهي وإلهك، وخالقي وخالقك، وخالق كل شيء، ورب كل شيء.. أن تعبد، ولا تعبد غيره؛ فإنه قد استحق ذلك منك بما قد ملّكك به على أهل ناحيتك، وفَضَّلَكَ على نُظَرائك من الملوك.. وأقبل نصيحتي، وابعث إليَّ بالأصنام التي تعبد، وأدِّ إليَّ الخراج تسلم مني.

والا، فإنني أقسمُ بإلهي لأطأَنَّ أرضك، ولأهتِكَنَّ حُرمتك، ولأُخَرِّبَنَّ بلادك، ولأجعلَنَّك حديثًا.. وقد رأيتَ ما صنعَ إلهي بـ«دارا»، وكيف أعانني عليه.. فلا تعدل بالعافية شيئًا واغتنمها».

فأجابه بجواب فيه جفاء، وغلظ.. فَرَخَفَ إليه «الإسكندر»، وقد أعدَّ ملك الهند الفيلة، والسباع الضاربة على القتال.

فرأى «الإسكندر» من ذلك ما هاله، وليس يدري كيف وجه المحاربة، وسأل أصحابه.. فلم يجد لذلك حيلة عندهم.. ففكر مليًا.. ثم أمر بجمع الصُّنَّاع الذين معه، فصنعوا له أربعة وعشرين ألف تمثال على صورة الفيلة على بكرات بحديد مجوفة، وملاها حطبًا، وفَحَّمَهَا، وَصَفَّهَا صُفُوفًا، وألبسها السلاح، وأضرم في داخلها النيران.

وزحف «فور» إلى «الإسكندر» بالرجال والفيلة والسباع.. فبادرت الفيلة إلى تلك التماثيل يظنونها أناسًا فَلَوَتْ خراطيمها عليها.. فالتهمت النار فيها، فأحرقتهما، وكذلك السباع، فولَّت جميعًا على الأدبار، فوطئ جنود «فور»، وقتلهم.

وحل «ذو القرنين» وأصحابه بعقب ذلك، وقاتلهم إلى الليل، فلم يزالوا

كذلك عشرين يومًا، حتى تفانوا، وكثر ذهاب أصحاب «ذي القرنين» فخاف وأشفق، ونادى: يا فور.. ليس ينبغي للملك أن يورد جُنْدَه موارد الهلكة، وهو يقدر على دفعها، وقد نرى فينا أصحابنا.. فما يدعونا إلى هذا؟ فقال: نقتل أنا وأنت.. فمن قتل صاحبه، غلب مملكته.

فأعجب ذلك «فور»؛ لأنه كان عظيم الخَلقة، وكان «ذو القرنين» حقيرًا فمشيا جميعًا والصفوف قائمة، واستلّا سفيهما.. وأقبل فور مبتدرا، فلما قُرب من «ذي القرنين» سَمِعَ في عسكره صيحة رابعة، فالتفت لينظر ما هي، فاغتنمها «الإسكندر» فضربه على كتفه بسيفه فصرعه، ووقع عليه.

فلما رأى جنود «فور» هلكته، أقبلوا على القتال تأسفًا وحزنًا وحنقًا بأشد ما يقدرُون عليه، فناداهم «ذو القرنين» على ماذا تقاتلون، وقد قتلت ملككم؟ فقالوا: لا نزال نقاتلك حتى نرد مورده، ولا نُلقِي بأيدينا إليك تحكم فينا بالقتل، ولكن نموتُ كرامًا.

فقال لهم الإسكندر: مَنْ وضع السلاح، فهو آمن!

فوضعوا السلاح، فكفَّ عن القتال، ودخلوا في سلمه.. فأحسن إليهم، وأمر بجسد «فور» فطُيَّب، وكُفِّن، وفَعَلَ به ما يفعل بالملوك من الكرامة، وأخذ أمواله، وما كان في أرضه من السلاح.

وقيل: إنها لما التقيا، قال له «الإسكندر»: أتستعين عليّ، وأنا أضعف منك؟

فغضب «فور»، وقال: بمن؟

فقال له: بالفارس الذي خَلَفَكَ.

فالتفت «فور» فزرقه بمرازق، فذبحه.

ثم خرج عليه (ابنه)، فقتله محاربةً، ثم أخذ أموالهم، وما كان في أرضه من ذلك السلاح.

ثم سار إلى (البرهمانيين) لما بلغه من علمهم، وجمعهم، فلما بلغهم مجيئه أنفذوا إليه جماعة من علمائهم، وكتبوا إليه: من «البرهمانيين» البشر إلى «ذي القرنين» إن كنت أتيت لقتالنا، فليس عندنا ما تقاتلنا عليه، فارجع فإننا مساكين، وليس لنا إلا الحكمة بلا أموال.. والحكمة ما تنال بالقتال، فإن كانت الحكمة طلبك من قبلنا، فارغب إلى الله تعالى، ولا دنيا نعطيها.

فلما قرأ كتابهم أمر أصحابه بالوقوف، وسار إليهم في عُسبة يسيرة، فلما دنا منهم رأى قومًا عُرَاةً.. مساكنتهم المطال، والمغائر.. وأبناؤهم ونساؤهم يجتنون البقل.

قائلهم، ومرت بينه وبينهم محاورات ومسائل كثيرة من الحكمة.. ثم قال: اسألوني لعاقبتكم.

فقالوا: نسألك الخلود، ولا نريد غيره.

فقال: كيف يقدر على الخلود لغيره من لا يقدر لنفسه زيادة ساعة في عمره؟ هذا لا يملكه أحد.

فقالوا له: إذا كنت تعلم هذا، فما تريد من قتال هذا الخلق وإبادتهم، وجمع كنوز الأرض وأنت مفارقها؟

فقال لهم: لم أفعل هذا من قِبَل نفسي، ولكن ربِّي بعَثني؛ لإظهار دينه،
وَقَتْل مَنْ كَفَّر به، أما تعلمون أن أمواج البحر لا تتحرك حتى يحركها الريح؟
فكذلك أنا لو لم يبعثني ربي، لم أبرح من موضعي، ولكنني مطيع لربي عزَّ
وجلَّ، منفذ أمره، حتى يأتيني أجلي، وأفارق الدنيا عُريانًا، كما دخلتها.

ثم انصرف عنهم، وقيل: إنه صالح أهل الهند على (الخراج) في كل سنة،
وحمل كأس اليد إليه، وأخرج الشيخ الحكيم، فأعطوه ذلك، وكان الكأس من
خشب يجذب الماء، كما يجذب المغناطيس الحديد.

حتى يمتلئ، فلا يحتاج صاحبها إلى اصطحاب الماء في المفاوز
والصحارى.

واليد صَنَم تعبده، والهند تزعم أنه إنما مُلئ الكأس من أجل عبادتهم له.
وكتب إلى معلمه «أرسطاطاليس» يخبره بعجائب ما رأى في بلاد الهند،
ويستطلع رأيه فيما يفعله من سياسة أمره، وتديره البلاد والأمم..

ثم توجه إلى الصين.. ومضت بينه وبين ملكها مكاتبات ومراسلات
كثيرة، استقر آخرها على أن أنفذ إليه ملك الصين يخبره بطاعته وإذعانه إلى
قوله، وبعث إليه بتاج، وقال: أنت أحقُّ مني.

وأنفذ إليه من هدايا الصين من الذهب والفضة والجواهر، والمسك
والعود، والسيوف والسروج.. وغير ذلك شيئًا عظيمًا.

ثم قدم وفد الصين عليهم فوصَّاهم، ووعظهم وأمرهم بلزوم السنن
الواجبة العادلة، وكتب لهم عهدًا أبقاء في أيديهم، يعملون عليه في مسيرتهم.

وانصرف عنهم، ودَوَّخ بلاد المشرق كله: الترك، وغيرهم.. وبَنَى المَدَن فيها، وبَنَى السد، وملك الملوك، وولَّاهم من قِبَله، وجعل عليهم الإتاوة. ويؤدي كل واحد على ما يحتمله حالة في كل سنة، وعمل العجائب، وتوجَّه منصرة إلى المغرب.

وذكروا أنه كان فيما ينظر المنجِّمون فيه من نهاية انقضاء مُلك «الإسكندر»: أن آية ذلك... أن يموت على أرض من حديد، تحت سماء من ذهب.. فبينما هو يسير ذات يوم إذ رَعَفَ رَعافًا عظيمًا..

فأهذه الضعف حتى مال عن فرسه، فنزل بعض قواده، فنزع درعه، وفرشها له، وظلله من الشمس بترس من ذهب.

فلما رأى ذلك قال: هذا أوان منيتي.. فدعا بكاتبه، وقال: خفف عليَّ بعض ما نزل بي بكتاب أوجَّهه إلى أُمِّي.. فإذا فرغْتَ منه، فاقرأه عليَّ قَبْل موتي.. فإني أظن عن قليل سينزل بي.

وكان الكتاب المعروف الذي أوَّلَه: (من العبد بن العبد «الإسكندر» رفيق أهل الأرض بجسده قليلًا، ومجاور أهل الآخرة بروحه طويلًا.. إلى أمه «روقيا» الصفية الحبيبة التي لم يتمتع بقربها في دار القُرب، وهي مجاورته غدًا في دار البُعد).. إلى آخر الكتاب.

وكان بدء موضعه بقومس، واشتدَّ بشهر زور، ومات بروسقاد.

وكان قد أوصى أن تكفَّن جثته، وتُجعل في تابوت من ذهب، ويحمل إلى الإسكندرية فيواري هناك.

فَفَعَلَ ذَلِكَ، وَحُمِلَ عَلَى مَنَاقِبِ الْعُظَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ، وَالْأَشْرَافِ وَالْمُلُوكِ،
وَالْوُزَرَاءِ وَالْأُمَرَاءِ.. وَسَائِرِ طَبَقَاتِ النَّاسِ، وَيَلْقِيهِ ذُو الْقَرَابَةِ مِنْ أَهْلِ
الْأَخْصِ فَلَا أَخْصَ.

ثُمَّ قَامَ زَعِيمُ الْقَوْمِ، قَالَ: هَذَا يَوْمٌ عَظُمَتِ الْعِبْرَةُ فِيهِ، وَكُشِفَ لِلْمَلِكِ
عَنْهُ، وَأَقْبَلَ مِنْ شَرِّهِ مَا كَانَ مُدْبِرًا، وَأَقْبَلَ مِنْ خَيْرِهِ مَا كَانَ مُقْبِلًا، فَمَنْ كَانَ
بَاكِيًا عَلَى مَلِكٍ فَلْيَبْكِ، وَمَنْ كَانَ مُتَعَجِّبًا فَلْيَسْتَعْجِبْ.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْحُكَمَاءِ، فَقَالَ: لِيَقُلْ كُلُّ امْرَأٍ مِنْكُمْ قَوْلًا يَكُونُ لِلْخَاصَّةِ
مَغْرِبًا، وَلِلْعَامَةِ وَاعْظَا.

فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَقَالَ «مِيلَا طُوس»: «خَرَجْنَا إِلَى الدُّنْيَا جَاهِلِينَ، وَأَقَمْنَا فِيهَا
غَافِلِينَ، وَفَارَقْنَاهَا كَارِهِينَ.

وَقَالَ «زِينُون»^(١) أَصْفَرُ: يَا عَظِيمُ الشَّأْنِ.. مَا كُنْتَ إِلَّا ظِلَّ سَحَابٍ،
اضْمَحَلَّ إِلَى أَظْلٍ.. فَمَا يَحْسُنُ لِلْمَلِكِ أَثَرٌ، وَلَا يَعْرِفُ لَهُ خَبَرٌ..

وَقَالَ «أَفْلَا طُون» الثَّانِي: أَيُّهَا السَّاعِي الْمَغْتَصِبُ.. جَمَعْتَ مَا خَذَلْتَ،
وَتَوَلَّيْتَ مَا تَوَلَّى عَنْكَ.. فَلَا سَلَمَتَكَ أَوْزَارُهُ، وَعَادَ عَلَى غَيْرِكَ مَهْنَاهُ وَثِمَارُهُ.

وَقَالَ «فُوطُس»: أَلَا تَتَعَجَّبُونَ مِمَّنْ لَمْ يَعْظُنَا اخْتِيَارًا، حَتَّى وَعَظُنَا بِنَفْسِهِ
وَاضْطَرَارًّا؟

وَقَالَ «مَطْرَد»: قَدْ كُنَّا بِالْأَمْسِ نَقْدِرُ عَلَى الْإِسْتِمَاعِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْقَوْلِ،
وَالْيَوْمَ يَقْدِرُ عَلَى الْقَوْلِ.. فَهَلْ نَقْدِرُ عَلَى الْإِسْتِمَاعِ؟

(١) زِينُون الرُّوَاقِي ٣٣٦-٢٦٤ ق.م. فِيلَسُوفٌ «نَانِي»، مُؤَسِّسُ الْمَذْهَبِ الرُّوَاقِيِّ.

وقال «ثاون»: انظروا إلى حُلُم النائم.. كيف أيقظ؟ وإلى ظل الغمام كيف انجلى؟

وقال «سنوس»: قد أَمَات هذا الشخص كثيرًا؛ لثلا يموت.. فمات، فكيف لم يدفع الموت عن نفسه بالموت؟

وقال حكيم: طوى الأرض العريضة، فلم يقنع حتى طوى منها في ذارعين.

وقال آخر: ما سافر «الإسكندر» سفرًا بلا أعوان وآلة، وعدَّة غير سفرة هذا.

وقال آخر: ما أذعنا فيها فارقت، وأغفلنا عمَّا عاينت.

وقال آخر: لم يؤدِّبنا بكلامه، كما آذانا بسكوته.

وقال آخر: مِن شدة حرصه على الارتفاع، انحط كله.

وقال آخر: الآن تضطرب الأقاليم؛ لأن مسكنها قد سَكَن.

وحمل تابوته إلى الإسكندرية، وعندما قَرُب من البلد، أمرت أمه أن يتلقوه بأحسن هيئة.. ففعلوا ذلك، فلما أُدْخِل التابوت عليها قالت: «العجب يا بُني.. لمن بَلَغَت السماء حكمته، وأقطار الأرض ملكه.. ودانت له الملوك عُنوة.. كيف هو اليوم نائم لا يستيقظ، وساكت لا يتكلم؟!»

فمن ذا يُبْلَغ «الإسكندر» عني؟ فيعظُم حياؤه مني، وتجوّد منزلته عندي؛ فإنه قد وعظني فاتعظت، ووعاني فتعريت، وصبرت.. ولولا أُنِي لاحقة به ما فعلتُ.. فعليك السلام يا بني حيًّا، فنعم الحي كنت، ونعم الهالك أنت».

وَحَصَرَها الحُكَماءُ، ونطقوا بالحكمة والموعظة، كما فعل من سَلَف.. ثم
أَمَرَت بالتأبوت، فُدفن بالإسكندرية كما فعل من سَلَف.

ثم صنعت طعامًا كما أمرها الإسكندرية في كتابه، وأحضرت له النساء...
لما وَضَعَ الطعام بين يديها، أقسَمَت عليهنَّ ألا يأكل من طعامها امرأة دخل
بيتها الحزن، أو أصابتها مصيبة.

فلما سَمِعْنَ ذلك أَمْسَكْنَ عنه، وقالوا: كُلُّنا دَخَل بيوتنا الحزن.

فقالَت «روقيا»: «ما لي أرى النساء حيارى؟! إني أظن أن البلاء والحزن
قد دخل عليهنَّ أجمعين مثل ما دَخَلَ عليَّ.. قد ولَّت الدنيا عني، وهذا الوهن
ركني، وأذعنتُ بحلول الزوال والدوام لبارئ الكل «الحي» الذي لا يموت،
ولا يزول، ولا يفنى، وكل موضعه فلموت تربَّى، وللغناء تغدَّى، وإلى الثكل
تصبَّر.

فما العِوض من فراق الحبيب، وثمره القلب، ومُتَى النفس.. ما أرى في
الدنيا وطنًا ولا مقرًا بعد هلاكه، إلا أني أهيِّم مع الوحوش.. إلى أن يكرمني
الباري بالبحق بدار الحبيب.

وملك وله تسع عشرة سنة، ملكه سبع عشرة سنة، وكان سنين محادب
وثمان وأوصاه بغير حرب إني أمة وثلاثون فعل وقيل ويقال: إنه في عظمة
على المشرق طاف الدنيا فقال باستمالة، بعد غلبته «لدارا» غير ست سنين
وكسر.

وكانت عِدَّة جيوسه ثلاثمائة ألف وعشرين ألفًا المقاتلة، سوى الاتباع.

وكان «الإسكندر» أشقر، أنمش، أزرق، لطيف الخلقة.. مات وله ست وثلاثون سنة.

وكان لا يُشبه أباه ولا أمه في الصورة، وكانت عيناه مختلفتين، إحداهما: شديدة الزرقة، والأخرى: تميل إلى السواد.. وإحداهما تنظر إلى فوق، والأخرى إلى أسفل.

وكانت أسنانه دقيقة حادة الروس، وكان وجهه كوجه الأسد.. كان شجاعاً جريئاً على الحروب منذ صباه.

وأوصاه والده أن يستمع كلام معلمه.

فقال له: إني لم آتِ هاهنا لأسمع، لكن لأفعل.

وقيل له: بما نلتَ هذه المملكة العظيمة على حداثة سنِّك؟

فقال: باستمالة الناس.. أما الأعداء فبتصييرهم أصدقاء، وتعاهد الأصدقاء بالإحسان إليهم.

وقال: ما أقبح الإنسان أن يقول ما لا يفعل! وما أحسن الفعل ابتداء قبل القول!

وقال: إن تفعل ما لا تقول، أحسن من أن تقول ما لا تفعل.

وقال: أحسن إن أحببت أن يُحسَّن إليك.

وسأل حكيمًا: بماذا يصلح الملك؟

فقال: بطاعة الرعية، وعدل السلطان.

وقَصَدَ قومًا لمحاربتهم، فحاربتهم النساء... فكَفَّ عن محاربتهنَّ، وقال:
هذا جيشٌ.. إن غلبناه، لم يكن لنا فيه فخر.. وإن غلبنا، كانت الفضيحة آخر
الدهر علينا.

وقال لوزير أقام معه مدة، فلم ينهه عن مجتنب: لا حاجة لنا في خدمتك.

فقال: ولم؟

قال: لأني إنسان، والإنسان لا يفقد الخطأ، فإن كنت لا تقف منِّي على
خطأ فأنت جاهل، وإن وقفت فسترتة فأنت غاشٌّ.

ومرَّ على قوم، فتوهموه مزاحًا كان يالفهم، فصَبُّوا عليه ماء.. فلما تبين لهم
أنه «الإسكندر» جزعوا جزعًا شديدًا، فقال: لا تجزعوا.. فإنكم ما فعلتم هذا
بي، وإنما فعلتموه بصاحبكم.

وقال: قتلت أرضًا جابرتها، وقيلت: أرض جاهلها.

وقال: ما نلتُ في ملكي شيء أحبُّ إليَّ من أني قدرت على المكافآت
بالإساءة، فلم أفعل.

ودخل على «الإسكندر» فقير، فقال: مُر لي بعشرة آلاف دينار!

فقال: ليس هذا قدرك.. فقال: فقدرك أيها الملك، فأمر له بها.

وقال: لولا العلم ما قامت الدنيا، ولا استقامت المملكة.

ولما أيقن بالموت دعا بكتابته، وأَمَلَ عليه كتابًا غير الأول: «الله الكافي..
من عبد الله الإسكندر، المستولي على أقطار الأرض بالأمر، وهو اليوم رهين..
إلى «روقيا» أمه الرحيمة الحنونة التي لم يتمتع بالقرب منها.. السلام عليك..

الطيب الذاكى.. إن سبيلي يا أمي سبيل من قد مضى من الأولين، وأنت ومن يتخلف بعدي بالأثر.. وإنا مثلك.. في هذه الدنيا.. كالיום الذي يتبعه، فلا تأسفي على الدنيا؛ فإنها عادة لأهلها، والعبرة في ذلك ما قد عرفت من الملك.. فليس حيث لم يجد سبيلاً إلى المقام معك، ولا تخافي عليّ، فتذرعي الصبر وانفي الجزع من قلبك، وتأسي بالمصائب.

فإن كل أحد تصيبه مصيبة، فتستعيني به على أمرك.. إلى أن تمضي لشأنك، فإن الذي أصير إليه خير مما كنت فيه.. فأحسني إليّ، وإلى نفسك بقبول العزاء والسلام على من اتبع الهدى».

وأمر بختّم الكتابين، وإنفاذهما إلى أمه سرّاً.

ويروى: أن ملك الصين أجاب «الإسكندر» بالطف جواب، وأنفذ رسولاً، وخادماً، وجارية، وطعام يوم، ودست ثياب.

فتحير «الإسكندر»، وقال: ليس هدية مثلي لمثلي فجمع الفلاسفة، فسألهم؟ فقال له واحد: إنه رمز.. أي: أنه لو ملكت الأرض، وكفاك جارية تطوّها، وثوب تلبسه، وخادم خدمك، وطعام تأكله، فما الحاجة إلى ما تصنع؟ فقال: لقد وعظني بعظة كافية، وتركه.

وكان يقول عند موته ببابل: «ربي.. أنلني رضاك.. فكل ملك باطل سواك».. حتى قضى، فأودع في تابوت من ذهب، حتى لا يمس جلده التراب إجلالاً له.

وسرّ الوزير موته، وقاد الجيوش والخزائن، حتى انتهى به إلى

الإسكندرية.

وأخرج التابوت فوضعه في البلاط لتمام اثنين وثلاثين سنة عاشها في الدنيا.. مَلَكَ منها اثني عشرة سنة.

وقيل: إن بعض عبيده سَمَّه، فقتله، وأظهر للوجود والحاضر موته.

وقال: كل واحد من الحكماء يرثيه.. أشار بذلك الوزير.

وقيل: لَمْ لا تُكثر الكنوز؟ فقال: أصحابي هُما الكنوز.. فأكثرها فيهم، ولا أكثرها في البيوت.

وقال لرجل سُمي «الإسكندر»، وكان كثيرًا ما ينهزم.. فقال له: إما أن تغَيِّرَ اسمك، أو تنتقل عن فعلك.

وجد في عضده صحيفة: قلة الاسترسال إلى الدنيا أسلم، والاتكال على القَدَر أروج.

عند حُسْنِ الظن تقع العِبر.

لا ينفع لما هو واقع.. التوقِّي.

سأله رجلان من أصحابه أن يقضي بينهما، فقال: الحكيم يُرْضَى أحدكم، ويسخط الآخر.. فاستعملا الحق يرضيكما جميعًا.

وجلس يومًا فلم يسأله أحد، فقال: لا أعد اليوم من عمري.

وقال «الإسكندر» لجلسائه: ينبغي للرجل أن يستحي، أن يَأْتِيَ قبيحًا في منزله من أهله، وفي غيره ممن يلقاه وحيث يأمن فمن نفسه، وإلا فمن الله.

وتشاور الحكماء في أن يُسجد له كالإله؟ .. فنهاهم قال: لا سجود لغير
بادئ الكل، ويحق له السجود على من كساه بهجة الفضائل.

يقال: إن رسول «أرسطو» قَدِمَ على «الإسكندر».. فمكث طويلاً لا
يتكلم.. فقال له الإسكندر: إما أن تقول فأسمع، وإما أن أقول فتنصت.

فقال: التخير لك أيها الملك.

فقال له: ما فعل الحكيم؟

فقال: أيها الملك... جد في الجهاد، ولقد كان حذرًا مستعدًا.

قال: ما بلغ جده؟

قال: عينه لا تسكن، ولا تطرف.. ولسانه لا ينتقد الدنيا عنده كالقيح
والدم.

قال: كيف عمل في الرعية بعدي؟

قال: أثار القلوب المظلمة في الصدور الحزينة، وكثر فيها الحكمة، وأمات
فيها الجهالة.

قال: فما لباسه الظاهر؟

قال: الزهد في الدنيا، والامتناع عن شهواتها.

قال: فما لباسه الباطن؟

قال: الفكر الطويل، والتعجب الدائم.

قال: بم ذاك؟

قال: من أهل الدنيا، كيف اغترؤا بها؟! ومن أهل التجربة، كيف وثقوا بها؟!!

قال: فمن أيهم كان أكثر تعجباً؟

قال: من مصروعها... كيف عاودها؟

ومن مسلوبها... كيف راجعها؟

ومن الذي مات أبوه... كيف رجا البقاء؟

ومن باقها... كيف فرح بما ليس بدائم؟

ومن فقيرها... كيف حزن على فوت ما يشقى به الغني؟

قال: فمن أيها كان أشد تعجباً؟

قال: من جميعها سواء؛ وذلك أن هذا فرح بما ليس له.. وهذا حزن على فوت ما يشقى به الغني... كيف لم ينله؟ فأحب أن يثقل ظهره، وهو خفيف الظاهر.

وأحب أن يكثر همّه، وهو قليل الهمّ والغمّ.

وأراد أن يكون في تعبٍ ونصبٍ، وهو مستريح.

وإنما يكفيه من الدنيا ما يسد جوعه، ويذهب ظمأه، ويستر جسمه.

قال: أهو في دوام الملك للملك أظهر سروراً؟ أم في زواله؟

قال: بل في دوامه.

قال: ولم ذلك والدنيا ليست من شأنه؟

قال: للقدرة على إظهار الحكمة في سلطانه.

والاستمعان من إفاضة العلم وإشاعته.

وتقريب الحكماء والعلماء، وأخذ الرعية بالأدب العائد بالخير.

ودرك الأجر في تبصير أهل الجهالة.

وحمل الناس على الهدى والسيرة الفاضلة.

والقوة على رفض الشهوات.

وترك اللذات عند القدرة عليها.

والتمكن منها والامتناع عنها، ورفض غلبتها عند تكاثرها وتواترها.

فإن الدنيا لم تغلبه في نفسه، ولم تورضه في فجاجها، ولم تمده بحلاوتها، وأنواع خدعها، وزخارفها الملونة، وأسباب غرورها التي يسرع إليها أهل الجهالة الذي لا يفكرون في عواقب الأمور.. فقهر الدنيا، ولم تقهره، وضبطها ولم تضبطه..

ولكنها كلما لمعت له، ازداد منها بُعْدًا.

وكلما تزينت له، ازداد منها استيحاشًا.

وكلما تقربت إليه، ازداد منها نفورًا.

قال: كيف كان هيئته للموت، وخوفه على الوقوف على مُحاسب النفوس

ودَيَّانها؟

قال: كان الموت مشتاقًا، ولما بعده مرتجياً.

قال: ولم ذلك؟

قال: لأنه افتدى نفسه بالدنيا، وفك ذهنه بالبر، وباع نفسه بالآخرة، فسعى الحكيم لآخرته، فاشترى النعيم الباقي بالنعيم المنقضي، وصار الموت عنده نجاة من الحبس، لا يسلبه الموت شيئاً مما قَدَّمَ من الخير، وتزوج من الحساب.

قال: فما أغلب طباعه عليه؟

قال: الرحمة لكل أحد، والكف عن الأذى لكل أحد، والإحسان إلى كل أحد، والتوقير لأهل العلم والحكمة، وبذل فوائد الخير للمستفيدين، وشكرهم على تعلم الحكمة، والاستفادة.

قال: كيف تركت أهل البلاد؟

قال: استلَّ الجَهِل سيفه، وأقلت من أساره، وعزَّ بعد ذلِّه، ودهماوهم على العلماء والحُكَّماء والصالحين، فأذلَّوهم وهجروهم، فانقطعت مواد العقول، وضمُرت النفوس، ودخل الحزن عليها.. فنحن مقتدرون من أيدي الجُـهال، منتشرون في عيش كدر.

فبكى عند ذلك «الإسكندر» وقال: ضاربنا وجهلنا في طلب هذه الدنيا الغدَّارة، وصابر العلماء، وجهدوا في رفضها، وأبوا أن يقبلوها، وأبينا برفضها، ورغبنا فيما زهدوا فيه، وزهدوا فيما رغبنا فيه، وأعقبهم فعلهم سروراً، وأعقبنا فعلنا حزناً طويلاً.

فأصبحنا نرثي لأنفسنا، ونغبطهم، ونبكي لأنفسنا ونفرح له.. فالويل

والثبور، بمن سكنت منه الدنيا، وجمع ما جمع فيها، ولم يدرك الآخرة.

وقال أيضًا: هذا العلم، فليستأنف لنفسه خلقًا آخر، يعني: يجب ألا يتبع المحسوسات، والأموال المعتادة.

وقال: نظر النفس: هو العلاج للنفس، وهو العناية للنفس، وردع النفس للنفس هو العلاج للنفس، وعشق النفس للنفس هو المرض للنفس.

وسئل: أي شيء أصعب عملًا؟

فقال: السكوت.

وسئل عن الأشياء التي بها يصير فيلسوفًا؟

فقال: ثلاثة: فقر، وطبيعة، وعناية.

وقال: الإنسان مضطر في صورة مختار.

وسأله «الإسكندر»: أن يسير معه إلى بلاد آسيا.

فقال: لا أحب أن ألزم نفسي العبودية وأنا حرٌّ.

ولما عزم على حرب «دارا» آتاه المعلم زائرًا، ومودِّعًا، وقد غاب عنه مدة،

فأراد أن يجزل له العطاء.. فسأل الخازن عمًا في بيت المال؟

فقال: خمسمائة ألف دينار!

فقال: تدفع إليه الجميع؛ فإني على محاربة هذا الرجل.. فإن غلبنا، فهو

أحق إذا كان مُعلمنا.. وإن غلبنا، ففي مال «دارا» ما يفي بحاجتنا.

وقيل: إنه كان يحاور «الإسكندر» في عمل يوم، ويقسمه أربعة أقسام.

الأول: يناظره في العدل.

والثاني: يناظره في الحكم.

والثالث: في الشجاعة.

والرابع: في العفة.

ولمَّا عَزَمَ على الخروج على أقاصي الأرض، وعرض عليه الخروج معه ثانيًا.

فقال: نحل جسمي، وضعفت عن الحركة، فلا ترعجني.

فقال: فأوصني بشيء يرفع قَدْرِي، ويحبيني إلى رعيتي.

فقال: تعلَّم العلم، واعمل به، واستنبط ما يحلو بفكرة السامعين، ويعذب على ألسنة الذاكرين، تنقاد لك الرعية من غير حرب.

وقال: النفس ليست في البدن، بل البدن في النفس؛ لأنها أوسع منه، وأبسط قطعة من الرسالة الذهبية.

لما دخل «الإسكندر» بلاد الهند، ورأى بيت الذهب، استحسنته.. فكتب إلى «أرسطو» يخبره بذلك.

فأجابه «أرسطو»: أما بعد.. فأني رأيتُ الفلسفة على طول الروية، وأجالة الفكرة، أيُّها الملك أمراً شريفاً متعالياً صاحباً بالإلهية، قد يزيد فضلها ظهوراً يقربها إلى النظر في جميع الخلائق، وإجهادها في درك حقائقها، وأنها لم يخبر عن هذا الأمر لعظمه وارتفاعه عند ملوك جميع الصناعات عنه، ولم يرَ لنفسها بأنها ليست أهلاً لهذه الفضيلة، بل رأت معرفة الحق كله مشاكلة لها، جميلة بها.

ولما لم يوصل إلى البلد السامي، وبلوغ ما هناك بمحاورة الأرض، وما عليها بالجسد الجافي الثقيل، كما هو قوم اللودانيين حارت عقولهم، لكن للنفس بمخالفة الفلسفة، والنهوض بما تعدت بعقلها، ونهجت لنفسها طريقًا سارت فيه غير شاق، ولا مجتر.

ثم عمّدت إلى ما يتباين ويتفرق من الأشياء.. فجمعت في فكرتها.. فخزنته هناك، فسهلت عليها معرفة الأمور كلها؛ إذ تتأمل بعين لطفها الأمور الإلهية، وينهى عنها الناس جودًا منها بعطاياها الكريمة، واقتدارًا على الأفعال الجميلة.

فكذلك .. كل من اجتهد في تعب بلد أو نهر أو جسر به جبل، كما فعله بعض القدماء، من الخراب «فودفيون»، ووصف الأرض لم يكن أهلاً أن يتعجب منه، بل من يرحب لنقض رؤيته، وفخامة أمره في نفسه بما أدرك من الفطن الصغيرة التي نزلت عنده بمنزلة العظام لغشاء أبصارهم عن الفضائل المشهورة، أعني: أجر العالم.

فلو أحاطوا تعليمه، لانقطع تعجبهم مما سواه.. وكان صغيرًا لا خطر له إذا قيس بشرب هذا.

وأما نحن.. فمشتبون جوهر كل شيء وحركته.. وأنا أسألك أن تشارك هذا العلم الذي ينزل الفلسفة منزلتها، ويرفعها عن منزلة الصنعة لصبح يمسك من مواهبها النفسية، وأقسامها المغبوبة.

وكان يوصي أصحابه قائلاً: جودوا على أقربائكم، وأكرموا إخوانكم، وأحسنوا إلى المنقطعين إليكم.

وكان ينادي على باب «الإسكندر» في كل يوم ثلاثة أصوات:

يا معشر الناس.. التمسك بطاعة الله عزَّ وجلَّ، أحسن من الوقوف على المعصية وأسلم... فاحذر؛ فإن الطاعة تجدي، والمعصية تردي.

كتبت «أم الإسكندر» إليه: احذر طبيبك من السم.

فدعاه وأمره أن يأتيه بشربة من الدواء، فتناولها من يده اليمنى، ورفع إلى الكتاب بيده اليسرى، وقال: اقرأه لتعرف كيف يعنى بك.

ودخل على «الإسكندر» رجل فقير في أصحاب الحوائج، فاستحسن منطقته وكان رث الكسوة.

فقال له «الإسكندر»: ليكن حُسن ثوبك، كحُسن منطقك.

فقال: أيها الملك... أما الكلام فأقدر عليه، وأما الكسوة فأنت أقدر عليها.

فأمر... فخلع عليه، وأحسن إليه.

عزَّل «الإسكندر» عاملاً له من عمل نفيس، وولَّاه عملاً خسيئاً.. فقدم عليه بعد حين، فقال له: كيف رأيت عملك؟

فقال: أيها الملك... ليس بالعمل الكبير ينبل الرجل، ولكن الرجل هو الذي ينبل عمله.. وإن كان خسيئاً، بحسن السيرة، وإنصاف الرعية.

فاستحسن ذلك منه، وولَّاه من أجل أعماله.

وسعى إلى «الإسكندر» برجل من أصحابه فقال له: تحب أن نقبل قولك

على أن نقبل قوم من سعيت به فيك.

فقال: لا.

فقال: فكف عن الشر، فيكف الشر عنك.

ووقف يومًا على «ديوجانس»^(١) فقال له: أما تخافني؟

فقال له: أيها الملك.. أنت خير، أم شر؟

فقال له: بل خير.

فقال له: فما لخوفي من خير مغنى.. بل الواجب عليَّ محبته.

وأحضر إلى «الإسكندر» لص، فأمر بصلبه.. فقال: أيها الملك تلصصت،

وأنا له كاره.

فقال: تُصلب الآن، أنت له أشد كراهة.

ووقف بين يدي الإسكندر «مستانس» الخطيب، فخطب على الناس

فأغرب الخطبة وطولها.. فنهره «الإسكندر»، وقال: ليس بحسن الخطبة

يحسب طاقة الخطيب.. لكن بحسن طاقة من يسمعها.

أخبر «الإسكندر» أن رجلين طلبا ابنة بعض الحكماء، أحدهما: غني،

والآخر: مسكين، فدفعها إلى المسكين، فسأله «الإسكندر»: لم فعلت ذلك؟

فقل له: الغنى آفة.. فلذلك أثرته على الغني.

(١) ديوجانس «٤١٢-٣٢٣ ق.م» فيلسوف يوناني، من الكلبيين، عاش في أثينا داعيًا إلى

البساطة فعاش في برميل.

وسأل «الإسكندر» حكيمًا: بم تُصلح الملك؟

قال: بطاعة الرعية له، وعمل بالسُّنة، والعدل فيها.

سأل «الإسكندر» «قراطس»: أيُّ رجل يصلح أن يكون ملكًا أمَّ حكيم بملك، أو ملك يلتمس الحكمة؟

وذكر «الإسكندر» أن أخوين جاهدا في الحرب، وأن أحدهما قال للآخر: تُرى الملك يعرف «أناجينًا» وهو غائب؟

فأجابه أخوه: إن كان الملك غائبًا عن ما يجب لنا، فإننا لا نغيب عما يجب للملك.

فأمر بالإحسان إليهما، وإزالة الصلة لهما.

قال «أليون» البطريق «للإسكندر»: معنا من الأسارى خَلَق كثير، وهم أعداؤك فلم لا يسترقون؟

قاله: لا أحب أن أكون ملكًا للعبيد، وأنا ملك الأحرار.

وسأل «الإسكندر»: ما الذي ينبغي للملك أن يلزم نفسه؟

قال: يفكر ليله فيما فيه مصلحة رعيته، وينفذ ذلك بالنهار.

وسمع «الإسكندر» رجلين من أصحابه يختصمان، وكل واحد منهما يهتك صاحبه، وكانا قبل ذلك متصافيين.

فقال لجلسائه: ينبغي للرجل (إذا واخا مصافيًا) أن يتوقَّى مفسده، ولا يسترسل إليه فيما يفشه.

وسأل «فورس» الإسكندر: إذا سألت الحكماء من شيء، فسلني.. فلاني لا أعجز عن الجواب.

قال: فما الذي ينتفع به الرجل عند الكِبَر؟

قال: المال.

فأعجب به.

وسأل الإسكندر «فورس» الحكيم: أين الشَّعر من الحكمة؟

قال: إن أردتَ الملق، وحلاوة الكلام.. فالشَّعر، وإن أردت صحة الكلام وصدقته، فالحكمة؛ لأن الملق حلو، والحق مُر.

غضب «الإسكندر» على بعض الشعراء، فأقصاه.. ففرَّق ماله في الشعر، فقليل له: قد بالغت في عقوبته أيها الملك.

فقال: نعم أقصاني إياه لجُرمه، وتفرّقي ماله في أصحابه؛ لئلا يشفعون فيه.

بلَّغ «الإسكندر» موت صديق له، فقال: ما يحزنني موته، كما يحزنني أنني لم أبلغ من برِّه ما كان أهله مني.

فأجابه «يلمس» فقال: أيها الملك.. ما أشبه قولك بقول «ثالس»^(١)، حيث أصابته الطعنة وهو يجود بنفسه.

(١) ثاليس «نحو ٦٤٠-٥٤٨ ق.م» ولد في ميلاتوس (آسيا الصغرى) فيلسوف، ورياضي يوناني.

ويقول: ما يحزنني موتي، كما يحزنني ما فات من الإظهار لبأسي وبلائي للعدو.

ودخل «ماتن» الملهى على «الإسكندر» فقال: مُر لي أيها الملك بعشرة آلاف درهم.

فقال: ما أيسر ما طلبت.

قال: سألت أيها الملك على قدري، ولتكن عطيتك على قدرك.

فأمر له بعشرة آلاف دينار.

وسأل الإسكندر جلساؤه: بأي شيء يكتسب الثواب؟

فقال له «ديوجانس»: أفعال الخيرات، وإنك لتقدر أيها الملك أن تكتسب في كل يوم واحد ما تكسبه الرعية في دهرها.

سأل «الإسكندر» حكماء الهند: لم صارت السنين والشرائع قليلة في بلدكم؟

قالوا: لإعطائنا الحق من أنفسنا، ولعدل ملوكنا علينا.

سأل «الإسكندر» حكماء بابل: أيما أبلغ عندكم: الشجاعة، أم العدل؟

قالوا: استعمال العدل: أغنى عن الشجاعة.

وروينا قصة في بعض الكتب تُحكى على نهج آخر.. وذلك: أن أباه كان رجلاً يقال له: «فيلبس» من أهل مدينة يقال لها: (مقدونية)، وكان من أهل بيت الملك أفضى ذلك إليه وراثته عن أبيه.

كان رجلاً عقيماً لا يولد له.. فاشتد ذلك عليه وعلى أهل مملكته مخافة أن يحدث عليه حدث، فيذهب ذكره، ولا يكون له عقب.. فكثُر لذلك همّه؛ لأن الملك لم يكن فيهم قديماً.

فجمع أصحاب النجوم، ومن له علم بالحساب، وكل من يظن عنده معرفة، فسألهم النظر في أمره، فأجمعوا على أنه مسترزق ولدًا يكون له علم وشرف يبلغ أقطار الأرض، ويبلغ ملكه ما لم يبلغ مُلك أبيه.

فسرَّ بذلك، وبهج له.. وجعل يترقب الوقت الذي وُقَّت له.. وجعل يتوقَّى أن يقرب من نسائه إلا ذات الحُب والجمال.

فمكث حيناً.. ثم إنه ذات ليلة خلا بنفسه، وعرضت له فكرة في زوال العالم، وما الناس فيه من ويل الرحلة منه.

فبينما هو في ذلك، إذ رأى حية عظيمة قد توسطت البيت معه، فأرعبه ذلك، وأذهله عن ما كان فيه من الفكرة.

ثم سمع صارخاً يقول: «فيلبس».. قد وُهبَ لك غلاماً يحْيِي ذُكْرَكَ، ويقوم به نسلك.. ثم توارت عنه الحية.

فقام من ليلته، فواقع أخصَّ نسائه، فحملت من ليلتها.. فلم تزل مصونة حتى ولدت غلاماً، فسماه «الإسكندر».. فنشأ نشوءاً حسناً.. حتى بلغ سبع سنين.. فطلب له المعلمين، والمؤدِّبين.

وكان مجتمع الحكماء وأهل الأدب في مدينة ما يقال لها: «أثيناس» «أرسطو» الفيلسوف.. فكتب إليه الملك كتاباً نسخته: «أما بعد... فإنه لو كان

بالمرء غناء عن الطريق المحمود، والسُّبُل المرشدة، والفحص عن ذلك،
وطلبه من مواضعه.. لكان الأولون المتقدمون حذَّروا بترك ذلك، ولم يكن
عمارة ولا أدب، ولا ملك ولا مقدرة.

وأحق الناس أيها الحكيم يطلب ذلك، والمعافة له، والدأب في طلبه،
والاجتهاد في ذلك: من كان بأمور الناس معينًا، وللقيام بأحوالهم وصلاحتهم
متضمنًا، مستكمل بمعرفة ذلك الخطبة عليهم، والذب عنهم، والمنع من
عدوهم، والنظر في مصلحتهم.

وقد اجتهدت نفسي إذا كنت المتولي لذلك القائم به، وفي واجب حق أهل
مملكتي عليّ، ومن كُنْتُ لأمره متقلدًا، وبه قائمًا أن أقدم له حُسن النظر، وجميل
الاحتياط.. حتى يكون ذلك لي باقيًا، وأن أودع قلوب الناس بعد المفارقة لهم
من جميل الذِّكر ما يبقى.

وقد وُهِبَ لي ولد، امتحتته من صغره بالعلامات التي وصفها الكهنة
فيه.. فوجدته هو الذي يتولَّى هذا الأمر من بعدي، وأرجو أن يكون ذلك.

وأحببت أن ينال ذلك بغاية العلم به، والمعرفة له، وإصلاح تدبيره..
فيكون متمسكًا بالدين، قائمًا بحق الرئاسة، ورضي الناس عنه بما يظهر من
وفق سياسته، ومحمود رياسته، فيبلغ من ذلك مبلغًا محمودًا يتحدث به، ويبقى
ذكره.

وإنه ينبغي لمن كان في مثل هذا المحل أن يصرف نفسه في منفعة رعيته،
ويودعهم من جميل فعله بهم ما ينبغي لهم.. فإن من يُذكر بحُسن الأثر،
وثواب التدبير.. فذكره غير دائر.

وقد منَّ الله تعالى على أهل هذا العصر بك أيها الحكيم لعلمك، وقديم أثرك، وكثرة تجاربك.. فأردتُك لهذا الأمر الجليل، ورأيت إبداعك هذا المصون، وسألتك توفيقه على ما فيه مصلحة الرعية.. حتى يُشاكل كل واحد منهم صاحبه، ويصح للراعي الرعية على حقها، كما يصح للرعية رعايته.. فيتولَّى هذا الأمر ليحسم بعدي.

وأعقد ذلك له في أعناق نظرائه، ويقدم فيه بعد التوفيق، فكتب إليه «أرسطو» جواب كتابه هذا: «أما بعد.. فإن كتاب الملك العظيم ذكره، العالي قدره وصل إليَّ بأعظم السرور، وأفضل البهجة، لعظيم الرأي الذي وُفق له الملك الظاهر فضله، المنتشر كرمه.

فهمت ما ذكر من الكهانة، وما وصفت به ابن الملك.. ولعمري أنه على ما وصفته للملك، وجدته سيبلغ مُلكًا إلى ملكه، ويستفيد سلطانًا إلى سلطانه وجُنْدًا، وأَعوانًا، وبلدانًا.

ويستحمل الناس على سُنَّة القسط، وحق العدل.. فإنه وإن كان يجب على الملك النظر في الأمور الغامضة والفحص عن جميع ذلك؛ حتى يصح عنده، فيتفقد أمره على ما عرف منه؛ حتى تصح له أمور العامة.. فإنه يجب على العامة الفحص حتى تصح له أمور العامة.. فإنه يجب على العامة الفحص؛ حتى تصح، ويجمعوا للملك الحق الذي له عليهم ضرورة.

وقد قال «إقليدس»^(١): إنه لا ينبغي لأهل الحكمة أن يمنعوها طلابها؛ فإن من منع ذلك، كان بمنزلة من منع الماء الظمآن إليه.. وكذلك لا ينبغي أن تفرض على من لا يطلبها، فتقل قدر الحكمة، ويُستخف بها، وتحق له أن يكون بمنزلة من يعرض على الريان من الماء العذب: الماء المالح.

و«قد عرف الملك حال مدينة (أثينا)، وإن آباءك -المحمود أثرهم، والذين كانوا أسسوا العلم فيها، وتقدموا فيه بكتاب وضعوه عند «ميروغس»: رئيس الكهنة بأن لا ينقل العلم فيها، وأن تكون هي معقل ذلك وموضعه، فإنه متى صار الأمر إلى خلافها، دُثر ذكرهم، واضمحل الاسم الذي شرفوا به.

ولعمري.. كاد أن يدخل الحُثل.. حتى حُسن نظر الملك في ذلك وكثر تفقده، وأمره بإقامته على ما يزال.

وقد قال «أميروس»^(٢) الشاعر: إن الحكمة تريد خلاء موضع؛ لترسخ في العقول، ويفهم.

(١) إقليدس: عالم رياضة يوناني نشأ في الإسكندرية، ربما في عهد بطليموس الأول «٣٢٣-٢٨٥ ق.م» أنشأ مدرسة مشهورة بالإسكندرية، وله مؤلفات منها: «الأصول»، و«الظاهرة»، و«التقويم»، و«البصريات»، و«القسم».

(٢) أميروس، أو هوميروس «القرن التاسع ق.م» ولد في آسيا الصغرى، شاعر ملحمي يوناني، قيل: إنه كان أعمى، نسب إليه المؤلفون اليونان أشعار «الإلياذة»، و«الأوديسة»، و«الأغاني الهوميرية» التي أثرت تأثيراً عميقاً على مستقبل الشعر اليوناني.

وقد أجبتك أيها الملك المَحمود إلى الذي سألتني، وامتدحت به عند أهل الحكمة، ورجوت أن يكون مسددًا، وأن يكون المشار إليه بهذا الأمر حقيقياً لما يؤمّل له من سعادة الجدد، وإظهار الرشد.

وبعد.. أيها الملك فإنه لم يكن بأثينا أحد يوازيه في القدر فإن فضل المذاكرة عزيز، زيادة عند من يريد الحكمة، وثبات المعرفة.. ففي سعادة أيها الملك، وما مكنّ لك دليل على زيادة ذلك لك أولاً وآخرًا.

فلما وصل الكتاب إلى «فيلبس» الملك، حمد ذلك من الحكيم.. ثم دعا بالقواد، وأهل النجدة والبأس، وأهل القدر.. يعقد لابنه البيعة في أعناقهم، وإطراء ذكر نفسه عندهم، وجدد لهم العطايا والمواهب.

وكتب إلى جميع عماله وأعماله، فأكد ذلك عليهم وصححه.. ثم كتب إلى «أرسطو» أحسن قبول، وقصد نحوه.. حتى بلغ الغلام حيث ظن به، ورجا أنه الحلف الصالح بعد أبيه.

فأقام بذلك خمس سنين ينمى بأحسن نمو، وبلغ أحسن المبالغة، ونال من العلم والفلسفة ما لم يبلغه أحد من أقرانه، ولا من أهل زمانه.

ثم إن أباه اعتل علة خاف منها على نفسه، فكتب إلى «أرسطو» يعلمه ذلك، ويسأله القدوم عليه بابنه؛ ليجدد العقد الذي عقد له.

فلما ورد الكتاب على «أرسطو» قَدِم عليه الإسكندر، وقد زَيَّن من العلم بأحسن زينة، فدخل على الملك، فأمر بتقديم مجلس «أرسطو» وأحسن المكافأة له على ما كان منه في ابنة.

وجَمَعَ أهل العلم وأولى المعرفة، فعالجوه.. فرءوا أنه قد بلغ العناية، فقال له الملك: أرجو يا بني أن تبلغ ما يؤمل لك، ويُزجى فيك من سعادة الجَد، ويكون المستحق للقيام بأمور الناس كقيام آبائك وتحتنا وعطفاً ورأفة.

ثم جدّد له البيعة، وتقدم بعقد الإكليل على رأسه، وأجلس مجلس الملك، ودخل عليه القواد والجنود.. فسلموا عليه بسلام الملوك.

ثم دعا «أرسطو» فقال له: الحمد لله الذي جعلك أهلاً لِمَا آتاك من العلم، وإياه أسأله الزيادة لك من الحُسنى، وشكّر له، وأعلمه موقفه منه.

ثم سأله أن يعهد إلى ابنه عهداً يخصه به، يكون عوناً وداعياً إلى مصلحته، ويكون عزاء للملك من فراق الدنيا.

فأجابه إلى ذلك، وبدأ بأن قال: ليس الأمر بالخير ما يتعد به من المطيع له، ولا المعلم أقل انتفاعاً بالعلم من المعلم له، ولا الناصح بأوّلَى بالمديح من المنصوح له، متى قيل له: إن أفضل ما أنت تارك هواك.. على ما أنت قضيت من لذته، والسرور به.. كفضل ما يقسم الناس من معاشهم في الدنيا.

وإن «الله» عزّ وجلّ لم يرض لنفسه من الناس إلا بمثل الذي رضي لهم به منه، فإنه رحمهم، وأمرهم بالتراحم، وصدقهم.. وأمرهم بالتصادق، وجاد عليهم، وأمرهم بالجود وعفا عنهم، وأمره بالعفو.

فليس قابلاً منهم إلا مثل ما أعطاهم، ولا آذناً لهم في خلاف ما أتى إليهم.. فأعطيت أمره من رأفتك، ورحمتك، وعفوك.

أيرغب في مثله موقياً بأنك إن أعطيت ذلك من نفسه، أعطيته موقراً؟

واعلم أنه لا شيء لك إلا ما نلت من جميل الذكر، ورضوان الخالق..
وإنك إن وثقت به.

وقال: شر من دونه، وإن من شق بغيره لا تدفع عن نفسك، ولا يدفع
عنك دافع.

واعلم أنك غير مصلح رعيتك، وأنت فاسد، ولا مرشدهم وأنت غاوي،
ولا هادهم وأنت ضال.. وكيف يقدر الأعمى أن يهدي البصير، والفقير على
أن يغني.. والذليل على أن يعز؟

واعلم أن ما استصلح المستصلح غيره، إلا بصلاح نفسه ولا أفسد المفسد
سواه، إلا بفساد نفسه... فإن دُعيت في صلاح مَنْ وَلَّيت أمره، فابدأ
باستصلاح نفسك.. وإن أردت دفع العيوب عن غيرك، فطَهِّر منها قلبك..
فإنك لا تقدر على تطهير غيرك وقد دنست نفسك، كبُعد الطيب من إبراء
غيره من دائه مثله.

ولا يزينك رأيك أنك إذا أحسنت القول دون الفعل.. فقد أبلغت إلى
السامعين منك، دون أن يصدق قولك فعلك، ويحقق سريرتك علانيتك.

واعلم أنك مطبوع على أخلاق مختلفة، منها: حسنات، ومنها: سيئات..
فأعدى أعدائك لك: سيئات أخلاقك.

وأولَى الأشياء بك: حسنات أخلاقك، فقابل بعض أخلاقك وتدارك
ببعض، وقابل غضبك بحلمك، وجهلك بعلمك، ونسيانك وغفلتك بفكرك
ونظرك.

واعلم أنه ليس أحد أصلح للناس من أولي الأمر إذا صلحوا، ولا أفسد لهم ولا أنفسهم أحدًا إذا فسدوا.

قلوا لي من الرعية مكان الروح من الجسد الذي لا حياة له إلا به، وبموضع الرأس من الأبدان الذي لا بقاء له إلا معه، فبالوالي مع فضل منزلته من الحاجة إلى إصلاح الرعية مثلما بالرعية من الحاجة إلى إصلاح الوالي، وقوة بعضهم زيادة في قوة بعض، ووهن بعض سريع في وهن بعض.

وبعد الوالي من القدرة على استصلاح نفسه مع مشورة الرعية، كبعد الرأس من القفا بعد هلاك سائر البدن.

غير أنه أجدر باستصلاح الرعية الفاسدة، وإفساد الرعية الصالحة من الرعية بإفساد الوالي الصالح، وإصلاح الوالي الفاسد لفضل قوته عليها، ووهن قوته عنه.

وقد قال «أميروس» الشاعر: إن الأئمة يصلحون بفضلهم، ولا يصلح الأئمة إلا موتهم.

وأحذرك الحرص.. فأما ما هو مصاحبك، ومصلح على يدك فالزهد.

واعلم أن الزهد باليقين، واليقين بالصبر، والصبر بالفكر.. فإذا فكرت في الدنيا، لم تجدها أهلاً لأن يكرمها بهوان الآخرة؛ لأن الدنيا دار بلاء، ومنزل بلغة.

وقد قال «هوميروس» الشاعر: كل ضد مخالف ضده، ولا خير في شيء يزول ويذهب.

اتهم أخلاقك السيئة؛ فإنها إذا اتصلت بها حاجتها من الدنيا، كانت كالخطب للنساء، وكالماء للسماك، وإذا عزلتها عنها، وحُلت بينها وبين ما تنوي، انطفأت كانطفاء النار عند فقدان الخطب، وهلك كهلاك السمك عند فقدان الماء.

إذا أردت الغنى، فاطلبه بالقناعة، فإنه من لم يكن له قناعة، فليس المال مُفنيهِ، وإن كَثُر.

وقد قال «هوميروس» الشاعر: لا مال يكفي عند ترك القناعة، ولا خير في المرء إذا لم يكون قَنِعًا.

واعلم أنه من علامة تنقل الدنيا، وكدر عيشها أنه لا يصلح منها جانب إلا بفساد الآخر.. فلا سبيل في صاحبها إلى عز إلا بإذلال، ولا إلى الاستغناء إلا بالافتقار.

واعلم أن الدنيا ربما أصيبت لغير حزم في الرأي، ولا فضل في الدن، فإن أصبت حاجتك منها وأنت مخطئ، أو أدبرت عنك وأنت مصيب، فلا يستخفّنك ذلك إلى معاودة الخطأ، ومجانبة الصواب.

لا تعين على الناس بما يرغب فيه، ولا تأت إليهم ما تكره أن يولى إليك.

قاتل هواك، واقصر رغبتك، واكفف شهوتك، واستأصل الحقد من قلبك، وطهر من الجسد جوفك، واقبض إليك أملك، فإن بسط الأمل مقساة القلب، ومشغلة عن الميعاد.

ولكن مما تستعين به على إطفاء الغضب: علمك بأن الزل لا يخلو منه

أحد، وبه وقع صاحبك.

ولعلَّ عدوًّا لك حمله على ذلك، فإن أطعت هواك في أخيك الذي أتى على يديه الذنب إليك، قد أشمتَّ عدوك بك، وظاهرته على أخيك، ومكَّته من نفسه.

فما أحقك أن تعصي من طاعتك له هلكة، ومعصيتك له سلامة، وهو هواك.

ولعلك يا «إسكندر» ترى أن عقوبتك تبكيك عن الذنب، أو زيادة في الأدب.. فإن هممتَ بذلك، فاصدق نفسك، وفتش ضميرك وسيرتك دون ظاهرك وعلايتك.

وانظر.. أجميل الذكر يزيد ويوفيك، أم شفاء الغضب مُرٌّ والمر لا يُجتنى من ثمرة حلوة.

فإن كنت تريد بعقوبتك إياه إصلاحه لك ولنفسه، وجميل الذكر.. وإن تنزع عن ذلك الذنب، فإنك بالغ الحرمان والوعيد والجفا بعض ما يغنيك عن شدة الصولة، وعظيم العقوبة. ولا ينبغي لك أن تستعمل سيفك فيمن تكتفي فيه بالسوط، ولا سوطك فيمن يُكتفى فيه بالحبس، ولا تسرع إلى حبس من تكتفي فيه بالجفا والوعيد.. فإنه بحسب اختلاف أحوال المدنيين وتفاوت أحوالهم يجب أن تكون العقوبات، وإن استوت الذنوب.

واعلم أنك متى نلت مظلمة، أو فرطت منك عقوبة، فإن الذي أتيت إلى نفسك من ذلك أشد من الذي أتيت إلى المعاقب، إذا لم يكن يستحق عاقبته، ولا الصلاح وحده قصدت بها.. فتأنَّ في أمرك، واجهد أن لا تنال بصوتك

وعقوبتك من كان بريئاً، ولا يسلم منك من العامة من لا يصلح إلا عليها.

واحذر الشهوات، وليكن ما تستعين به على كفها عنك، إلا أنك تعلم أنها مذهلة لعقلك، مهجنة لرأيك، شافية لِعرضك، شاغلة لك عن عظيم، وأنها لعب، وإذا حضر اللعب: غاب الجدد، ولا يقوم الدين، ولا يصلح الدنيا إلا بالجد.

فإن نازعتك نفسك إلى الشهوات واللذات واللهو.. فإنها ترغب بك إلى شر منزلة وأدناها، وأخسّها وأسقطها، وأرادت بك خلال قوام «السنة» فغالبها أشد المغالبة، وامتنع منها أشد الامتناع.

وليكن مرجعك منها إلى الحق، فإنك متى كنت متمكناً من الحق، فلا تتركه إلى الباطل.

ومهما تركت من الصواب، فإنما تركته إلى الخطأ، فلا تُداهن هواك في السير، فتطمع منك في الكثير، ولا توحين درعك بمفارقة صغير من الخطأ، فإن لكل عمل ضراوة.

ومتى تعود نفسك القليل، يعد بك إلى الكثير.. فلا تطلب لك عمراً في غير نفع، ولا تضيع لك مالاً في غير حق، ولا تصرف لك قوة في غير عناء. ولا تعدل لك رأياً في غير رشد، فعليك الحفظ لما أوتيت من ذلك، والجد فيه، وخاصة في العمر الذي وجد كل شيء مستفاد سواه.

فإن كان لا بد من انشغال نفسك بلذة، فليكن في محادثة العلماء، ودرس كتب الفلسفة والحكمة، فإنه ليس سرورك بالشهوات بالغاً منك مبلغه.. غير

أن ذلك يجمع لك عاجل السرور، وتمام السعادة، وخلافه تجمع لك الغي، وخاتمة العاقبة، فإن أسعد الناس بهواه أدركهم الرشد به.

وإياك والفخر بعملك بالذي منه كنت، ومعرفتك بالذي إليه تصير.. فلا سبيل لك إن كنت ذا نظر مع حملك في البطن، وكونك مما كونت منه، وتركيبك من الأشياء التي شأن كل مركب منها الانحلال، والانتقال من حال إلى حال، والمستوى الذي إليه تصير..

حتى تكون بعد الوجود فقيداً، وبعد النمو منحلاً إلى العتو الفخر إذا كان عنك رابلين.

وإياك والكذب.. فإن الكذاب لا يكون إلا من مهانة نفسه، وسخافة رأيه، وجهالة منه بعواقب مَضَرَّة الكذب عليه.

واعلم أن أقل ما ينزل بالكذاب إذا عُرف به أن يقول فلا يصدق، وهو حائر به، ولا يحكم وهو غير جاهل، ولا يرى وهو نظيف، ثم يصير في البعد من نفسه، والانحياز عن قصده بمنزلة من أراد الشرق، فتوجّه إلى الغرب.

وقد قال «هوميروس» الشاعر: ليس شيء أدنى من الكذب..

ولا خير في المرء إذا كان يكذب.

واعلم أن سرعة اتلاف قلوب الأبرار حيث يلتقون، كسرعة اختلاط الماء بالبخار، وبُعد الفجوة من الاتلاف، وإن طالت معاشرتهم كبُعد البهائم من التعاطف، وإن طال اعتلافها.

واعلم أن صلاح الأعوان والوزراء بصلاح الملك.. فكن بصلاح

الأعوان والوزراء أعنى منك عنده من لا صلاح عنده.. فإن الجوهر خفيف الحمل مزيد الثمن.. قليل ثمنه عناؤها.

ثم اجتهد أيضًا في انتقاء صالح الأعمال، فإن العامل من الملك بمنزلة السلاح من المقاتل.. فإذا فقد الوالي عمال الخندق، فقد نزل به ما ينزل بالمقاتل إذا لقي أعداء بلا سلاح.

وليكن رأس العمل به أن يعلم الناس أن معروفك لا يوصل إليه إلا بمعاونتك على الحق، وتوطن أهل الباطن.

ومن يفسد في الأرض أنفسهم منك على العقوبة الفادحة، فإن بذلك يقوم ملكك، وتُعدُّ حكمًا.

وبعد.. فإنني لست آمن عليك الزلل في الأمور بعد، وعميت عليك الاجتهاد، ولا يثبت العذر إلا بشدة الاجتهاد، ودرك الصواب.

فإذا أشكلت تلك وعميت عليك، فليكن مفزعك فيها إلى العلماء؛ فإن أدنى غايات الفعل الذي يصلح عليه أمر الوالي: إن يكون عنده من الرأي ما يعلم فضل العالم على الجاهل، وحظر الرزية إذا وردت عليه.

وقد قال «أفلاطون»: من التمس فكر وحكمة عقول العقلاء بعقله، استبان به من الأمور.. مثل الذي يُستبان به من المصاييح في ظلمة الليل.

فلعلك رأيك أن يريك أحدًا من الناس طريقك لاقتباسك منهم، أوليستخف بأمرك عنهم.

فإن عرض هذا بقلبك فاطرحه أشد الإطراح؛ فإن الذي تسعد به من

العلم، وتفوز به من مخالفة الجهل.. أفضل لك نفعًا، وأعظم خطرًا من أن يعادله شيء سواه.

مع أن الناس فيك رجлан: عالم يزيدك طلب العلم عنده فضلًا.. أو: جاهل لا يرغب في موافقته.

واعلم أنه ليس من أحد يخلو من عيب، ولا من حسنات.. فلا يمنعك عيب رجل من الاستعانة به فيما لا يفضي به عيبه إلى ما تكره.. ولا بحسبك ما فيه من الحسنات على الاستعانة به فيما لا معونة عنده عليه.

واعلم أن كثرة أعوان السوء أضر عليك من فقد أعوان الصدق.

واعلم أن العدل: ميزان «الله» تعالى في أرضه، وبه يؤخذ للضعيف من القوي، والمُحِق من المبطل.. فمن أزال ميزان «الله» تعالى عن ما وضع بين عباده، فقد جهل أعظم الجهالة، وأغوى أشد الإغواء، واغترَّ بالله أشد الغرَّة.

واستعن على أمورك بحليتين منهما: تأكف الأهواء.. والأخرى: التثبت في الأمور.

وإياك والتأخير لأمرورك، والتواني عنها، أو فيما يحدث منها.. فإنك إن فعلت ذلك، كثرت عليك.. ثم لم يجد لك بما نشرتها بدءًا، أو يقدحك إن وكتلتها إلى غيرك وتضيع.

وإنما الأمور كلها أمران: صغير، لا ينبغي أن تبأشره... وكبير: لا ينبغي أن تكِلَهُ إلى غيرك.

ومتى باشرت صغار الأمور شغلتك عن كبارها، وإن صيرت كبارها إلى

غيرك، أضعت أكثر مما حفظت، وأفسدت أكثر مما أصلحت.

وأسأل الله تعالى الذي اختار العدل لنفسه، وأمرنا بالقيام في خلقه أن يلهمك، وأن يجعلك من أهله وجملته، والقوام به في عباده وبلاده آخر العهد.

ثم إن الملك اشتدَّت عِلَّتُهُ، وثقل جهداً، فقال له «أرسطو»: أيها الملك المحمود، قد جمع «الله» عزَّ وجلَّ لك من حُسن الذِّكْرِ، وجميل الصواب ما تستحق به كرامة ما أنت صائر إليه.

وهذا سبيل الأبرار المثاليين.. ثم قضى نَحْبَهُ، وأفضى الأمر إلى «الإسكندر» فساس أحسن سياسة، وأوفقها.. وفتحت له الدنيا.

وكان لا يخلو «أرسطو» من سره ومشورته، حتى مات بـ«بابل» بعد أن دانت له الأرض أربع عشرة سنة.

وقيل: دُفِنَ بـ«حمص»، وبُني عليه قُبَّة، وتفرق الملك بعده في فارس، وملوك الطوائف الإسكانية والروم، وتنقضت الأمور.. إلى أن خرج «أردشير»^(١) من «بابل».. (من آل ساسان) فجمع الممالك والدنيا دول، والمال عارية، الباني مغتر بمن سلف.

فسبحان من لا يدخل مُلكه التغير، وهو «الله الحق» وتشاور الحكماء في أن يُسجد له كالإله.. فنهاهم، وقال: لا سجد لغير «باري» الكل، ويحق له

(١) أردشير الأول ملك فارسي، من السلالة الساسانية ومؤسسها «نحو ٢٢٦-٢٤١» وتُحد البلاد، وفرض سلطته عليها كاملة بعد ما عرفت من تفكك في عهد الأرساقين، وأردشير الثاني «٣٧٩-٣٨٣» خلف نسيبه شاهبور الثاني خلعه أشراف المملكة.

السجود على من كساه بهجة الفضائل.

وأغلظ له رجل من أهل بيته، فقام إليه بعض قواده؛ ليقابله بالواجب.

فقال له «الإسكندر»: دَعْهُ، لا تنحط إلى دياتهِ، ولكن ارفعه إلى شرفك.

وقال: يجب على أهل الحكمة أن يسرعوا إلى قبول اعتذار المذنبين، ويبطئوا عن العقوبة.

وقال: سلطان العاقل على باطن العقل، أشد تحكماً من سلطان السيف على ظاهر الأحق.

وقال: من أراد أن ينظر إلى أفعال «الله» تعالى مجردة .. فليعفَّ عن الشهوات.

وقال: إن نُظِمَ جميع ما في الأرض شبيهة بالنظم السماوي؛ لأنها أمثال له تحق.

وقال: النظر في المرأة يري رسم الوجه.

وقال: السعيد: من لا يعرفنا ولا نعرفه؛ لأننا إذا عرفناه، أطرنا يومه وأطلنا نومه.

وقال: استقل من كثير ما يعي، أو استكثر قليل ما تأخذ، ولا تجعل الشحيح أميناً، ولا الكسلان صفيّاً.. فإنه لا عفة مع شُح، ولا أمان مع كُفر.

وقال بعضهم: كُنَّا عند سير المنجّم، فأدخلنا الملك بستاناً له في الليل، ونظر في النجوم، فجعل سير يشير إليها بيده، ويسير حتى سقط في بئر.

فقال الملك: من تعاطى علم ما فوقه، بُليَ بجهل ما تحته.

وقال: ما أَلطف قبول هيولى هذه التفاحة لصوتها وأفعالها؛ لِمَا تؤثر الطبيعة فيها من الأصناع الروحانية من تركيب بسيط، وبسيط مُرَكَّب حُسُنَتْ بمثل العقل لها.. بل ذلك دليل على إبداع مُبدع الكل لها.

أخبار بطليموس

كان «بطليموس»^(١) رجلاً مقدامًا، حاذقًا بصناعاتي: الهندسة والنجوم، وصنّف كُتُبًا جلييلة، منها: كتاب يُعرف بـ(ما غاسطن)، معناها: العظة لتنام.

فقليل له: المجسطي، وهو الذي أخرج علم الفقه، والموسيقى، والحساب.

وكان مولده ومنشؤه بالإسكندرية العظمى من أرض مصر، ورصد بالإسكندرية في ظلّ حكم «ريانوس» الملك، وغيره.

وبنى على أرساد «إبرخس» الذي بها «برودس»، ولم يكن «بطليموس» ملكًا من الملوك البطالسة كما ظن قوم.. وإنما «بطليموس» اسم له كما يُسمّى الرجل بكسرى، وقيصر.

وكان معتدل القامة، أبيض اللون، تام الباع، لطيف القدم، على خدّه الأيسر شاملة حمراء، كث اللحية أسودها، مفلج الثنايا، صغير الفم، حَسَن اللفظ، حلو المنطق، شديد الغضب، بطيء الرضى، كثير التنزه والركوب، قليل الأكل، كثير الصيام، طيب الرائحة، نظيف الثياب.

مات وله (ثمان وسبعون سنة)، قيل: إن «بطليموس»، و «جالينوس» كانا في زمن «إقيانوس» في سنة (تسع وعشرين وستمائة وخمسة آلاف).

(١) بطليموس: سوتير (المخلص) (٣٦٠ - ٢٨٣ ق.م) ابن الأجوس ومؤسس السلالة: من قواد «الإسكندر الأكبر»، وحكم مصر بعد موته، ثم ملكها عام ٣٠٥ ق.م جعل الإسكندرية عاصمته، وأسس فيها خزانة للكتب.

وبعد وفاته بعام ظهر «أردشير بابك، و«دقيانوس»، و«أصحاب الكهف»، في هذا التاريخ كانوا.. وانتبهوا، وخرجوا في زمن «ثاوذوسيوس» الثاني.. وكان ذلك سنة (إحدى وأربعين وتسعمائة وخمسة آلاف).

آداب بطليموس

قال: ينبغي للعاقل أن يستحي من ربه، إذا اتصلت فكرته في غير طاعته.

قال: العاقل من عقل لسانه، إلا من ذكر الله عزَّ وجلَّ..

والجاهل من جهل قدر نفسه.

وقال: رضى المرء عن نفسه مقترن بسخط «الله» تعالى.

وقال: كلما قاربت أجلاً.. فازدد لله تعالى عملاً.

وقال: الحكمة لا تحل قلب الأحق، إلا وهي على وشك ارتحال.

وقال: أدب المرء قرين عقله، وشفيع له عند الناس.

وقال: ما مات من أحياء علماً، ولا افتقر من مَلَكَ فهماً.

وقال: العلماء: غرباء لكثرة الجهال بينهم.

وقال: الحكمة: شجرة تنبت في القلب، وتثمر من اللسان.

وقال: أشد العلماء تواضعاً: أكثرهم علماً، وكما أن المنخفض أكثر البقاع

ماء.

وقال: نعم الجهال كرياض المزابيل.

وقال: لا تُناظر إلا مُنصفًا، ولا تحب إلا مسترشدًا، ولا تودع سرّك إلا حافظًا.

وقال: من أحب البقاء، فليُعدَّ للمصائب قلبًا صبورًا.

وقال: الدار الضيقة هي الهم الأصغر.

وقال: افرح بما لم تنطق به من الخطأ.. أكثر من فرحك بما لم تسكت عنه من الصواب.

وقال: إذا غضبت، فلا يحتد غضبك إلى الإثم، واعف إذا لم يكن ترك الانتقام جورًا أو عجزًا.

وقال: الشيب: آخر مواعيد الغنا.

وقال: قلوب الأخيار: حصون الأسرار.

وقال: أيدي العقول: تمسك عنه النفوس.

وقال: الكاتم للعلم غير واثق بالإصابة فيه.

وقال: من قبل عطاك، فقد أعطائك على البرِّ والكرم، ولولا من يقبل الجود.. لم يكن من يجود.

وقال: الأمل رفيق مؤنس.. إن لم يبلغك، فقد استمتعت.

وقال: الأمن يذهب وحشة الوحدة، والخوف يذهب أنس الجماعة.

وقال: كما أن البدن إذا أقسم لم ينفعه طعام ولا شراب.. كذلك القلب إذا عَقَلَهُ حُب الدنيا لم ينفعه المواعظ.

وقال: ما زاحمت الدنيا على أمر مستور، إلا كشفته.

وقال: أعظم الناس قدرًا.. من لم يُنل في يد من كانت له الدنيا.

وقال: الناس اثنان: بالغ لا يكتفي، ومُجد لا يبلغ.

وقال: الحاسد يرى زوال نعمة غيره.. ونعمه عليه.

وقال: من زاد أدبه على عقله، كان كالراعي الضعيف من كثرة الغنم.

وقال: عبد الشهوات أذل من عبد الرِّق.

وقال: أعدل الناس: من أنصف عقله.

وقال: الشفيع: جناح الطالب.

وقال: ليس شيء أحسن عند «الله» تعالى جزاء من إذا كافأت المسيء بالإحسان إليه، مع دوام الإساءة منه إليك.

وقال: الأعمال في الدنيا: تجارة الآخرة، والموت: باب الآخرة، ولا يفلح خاطب الشر.

وقال: لا تخرج النفس من الأمل، حتى تدخل باب الأجل.

وقال: العلم بما في الثواب عند المصيبة، يُنسي المصيبة.

وقال: النفس الجاهلة.. أعدى عدو لصاحبها.

وقال: النية أساس العمل.. والعمل: سفير الآخرة.

وقال: الجهَّال في اللسان.. والفقر: من الإخوان.

وقال: المرض: حبس البدن... والهم: حبس الروح.

وقال: النفس.. أغلب عدو.

وقال «بطليموس»: ما أحسن الإنسان أن يعبرَ عما يشتهي.. وأحسن منه: ألا يشتهي إلا ما ينبغي.

وقال: الحكيم هو الذي إذا صدق: صبر.. لا الذي إذا قذف كظم.

وقال: لأن يستغني الإنسان عن الملك.. أكرم من أن يستغني به.

وقال: العلم في موطنه، كالذهب في معدنه.. لا يستنبط إلا بالتعب، والكريم يجب تخليصه بالفكر.. ثم تخلص الذهب بالسنار.

وقال: دلالة الشمس والزهرة في الشهور: أقوى.. ودلالة المشتري وزحل في السنين: أقوى.

وقال: نحن كائنون في الزمن الذي يأتي بعد أن يفنى الميعاد، فإن الكون والوجود الحقيقي هو ذلك الكون والوجود في ذلك العالم.

وسمع جماعة من أصحابه حول بئر أدفة قول فيه، فهزَّ رُحَمَاءُ؛ ليعلموا أنه سيمع.. فتباعدوا عنه قيد رُمح، ويقولون ما أجبوا.

أخبار مهادر جيس

كان أسمر اللون، أصهب الشعر، طويل اللحية، كبير الأذنين، عظيم الرأس، صغير العينين، ناحل الجسم، كثير الصمت، حلو المنطق، متأنياً في كلامه، بيده عصا على رأسها صورة هلال.

مات وله (ثمانون سنة).

- أقواله المأثورة

فمن كلامه: بسم ولي الحكمة، ومنتهى الإنعام والرحمة، وغاية الطول والإحسان.. الواحد بكل الزمان، الذي جاد بالخير بفضله، وجعل الشكر سبب الزيادة من عطاياه، ومواهبه والكفر تمقيقاً لرزقه ومنتته.

وقال: أمران يستصلح بهما المرء في دنيا: أدب يقوم به نفسه، واجتهاد تحسن به عيشته، وأمران يحتاج إليهما لميعاده: عقل يعرف به حظه، ونزاهة يقهر بها شرهه.

وقال: ظهور الهيبة من الولاية.. لبوائق الأشرار والبُغاة.

وقال: كرم الحسب: عون على تثمير الأبد.

وقال: الغنى نزاهة النفس، وملك الهوى.

وقال: حلية المروءة: صون المرء نفسه، وقمعه لهواه.. وثمره ذلك: ما

يُكتسب من حُسن الثناء، وفضل المحبة، وإخماد العاقبة.

وقال: استوجب الشكر من رحب درعه، وقهر حلمه وغضبه.

وقال: الصمت - مع فقد الخطأ في حينه - أفضل من النطق المصيب في غير أوانه.

وقال: كفاك من عقلك ما أوضح لك سبيل رُشدك من غيِّك.

وقال: أولى الأشياء بالصون والتكرمة: علم استجمع به حظ الدنيا والآخرة.

وقال: من جادلَكَ بمودَّتِهِ.. جعلكَ عديل نفسه.

وقال: من حَسُنَتْ نيته، فقد استقامت طريقته، ومن لانت كلمته، استحق من الجميع محبته.

وقال: خير ما استثمرت من معروفك، ما ابتدأت به من غير مسألة.

وقال: كم من أدب قد أُهمل لسوء صيانتِهِ، وكان جالبًا حتف صاحبه.

وقال: جماع ما في الدنيا من مكاسب المروءة: اعتقاد مودَّة أهل الدين والمروءة.

وقال: لا يوجب العاقل صدق المحبة إلا لأولي الوفاء.

وقال: استصلح نفسك بعقلك، واجعل أدبك بمنزلة مرآة تدرك بها ما انتشر من أمرك.

وقال: اللطف: مسالة عدوك، وإن كنت واثقًا بتأييدك وقهرك.

وقال: آفة النجدة: عدم الروية.. وآفة العلم: فقد الحلم والمروءة.

وقال: التماس ما لا يُدرك: عناء ومشقة، كذلك تقويم الجاهل: توهين

للعقل، وإتعا ب له.

وقال: كما أن الأدب والعلم من السعادة.. كذلك الحلم.

وقال: المتواضع: جماع البر، وسبب لدرك حُسن المنزلة.

وقال: السعيد من قمع بالصبر شهوته، ودبّر بالخزم أمره.

وقال: من ساء طبعه، تنفست معيشته، وعظمت مصيبته.

وقال: من نسب في الأموال لم يُعدم الغموم.

وقال: الروح المتواضع، كمدينة عليها سور حصين.

أخبار غريغوريوس^(١)

المتكلم على اللاهوت

كان راهباً نصرانياً، وكان مُطراناً بإنطاكية.. ثم سار بطرُكاً بها.. وله مصنفات في الحكمة.

وقال: اجعل الله تعالى بدر أمرك، وكمال ربح العيش: العمر يوماً بيوم.

- اعرف كل شيء، واختر أفضله.

- ما أردى الفقر! وأشر منه: الغنى الردي.

- وإذا كنت تحسن فاعلم إنك بالله تعالى متشبه.

- اطلب خير الأمور: إلهك، فتكون صالحاً.

- اضبط جسدك، واربطه بالقيود.

- الجم غضبك؛ لئلا تقع خارجاً من عقلك.

- ساوِ نظرك، وليكن لسانك ميزاناً.

- اعمل غلفاً لأذنيك؛ لئلا تكون ضحكة.

- اتخذ العلم سراجاً بعيشك أجمع..

- لا تظن نفسك غير ما أنت؛ فإنك هالك.

(١) غريغوريوس ٥٩٠ - ٦٠٤: نَظَّم الخدمة الدينية، والغناء الغريغوري.

- اعقل كل شيء، وعمل الذي ينبغي.
- اجعل نفسك غريبًا، واكرم الغرباء.
- إذا طاب سير سفينتك، فاحذ الغرق عند ذلك.
- عصي الصديق: أفضل من كرامة الشرير.
- ثابر على باب الحكماء.
- فأما الأغنياء، فلا أحتمل شتمة يسيرة تحمد كثيرًا.
- احفظ نفسك، ولا تفرح بسقطة آخر.
- الموهبة: أن لا تحسد.. فالذل أن تكون حسودًا.
- إذا قويت على احتمال عسف شاتمك، فأدق النظر فيما يتولد لك من العجب بشانك.
- وكان يفرح، ويحزن بشتم رجل من الأفاضل له، فقل: لم ذلك؟
- فقال: افرح أن أشتم بلا جُرم.. وأحزن لرجل نبيل كيف يزل.
- إذا كانت لك كلمة حكمة، فاقض بها إلى وليك، وإلا فضع يدك على فيك.
- الدهر: تلهب شهاب المصباح، ومجاورة النساء: تلهب نار الشهوة.
- ومن أحب العدو: سلم من لسان العدو.. ومن تلبس بالدنيا: أسرعت إليه ضربات الأعداء.
- النبات يهتز لقرب الماء، والشهوة تعظم بكلام المرأة.

الحسد: يبدد العلم والحلم يجمعه.

الكرامة: تطفئ الحققد.

آداب «باسيليوس»^(١)

معناه: الملك.

قال: من القبيح: أن تتحرز من أغذية البدن؛ كي لا يكون ضارًا.
ولا تتحرز من أكثر العلم وهو غذاء النفس؛ حتى لا يكون باطلاً ضارًا.
وقال: من القبيح: أن يكون الملاح لا يطلق سفينة مع كل ريح.. ونحن
نطلق أنفسنا مع كل سائحة من غير بحث، ولا اختيار.
وقال: إنه من القبيح: أن يطلب في صحة كل علم ما تقنع به، وتقبل علم
ما يقرب من الله من غير بحث عن صحته.
قال: ينبغي لمن عَلم أن البدن للنفس كالإله للصانع.. أن يطلب كلما
يصير البدن أنفع وأوفق لأفعال النفس التي فيه، وأن يهرب من كل ما يصير
البدن غير نافع، ولا موافق لاستعمال النفس له.
قال: إن كان من القبيح إذا ركبنا الخيل أن لا نكون نجريها ونديرها، لكن
هي تكون التي تجري، وتديرنا.. فأقبح من ذلك: أن يكون هذا البدن الذي
ألبسناه هو الذي يجري بنا ويديرنا، لا نحن نجريه ونديره.
قال: إن كان من القُبْح إذا كان البدن سمحًا بأوساخ بتياب نظيفة.

(١) باسيليوس (القديس) نحو عام «٢٣٠ - ٣٧٩» أسقف قيصرية كبدوقية، وأحد الأقباط
الثلاثة من آباء الكنيسة ومعلميها، أسس الحياة الرهبانية المشتركة في الشرق.. له تأليف عديدة
وواعظ..

فأقبح من ذلك: أن تكون النفس دنسة بأوساخ العيوب، ويكون البدن مزينا من خارج.

قال: إن كنا نعنى بجميع أعضاء البدن، وخاصة بالأشراف منها.. فبالخري: أن نعنى بجميع أجزاء النفس، وخاصة بالأشراف منها، وهو العقل.

قال: كما أن الذين يستعملون حواس البدن فقط، يمنعهم من الغضب.. الخوف من الملك المحسوس إذا وقفوا بين يديه.

كذلك يجب على من يستعمل الحواس النفسانية أن يمنع من الغضب الخوف من الملك المعقول الذي هو واقف بين يديه دائماً.

وقد رأى إنساناً سميناً، فقال: ما أكثر عنياتك برفع سور حبسك!

قال: ينبغي لك إذا دبرت إنساناً يريد بذلك صلاحه أن لا يتشكل من يريد أن ينتقم منه من عدو..

ولكن ينبغي أن تتشكل بشكل بمن يبطئ، أو يكون داء ردياً له.. فإذا دبرت أيضاً لصالحك، فينبغي أن تتشكل بشكل المريض للطبيب.

قال: كما تكون سيرتك في المجالس، والمحافل، والمجامع، كذلك ينبغي أن تكون في الخلوات.

«إقليدس» الصودي^(١)

وهو: أول من تكلم في العلوم الرياضية، وأفرده علمًا نافعًا في العلوم، منقحًا للخاطر، ملقحًا للفكر.

وكتابه: معروف اسمه، وقيل: إن علم هذا الكتاب براهينه.. كان موجودًا قبل «إقليدس».

والقدماء تكلموا عن هذه العلوم قبل وجود «إقليدس» بزمان، والذي فعله «إقليدس» أنه جمع علوم هذا الكتاب من مواضع متفرقة، وربّتها وهذبها، وأصلحها، وتصرّف فيها بالزيادة والنقصان.. فصار نسبته كتابًا مشهورًا، وبهذا العلم معروفًا.

وقال له رجل: لا ألو جهدًا في أن أفقد حياتك.

فقال: وأنا لا ألو جهدًا في أن أفقدك غضبك.

وقال: من أراد أن يكون محبوبه محبوبك، وأفقك على ما تحب.. فصرّ ثم متفقين على محبوب واحد.

وقال: الأمور جنسان، أحدهما: يُستطاع خلعه، والمصير إلى غيره. والآخر: توجيه الضرورة، فلا يُستطاع الانتقال عنه والاهتمام، والأسف عن

(١) إقليدس «القرن الثالث قبل الميلاد» رياضي يوناني، نشأ بالإسكندرية، وأنشأ مدرسة الإسكندرية، وقام بتنظيم علم الرياضة في عصره، وضمنه مؤلفه «الأصول» في ثلاث عشرة مقالة، ظلت أساسًا لدراسة مبادئ الهندسة حتى هذا العصر.

كل واحد منهما: غير سائغ في الرأي، فإن كانت الكائنات من المضطرة، فما الاهتمام بالمضطر،.. وإن كانت غير مضطرة، فلم الهم فيما يجوز الانتقال عنه؟

وقال: كل فائت، وجدت عوضاً منه، وأمكنك اكتساب مثله، فما الأسف على فوته، وإن لم يكن منه عوض، وما يصاب له مثل، فما الأسف على ما لا سبيل مثله.

وإذ لم يبقَ العاقل بشيء من أمور الدنيا، فيقتصر على ما لا بد منه، ويترك ما أمّنه بد.

أخبار «لقمان الحكيم»

- «لقمان»^(١) الحكيم المذكور في «القرآن العظيم»: كان أسود اللون حبشيًا، جنسه من النوبة.

وكان منشؤه وتعليمه وتهذيبه ببلاد الشام، ومات بها، وقبره بمدينة (الرملة) من أعمال فلسطين.

كان ساكنًا في أكواخ في هذا الموضع.. وكان من موالي العارنة الأولى بالشام.

وكان في زمن «داود» النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية أخرى: كان عبدًا أسود، غليظ الشفتين، مصفح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناسٍ يحدثهم، فقال له: ألسنت الذي كنت ترعى الغنم، في مكان كذا وكذا؟

قال: نعم.

قال: ما بلغ بك إلى ما أرى؟

قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، والصمت عما لا يعنيني.

وقال آخر: كان «لقمان» معضلاً، غليظ الشفتين، مصطك الركبتين..

(١) لقمان الحكيم: عُرف منذ الجاهلية، وفي القرآن الكريم، سورة باسمه تعرض لحكمه في وصيته لابنه، ويعزى إليه كثير من الحكم العربية والأمثال، قيل: إنه كان نجارًا، وقيل: راعيًا، أو عبدًا حبشيًا.

فكان لرجلٍ من بني إسرائيل اشتراه بثلاثين دينارًا ذهبًا.

وكان مولاه يلعب النرد، ويخاطر عليها.. وكان على بابه نهر جارٍ، فلعب يومًا على أنه إن قمره صاحبه: شرب الماء الذي في النهر، أو يغتذي منه... وإن قمر صاحبه فعليه مثل ذلك.

فقمر سيد «لقمان»، فقال له القامر: اشرب ما في هذا النهر، وإلا افتد منه.
قال: احتكم.

فقال: عينيك أفقأها، أو جميع ما تملك.

فقال: أمهلني يومي هذا.

قال: ذلك لك.

فأمسى كئيبيًا حزينًا، إذ جاء «لقمان»، وقد حمل حزمة حطب على ظهره،
فسلّم على سيده، ثم وضع ما معه.

وكان سيده إذ رآه، عبث به، وسمع منه الكلمة بعد الكلمة من الحكمة
فتعجب منه.. فلما جلس إليه، قال لسيده: ما لي أراك كئيبيًا حزينًا؟ (فأعرض
عنه).

فقال له الثانية: فأعرض عنه.

فقال له الثالثة: فأعرض عنه.

فقال له: أخبرني.. فلعل لك عندي فرجًا (فقصّ عليه القصة).

قال لقمان: لا تغتم؛ فإن لك عندي فرجًا.

قال: وما هو؟

قال: إذا قال لك الرجل اشرب ما في هذا النهر.. فقل له: أشرب ما بين الضفتين، أو المد الذي يجيء به، فإنه سيقول لك: اشرب ما بين ضفتين النهر. فإذا قال لك ذلك، فقل له: احبس عني المد حتى أشرب ما بين الضفتي؛ فإنه لا يستطيع أن يحبس عنك المد.. فتخرج مما ضمننت له. فطابت نفسه.. فلما أصبح، وجاء الرجل.. فقال له: قُم، واشرب ماء النهر.

قال: أشرب ما بين الضفتين، أو المد.

قال: لا.. ما بين الضفتين..

قال: احبس عني المد حتى أشرب ما بين الضفتين.

فخصمه بذلك، فكفَّ عنه.. فأكرم «لقمان»، وأعتقه.. وكان ذلك أول ما ظهر لنا من حِكْمِهِ.

وكان يختلف إلى «داود»، ويفتش عن الحكمة، فاختلف إلى «داود» يتخذ درعاً.. وذلك أو ما بدا في صنعتها، فلم يسأله «لقمان»: ما هذه؟ ولا أخبر «داود» عليه السلام، حتى فرغ منها.

فصَبَّها «داود» على نفسه، ثم قال بالسريانية: (ذرداطا ماكثر). يعني: (درع حصين ليوم قتال).

فقال «لقمان»: الصمت حِكْمٌ، وقليلٌ فاعله.

وكان قبل ذلك لم يمدح نفسه قط، ولم يزكّها.

وقال له مولاه وقد ذبح شاة: ائتني بأفضل شيء فيها (فأتاه بالقلب).

فقال: ائتني بأشرف ما فيها (فأتاه بالقلب).

وروي.. أنه لما هدأت العيون المقابلة، نُودي «لقمان»: أيسرك أن تكون خليفة في الأرض؟

قال: إن يخبرني ربي، فسمعًا وطاعة، وإن يخبرني أختار العاقبة.

قيل: وما عليك أن تكون خليفة في الأرض تقضي؟

قال: أن أقضي بالحق، فبالحري أن أنجو، وأن أخطي.. أخط طريق الجنة.. ولأن أكون في الدنيا ذليلاً، أهون من أن أكون فيها قويًا عزيزاً.. ومن باع الآخرة بالدنيا: خسرهما جميعاً.

قال: فرضى الله سبحانه ذلك من قوله، فأرسل الله تعالى إليه ملكاً فغطه بالحكمة غطاً، فأصبح وهو أحكم أهل الأرض.

وكان يغشى «داود» لحكمته، فيقول له «داود»: هنيئاً لك يا «لقمان».. أوتيت الحكمة، ووقيت الفتنة.

وكان الأمر الذي فيه «داود» عليه السلام قد ألقى «لقمان»، فأبى أن يقبله..

رأى «داود» عليه السلام الناس يخوضون، و«لقمان» ساكت.

فقال: ألا تقل يا «لقمان» كما يقول الناس؟

قال: لا خير في الكلام، إلا بذكر الله تعالى.

ولا خير في السكوت، إلا بالفكر في الميعاد..

وإن صاحب الدين إذا فكر، فعليه السكينة، وشكر فتواضع... وقنع
فاستغنى..

ورضي، فلم يهتم.. وخلع الدنيا.. فنجا من الشرود.

ورفض الشهوات، فصار حُرّاً، وتغرد فكفه الأحران.

وطرح الحسد، فظهرت له المحبة، وسحنت نفسه عن كل فان.

فاستكمل العقل، وأبصر العاقبة.. فأمن الندامة، ولم يخف الناس، فلم
يخفهم، ولم يذنب إليهم.. فسلم منهم، فالتاس منه في راحة، وهو من نفسه في
أمان.

قال: صدقت يا لقمان.

وأعجب به، وشاع ذكره.

وقال «داود» للقمان بعد ما كبرت سنه: ما بقي من عقلك؟

قال: لا أنظر فيما لا يعنيني، ولا أتكلف ما كفيته.

وكان مولى «لقمان» الذي أعتقه.. أعطاه ما لا كثيراً.. فبارك الله تعالى

«للقمان» في ذلك المال فكثُر.

وبسط «لقمان» يده في الخير.. تصدَّق، وسلف من استسلفه، ولا يأخذ

على ذلك رهناً ولا كفيلاً.. فإذا دفع المال إلى الرجل، قال: تأخذه بأمانة الله

تعالى وتؤديه إلى عام قابل هذا الحين.

فيقول: نعم.. فيدفعه إليه، فجعل الناس يأخذون منه ويردُّون عليه..
فبارك الله تعالى له في ماله وثمره.

ويُروى: أن «لقمان» أوتي الحكمة، وبُسط له في الدنيا.. فقدمها، واعتزل
الناس وشرودهم.. فنزل فيما بين الرملة وبيت المقدس، لا يخالط الناس..
حتى لحقَّ بالله عزَّ وجلَّ.

فكان مما وعظ به ابنه «ناران» أن قال له: «يا بُني.. عليك بالصبر واليقين،
ومجاهدة النفس. واعلم أن الصبر فيه الشرف، والشفقة، والزهادة، والترقب.
فإذا صبرت عن محارم الله تعالى، وزهدت في الدنيا، وتهاونت بالمصائب،
ولم يكن شيء أحب إليك من الموت، وأنت تترقبه.

أي بني.. عليك بالخير، واحذر الشر.. فإن الخير يُطفئ الشر.

أي بني.. كذب من قال: إن الشر بالشر يُطفأ.. فإن كان صادقاً فليقد ناراً
إلى جنب نار.. ولينظر هل تطفئها؟.. ولكن الشر لا يطفئه إلا الخير.. كما
يطفئ الماء النار».

ويُروى أن «لقمان» قال لابنه: مُر بالمعروف، وانه عن المنكر.. واصبر على
ما أصابك.. وتهاون بالمصائب.. وحاسب نفسك قبل أن تسبق إليها، واعرف
العثرة.. فإنك إذا عرفت العثرة، لم تفرط في أمرك.

«أي بُني... أكثر ذكر «الله» عزَّ وجلَّ؛ فإنه تعالى ذاكر من ذكَّره.

أي بني.. لتكن ذنوبك بين عينيك، وعملك خلف ظهرك.

أي بُني.. فِر من ذنوبك إلى الله تعالى، ولا تستكثر عملك.

أي بني.. أطع الله عزَّ وجلَّ؛ فإن من أطاع الله تعالى.. كفاؤه، وعصمه من خلفه.

أي بُني.. لا تركزن إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بحُسنها.. فإنك لم تُخلق لها، وما خلق «الله» أهون عليه منها.. لأنه لم يجعل نعمها ثواباً للمطيعين، ولم يجعل بَلَاها عقوبة للعاصين.

يا بني.. لا تفرح بطول العافية.. واكثُم البُلُوَى؛ فإنه من كنوز البر، واصبر عليها، فإن ذلك دُخْرًا لك في الميعاد.

أي بُني.. ارض باليسير، واقنع بما رُزقت، ولا تُمَدِّدَ عينيك إلى رزق غيرك.. فإن ذلك يرديك.

أي بُني.. اضمر من الطعام.. وامتلئ من الحكمة.

أي بني.. جالس الحُكَمَاء، وارض بقولهم: تردد حكمة.

أي بُني.. تكلم بالحكمة عند أهلها، وعليك بمجالسة أهل الذُّكْرِ؛ فإنها عُيَاة للعلم.. وتحدث في القلوب خشوعًا.

أي بُني.. اقصد الحاجة، ولا تنطق بما لا يعينك، ولا تكن مضحاكًا من غير محجب، ولا مشاء في غير أدب.. وكُن لِيِّن الجانب، قريب المعروف، كثير التفكير، قليل الكلام، إلا في الحق، كثير البكاء، قليل الفرح... ولا تُمازح، ولا تُصاحب، ولا تُحاد، وإذا تحاد.. وإذا سكت، فاسكت في تفكير.. وإذا تكلمت، فتكلم بحكمة.

أي بُني.. عليك بالصمت، فإنك مُحمد عنه.. فما ندمت على السكوت قطُّ، وربما تكلمت فندمت.

أي بُني.. لا يكن الديك أكيس منك، إذا انقضى الليل، خفق بجناحيه وصرخ إلى «الله» بالتسبيح.. وإياك والغفلة.. خف «الله» تعالى، ولا تعلم من نفسك، ولا تغتر بقول الجاهل: (إن في يدك لؤلؤًا) وأنت تعلم أنها بكرة.

أي بُني.. انتفع بما علّمك «الله» فإن العالم ليس كالجاهل، وإن خير العلم.. ما نفع، وإنما ينفع «الله» تعالى بالعلم من اتّبعه.. ولا يُنتفع به من علمه، فتركه..

أي بُني.. أعلم الناس بالله تعالى: أشدهم له خشية.

أي بُني.. تعلّم الخير، وعلمه.. وأعلم أن الناس بخير ما بقي الأول، حتى يُعلّم الأخير.. وإنما كلام المعلم كالينابيع، تحتاجها الناس يومًا هذا.. فيتبعون بها عليك بالتواضع؛ لأن أخلق الناس بالتواضع: أعلمهم بـ«الله» تعالى، وأحسنهم له عملًا.

وأعلم.. أن من نور الإيمان قلبه: نطق بالحق لسانه، فينتفع به، وينفع «الله» تعالى به غيره.. ومن أنطق الله تعالى بالحق لسانه، فلم ينتفع به، كان خراب دينه في لسانه، فإن الرجل ليفسد بالكلمة الواحدة، كما تكون في الشروء الصغيرة: النار العظيمة الفساد.

أي بني.. إن الفاحش البذيء الشقي إن تحدث: فضحه لسانه، وإن سكّ: فضحه العي، وإن عمل: أساء، وإن فعل: أضاع، وإن استغنى: بطر، وإن افتقر: قنط.

وإن فرح: أشر، وإن حزن: أسر، وإن قدر: أفحش، وإن قُدر عليه: فهو مهين، وإن سألك ألحف، وإن سُئِل: بخل، وإن ضحك: نهق، وإن بكى: خار، وإن زجر: عنف، وإن ذُكِّر: غضب، وإن أعطى: مَنَّ.

وإن أُعطي: لم يشكر، وإن أسررت إليه: اتهمك، وإن كان دونك: همزك، وإن كان فوقك: قهرك، وإن صحبت: عناك، وإن اعتزلته: لم يدعك.. لا حكمته تعينه، ولا حكم غيره ينفعه، ولا يستريح من الزجر، ولا يستريح زاجره، ولا ينقضي تعليمه، ولا يفرغ معلمه، ولا يُسرُّ به أهله، ولا يفتر عنهم حزنه.

إن كان أكثرهم غنى من دونه، وإن كان أصغرهم غنى من فوقه، ولا يرشد إن أرشد، ولا يطيع إن أمر، ولا يسعد من عاشره، ولا يسلم من اعتزله، ولا يُصيب إن قال، ولا يفقه إن قيل له، ولا يقتصد في الرخاء، ولا يصبر في البلاء.. لا يعف في المسألة، ولا يفعل المعروف، ولا يشكر لأحد، لا يدع الغش، لا يقبل من ناصح ثقة.

وإن لم يوافق الحكماء ويعجبه علماء، وإن لم يوافق العلماء يرى أنه مُحسن، وإن كان مُسيئًا.

يرى عجزه كيسًا، وشره خيرًا، وتفريطه حزمًا، وجهله حِلْمًا بما أحببت نفسه آخذ، وما كرهته، وإن وافق الحق هواه مدحه، وامتدح به، وإن خالف الحق هواه كذبه، ورمى به، وإن احتاج إلى الحق سأله منعه.

وإذا حضر أهل الحق ساعدتهم، وإذا تغيب عنه كان في الباطل.. إذا جالس العلماء لم يخشع، ولا ينصت لهم.

فإذا جلس من دونه فخرَ عليهم، وضحك منهم.. يقول الحق، ويخالفه بالعمل.. يأمر بالبر، وهو فاجر، ويأمر بالحق وهو مبطل.

يأتي إلى الناس بما لا يرضاه لنفسه، يدل على الإحسان، ويحذره.. وينهى عن السوء، ويتبعه.

يأمر بالخزم، وهو مضيعه.. لا يوافق قوله فعله، ولا سرّه علانيته.. لا يعمل الحق، لا ليحمد عليه.

يتفقه لغير الدين، يتعلم لغير العمل، يتبع الدنيا بعمل الآخرة.. إن كنت عالمًا تكبر وأنف أن يتعلم.. وإن كنت جاهلاً سخر منك ولم يعلمك.

إن كنت قويًا: عتفك، وإن كنت ضعيفًا: عجزك، وإن كنت غنيًا: سمالك طاغيًا، وإن كنت فقيرًا: سمالك مضيعًا، وإن كنت حريصًا على الخير: سمالك مكلفًا، وإن كنت بطيئًا: سمالك متصنعًا لا جرم لك، وإن أحسنت أشاع أنك مُراءٍ، وإن أسأت كشف للناس سيرتك.

وإن أعطيت سمالك مُبذّرًا، وإن أمسكت قال بخيلًا، وإن لُنت للناس، وتقربت منهم، قال: ما أشد تخلفك! وإن اعتزلتهم، قال: ما أعظمك!

فمثل الأحق كالثوب البالي، إذا رقعته من جانب، تمزق من الجانب الآخر.. كالزجاجة لا تتعب ولا تترقع.

واعلم يا بني.. أن من أخلاق الحكيم السعيد: الوقار، والسكينة، والبر، والعدل، والحلم، والرزانة، والإحسان، والعلم، والعمل، والحذر، والخزم، والورع، والمعرف، والعفو، والتواضع.

إن تكلم: تكلم بعلم، وإن صمت: صمت عن حلم... إن قدر: ودع،
وإن بُغي عليه: غفر، وإن سأل: لم يخلف، وإن سُئل لم ييخل.

وإن قال: قال بعلم، وإن قيل له: فقه، وإن علم: علم من دونه، وإن
تعلم: أحسن المسألة، وأن أحسن إليه: شكر، وإن استطاع أن يُحسن، أحسن
أنسا بالله، وأن أسيء إليه: عفا.

فإن جالس من فوقه في العلم: سأل، وإن جالس من دونه في العلم:
علمه، وإن أسررت إليه، لم يخنك، وإن أسرَّ إليك: أمنك.

إن أعطاك لم يمن عليك، وإن أعطيته: شكر.. يرضى للناس ما يرضى
لنفسه، يقتصد في الغنى، ويعف في الفقر.

لا يلهيه عن الله: المال، ولا تشغله عنه: المسكنة.. ينتفع بعلمه.. يسمع
ممن وعظه.

لا ينازع من فوقه، ولا يحقر من هو دونه، ولا يطلب ما ليس له.

ولا يضيع ماله، ولا يقول ما لا يعلم، ولا يكتُم علماً عنده.

يتجاوز عن حقه، ولا يبخس الناس أشياءهم.. الناس منه في راحة،
ونفسه منه في عناء.

يحمل نفسه على الحق، إن أحببت، وإن كرهت منهم، دأبه على دينه.. يتعظ
بموعظة الواعظ.

سريع إلى الخير، بطيء من الشر.. قوي في العمل.. ضعيف عن
المعاصي... قليل العلم بالشهوات.. عالم بالقربات إلى الله تعالى.. ذو المعروف

في ماله.. المتعفف فيما ليس له.. هو في الدنيا كالغريب، همه: معاده ومنقلبه.

يأمر بالمعروف، ويفعله.. ينهى عن الشر، ويحْتَنِبُه.. يوافق سره علانيته، وقوله: فعله.

يا بني.. تفهّم الحكمة، وأخلاقها كلها.. واجعلها لك شغلًا.. وفرّغ نفسك لها.. وقرّ عينها، إذا جمعتها.

واعلم.. أن الحكمة لا تصح إلا بالدين، واللين، وأن اللين جواب الحكمة.. وإن مثل الحكمة بغير تدبير، بمنزلة مال في يد غير خازنه، أباحه سارقه، ووجده معوزًا، أو كمثل غنم تروح إلى غير زريبة، أباحها الذئب، وجدها ضائعة، فأكلها.. وتعاهد مع ذلك لسانك.

واعلم: أن اللسان: باب الحكمة، فإذا ضيعت الباب، دخل من لا تريد أن يدخل.. فإذا حفظت الباب، حفظت الخزانة، وأن من ملك لسانه إذا رأى لقوله قرارًا: تكلم، وإن لم ير قرارًا: صمت، فإذا استنطقه السفهاء: يصمت. أكرم حكمة الله تعالى، ولا تضيعها عند من تهون عليه، ولا ييخل بها على من يريد حفظها.

أي بني.. إن اللسان مفتاح الخير والشر.. فاختم على فيك إلا من خير، كما تختم على ذهبك وفضتك.. طوبى لمن لم يغتر بالدنيا، ولم يندم يوم الحساب.

يا بني.. لا تضيع مالك، وتصلح مال غيرك.. فإن مالك: ما قدّمت لنفسك، ومال غيرك: ما تركت وراء ظهرك.

أي بني.. إن الدنيا لا خير فيها إلا لأحد رجلين منهما: رجل سبق منه عمل سوء، فهو حريص على أن يتداركه بعمل صالح؛ ليعفو الله عن سيئاته.. ورجل يطلب الدرجات، فهو يسارع فيها.

أي بني.. أحزَم أهل الدنيا: رجل.. أعطاه الله تعالى شرفاً في الدنيا، وذكراً.. فهو يلتمس شرف الآخرة، وذكراً.. ورجل قدر عليه رزقه، فصبر حتى يأتيه اليقين، وأحسن عبادة ربه تعالى.

أي بني.. إنه من يرحم: يرحم، ومن يصمت: يسلم، ومن يفعل الخير: يغنم، ومن يفعل الباطل: يندم، ومن يكره الشر: يعتصم، ومن لا يملك لسانه: يخسر.

يا بني.. اتق دعوة المظلوم، فإنها أوشك الدعاء صعوداً إلى الله سبحانه استجابة.

يا بني.. اقبل الموعدة، وإن اشتدت عليك.. وويل لمن سمع، فلم ينفعه السمع، ولمن علم، فلم ينفعه العلم.. وويل لمن عمي له، فاستحب العمى على الهدى.

طوبى لمن انتفع بعلمه، واستمع القول، فاتبع أحسنه.

يا بني.. اجعل همك فيما كُلفت، ولا تجعل همك فيما كُفيت.. لا تهتم للدنيا، فتشغلك عن الآخرة.

يا بني.. كن قريباً من الناس سهلاً؛ فإن الله تعالى يحب كل سهل الخلق، طلق اللسان بالخير، وهو رأس أخلاق الصالحين.

يا بُني.. إذا أنعم الله تعالى عليك، زد في شكرك له، وتواضعك وإحسانك إلى من هو دونك.

يا بني.. دع عنك كلما تعتذر منه إلى الناس، واقبل عُذر من اعتذر إليك.
لا تعجبين بما تعمل، وإن كثر.. فإنك لا تدري: أيقبل الله تعالى منك، أو لا؟

يا بني.. لكل شيء آفة، وآفة العمل: العُجب.. ولا تُراءِ الناس بما يعلم الله منك غيره.. ولا تستطل على الناس، ولا تنتقصهم حقهم.
ولا تكن ظالمًا، واجتنب دعوة المظلوم، ولا تَمُدَّنَّ عَيْنِيكَ إلى زهرة الدنيا، ولا تطلبين قضاء كل زينة من الدنيا، ولتكن هَمَّتْكِ فيها بقربك من الله تعالى.
أي بني.. أحب في الله، وأبغض في الله... ولا تُداهم أهل المعاصي..
يا بني.. تقرب إلى الله بحُب أوليائه. وبُغض أهل المعاصي..
يا بني.. ما عندك أفضل من العقل.. وما تم عقل امرئ حتى تكون فيه عشر خصال:

الكبر منه مأمون، والرشد منه مأمول، يصيب من الدنيا: القوت، وفضل ماله مبذول، والتواضع أحب إليه، الذل أحب إليه من العز، لا يسأم من طلب العفة طوال دهره، لا يتبرم من طلب الحوائج قبله، يستكثر قليل المعروف من غيره، يستقل الكثير من نفسه.

والخصلة العاشرة، وهي التي ساد بها مجده، وعلا قدره، يزي أن جميع الناس خير منه، وأنه شرُّهم.

فإنما الناس رجلان: رجل خير منه وأفضل، ورجل شر منه وأدنى.. فهو متواضع للرجلين.. إذا رأى خيرًا منه وأفضل... مضى أن يلحق به، وإن رأى شرًا منه وأدنى، قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا.

ولعل هذا أهل زمانه.

يا بني... الصبر على المهالك: من حُسن اليقين.

لكل عمل كمال، وكمال العبادة: الورع واليقين.

وغاية الشرف والتودد: حسن العقل.. فمن حَسُن عقله: غَطَّى عيوبه، وأصلح مساوئه، ورضي عنه مولاؤه.

يا بني... استعذ بالله من شر النساء، وكن من خيارهنَّ على حذر؛ فلإنهنَّ لا يُسارعنَّ إلى الخير.. بل هُنَّ إلى الشرِّ أسرع.. واستعذ بالله من شرِّ القضاء.

يا بُني.. اتخذ «الله» تعالى تجارة، تأتلك الأرباح بلا بضاعة.

يا بني.. ليس غنى مثل صحة الجسم، ولا غُنى مثل طيب العيش.

يا بُني.. عَلَّمَ الجاهل مما عَلَّمَتْ، والتمس من علم العامل إلى ما علمت، ولا تصحب السفیه، فتُحسب مثله، ولا تطمئن إلى دار أنت اليوم فيها حي، وغداً ميّت.

يا بني.. جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك؛ فإن «الله» تعال يُحيي القلوب بذكر الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل السماء.

وقال «الحسن»: إن «لقمان» اتخذ عريشًا برملة الشام، وهي يومئذٍ غير عامرة.. فكان فيها حتى كبرت سنه، وأدركه الموت.

قال «إبراهيم بن أدهم»: بلغني أن قبر «لقمان» بين مسجد الرملة، وموضع سوقها اليوم، وفيها قبر سبعين «نبيًا» ماتوا بعد «لقمان»، كلهم أخرجهم بنو إسرائيل، وألجئوهم إلى الرملة، وأحاطوا بهم.. فماتوا كلهم جوعًا.. فتلك قبورهم فيما بين مسجد الرملة والسوق.

وقال «الحسن»: بينما «لقمان» في عريش له قدر مضجعه، وابنه جالس بين يديه، وقد نزل به الموت... فبكى «لقمان».

فقال له ابنه: ما يبكيك يا أبت؟ .. أجزعًا من الموت، أو جرصًا على الدنيا؟

فقال: لا واحدة منهما، ولكن أبكي على ما أمامي من شقة بعيدة، ومقادمة سخيقة، وعقبة كثود، وزاد قليل، وحمل ثقيل، فلا أدري أيحيط ذلك العمل عني حتى أبلغ الغاية؟.. أم تبقى عليّ فأساق معه إلى نار جهنم. ثم مات رحمة الله عزَّ وجلَّ عليه.

وقال لابنه: يا بني اتق «الله» عزَّ وجلَّ، ولا تراءِ الناس كأنك تخشى «الله» عزَّ وجلَّ؛ ليكرموك.

وقيل للقمان: أيُّ الناس أعلم؟

فقال: من أخذ من علم الناس إلى علمه.

ثم قال له ابنه: فأَيُّ الناس أغنى؟ وقد قالوا: الغنى من المال.

قال: لا.. ولكن الغنى من العلم الذي إذا احتيج إلى ما عنده وُجد، وإن استغنى عنه، كفى نفسه.

وقال لابنه: يا بُني.. اختر المجالس على عينيك، فإذا رأيت مجلساً يذكر «الله» عزَّ وجلَّ، فاجلس فيه؛ فإن الرحمة تنزل عليهم، فلعل رحمة تصيبك معهم.

يا بُني.. لا تجلس في مجلس لا يُذكر «الله» تعالى فيه؛ فإنك إن كنت عالماً: لا ينفعك علمك، وإن يك بك عي: يزدك عيًّا، وإن يطلع الله تعالى عليهم بسخطه: يصيبك معهم.

يا بُني.. استح من «الله» تعالى بقدر قُربه منك، وخف من «الله» تعالى بقدر قُدرته عليك.

وإياك وكثرة الفضول.. فإن حسابك إذن يطول.

ولا يراك «الله» عندما نهاك عنه، ولا يفقدك من حيث أمرك.

وقال: السؤال: نصف العلم.. ومدارة الناس: نصف العقل، والقصد في المعيشة: نصف المثونة.

وقال: كما يحوّل العدو صديقاً بالصلة.. فكَذلك الصديق يُجعل بالجفوة: عدوًّا.

وقال: عجز القول يُخبر عن العقل.. فانظر ما تقول.

وقال: ما كتمته من عدوك، فلا تُظهره على صديقك.

وقال: الاتكال على «الله» تعالى: أروج... وقلة الاسترسال إلى الناس:

أحزم.. وجزاء من كذب: ألا يُصدق.. ولا يحدث: من يخاف تكذيبه، ولا تسأله: من تخاف منعه.. ولا تعد: ما لم تقدر على اتخاذه.. ولا تضمن ما لا

يبقى بالقُدرة عليه.. ولا تُقدّم على أمرٍ، تخاف العجز عنه.

وقال: اجتنب مصاحبة الكذاب، فإن أُلجئت إليه، فلا تصدقه ولا تُعلِّمه
أنك تُكذِّبه، فينتقل عن وُدِّك، ولا ينتقل عن طبعه.

يا بني .. لا تُسرّع إلى أرفع موضع في المجلس.. فالموضع الذي تُرفع إليه،
خير من الموضع الذي تُحط عنه..

يا بني .. أوصيك بتقوى الله تعالى؛ فإنه لك حظ، وله عليك حق.. ولا
تخل قلبك من ذكر «الله» تعالى.

وفضل ذِكر «الله» تعالى على سائر الكلام.. كفضل «الله» تعالى على خَلْقِه.

يا بُني .. أرضِ الخالق.. ولو بسخط المخلوق.

يا بني .. لا تأخذك في الله لومة لائم.

يا بني .. عليك بصلاتك التي فُرضت.. فإن مثل الصلاة، ومثل
التسبيح.. مثل السفينة في البحر.. وإن سَلِمْتَ: سلم من فيها.. وإن هَلَكْتَ:
هَلَك من فيها.

يا بُني .. إن دارًا لا يأتي عليك يومًا ولا ليلة إلا ظننت أنك مفارقتها، لا
منفعة بها.. فانظر لنفسك ما تريد.. تَزَوَّد منها.

لا ينبغي للعاقل أن يطلب طاعة غيره.. وطاعة نفسه ممتنعة.

يا بني .. لا تكسل؛ فإنك إن كسلت لا تؤدي حقًا.. ولا تضجر؛ فإنك إن
ضجرت لن تصبر على حق.. فإنه ليس من عبد ممتنع من حق، إلا فتح الله
عليه بابًا من الباطل، فأعطي فيه أمثاله.

وقال: حُسْنُ النية: من العبادة، وحُسْنُ الاستماع: من الحكمة.. وسوء الخلق: من اللؤم.. وحُسْنُ الخلق: من الكرم، وحُسْنُ الجواب: من العلم.

يا بني.. من بالغ في الخصومة: آثم.. ومن قصر عنها: خصم:

يا بني.. افعل الخير، ولا تأتِ الشر.. فخير من الخير: فاعله، وشر من الشر: من يفعله.

وقال: إذا أرسلت في حاجة، فأرسل لها حكيماً.. فإن لم تجده، فاذهب أنت بنفسك.

يا بني.. لا تأمن من كَذْبِكَ أن يكذب عليك.. ونقل الصخور من مواضعها: أيسر من أن يفهم من لا يفهم.

يا بني.. كل أمر حَدَّثْتُكَ به نفسك، مما لو ظهر على لسانك استحيت من الناس، فأخرجه من قلبك، فالله أحق أن تستحي منه.

وإياك والمراء؛ فإنه يدعو إلى سفك الدماء.. وعند إراقة الدماء، تكون الهلكة، والبوار.

يا بني... إذا أردت أن تواخي أخاً، فأغضبه، فإن أنصفك، وهو مغضب، فهو أخوك.. وإلا فاحذره..

يا بني.. إن غلبت على الكلام.. فلا تغلبن عن السكوت.. وكُنْ على أن تسمع، أحرص منك على أن تقول.

وقال: اعتزلوا أشرار الناس: تسلم لك قلوبكم، وتستريح أبدانكم، وتطيب أنفسكم.

وقال: الصبر: صبران: صبر على ما تكره فيما ينوبك من الحق، وصبر عما تحب فيما يدعوك إليك الهوى.

وقال: اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك.. فإنه لا بقاء للنعمة إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت.

وقال: أوضع الأخلاق: احتيال الصديق، وإذاعة السر، والثقة بكل أحد، وكثرة الكلام فيما لا يعني، وطالب الفضل من اللئام.

وقال: خِلَّتَانِ أعيب.. الحيلة فيهما: إدبار الأمر إذا أقبل، وإقباله إذا أدبر.

وقال: وهن المرء: إعلانه قبل إحكامه.

وقال: الشريق إذا تزهد: تواضع، والوضيع إذا تزهد: تكبر.

وقال: المرء: مفتاح اللجاج.. واللجاج: مفتاح الإثم.

وقال: أكثر المكاره، ما لم تحتسب.

وقال: يا بني.. لا يغلب عليك سوء الظن؛ فإنه لا يترك بينك وبين حبيب صلحًا.

وقال: العقل بلا أدب، كالشجرة العاقدة.. والعقل مع الأدب كالشجرة المتمردة.

وقال: طلاقة الوجه: بالسرور، وإظهار المكاسرة، وبذل التحية، وخفة الروح في المعاملة.

وترك العصبية: داعية للمحبة في البرية.

«جالينوس» الطبيب^(١)

ليس في لغة اليونانيين: حرف الجيم، فيكون بلغتهم «غالينوس» ومعناه: ساكن.. كان «جالينوس» بعد «المسيح» بنحو مائتي سنة.

وبعد «أبقراط» بنحو ستمائة سنة.. وبعد «الإسكندر» بنحو خمسمائة سنة ونيف.

كان أحد الأطباء الثمانية المقدمين، في الرجوع إليهم في صناعة الطب، والذين هم رءوس الفرق، ومعلمو المعلمين.

وأولهم هو الذي سائر الأطباء المتقدمين من نسله «أسقليبيوس» الأول.. وهو الأول من الثمانية.

والثاني: «غودس»، والثالث: «فيس»، والرابع: «برماكيدس»، والخامس: «أفلاطون»، والسادس: «أسقليبيوس الثاني»، والسابع: «أبقراط»، والثامن: «جالينوس» وهو خاتم الأطباء الكبار، ولم يجئ بعده إلا من هو دون منزلته، ومتعلم منه.

وكان زمان مولده بعد زمان «المسيح» عليه السلام تدوين مائتي سنة.

(١) جالينوس «حوالي ١٣٠ - ٢٠٠»: طبيب يوناني أتم دراسته في اليونان والإسكندرية، ثم أقام بروما، واختاره «ماركوس أوريليوس طبيباً في بلاطه»، له ٥٠٠ مؤلف في الطب والفلسفة، بقي منها ٨٣، ترجم له الأطباء العرب، وحافظوا على تراثه العلمي، الذي بقي مرجعاً هاماً حتى القرن السادس عشر.

وصنف كُتُبًا كثيرة صغارًا وكبارًا نحو: (أربعائة كتاب) منها عظام جدًا، كثيرة البسط والشرح.

ومن هذه الكتب (ستة عشر كتابًا) وهي التي تُدرّس لمن يريد علم الطب.

وكان «أبوه» يعنى به العناية البالغة، وينفق عليه النفقة الواسعة، ويجزي المعلمين الجزاية الكثيرة.. ويحملهم إليه من المدن البعيدة.

وكان مولده ومنشؤه بـ(فرغامس) من بلاد (آسيا)، وسافر إلى (أثينا)، و(دومية)، و(الإسكندرية) وغيرها من البلاد في طلب العلم.

وتعلّم من «أرمينس» الطب.

وتعلّم من جماعة مهندسين، ونُحاة، وخطباء: الهندسة، واللغة، والنحو.. وغير ذلك.

ودرّس الطب أيضًا على امرأة اسمها «قلاوبطرا»، وأخذ عنها أدوية كثيرة، ولا سيما تعلّق بعلاجات النساء.

وسافر إلى (مصر)، وأقام بها مدة؛ لينظر عقايرها، ولا سيما الأفيون في بلد (أسيوط) من أعمال صعيدها.

ثم خرج متوجّهًا نحو (بلاد الشام) راجعًا إلى بلده.. فمرض في طريقه، ومات بمدينة تُسمّى (بالفرما) على البحر الأخضر في آخر أعمال مصر.

وكان «جالينوس» منذ صغره متهيئًا للعلم للبرهاني، طالبًا له، شديد الحرص والاجتهاد، والقبول للعلم.

وكان بحرصه على العلم يدرس ما علّمه المُعلم في طريقه إذا انصرف من عنده.. حتى يبلغ إلى منزله.

وكان الفتيان الذين كان معهم في موضع التعليم يلزمونه، ويقولون: يا هذا.. ينبغي أن تجعل لنفسك موضعًا، ووقتًا من الزمان تضحك معنا فيه، وتلعب.

فربما لم يجئهم لشغله بما يتعلمه، وربما قال لهم: ما الداعي إلى الضحك واللعب؟

فيقولون: شهوتنا لذلك.

فيقول لهم: والسبب الداعي لي إلى ترك ذلك، وإشاري العلم بُغضي لِمَا أتم عليه، ومحبّتي لِمَا أنا فيه.

فكان الناس يتعجّبون منه، ويقولون: لقد رُزق أبوك، مع كثرة ماله وسِعة جاهه، ابنًا حريصًا على العلم.

وكان «أبوه» من أهل الهندسة، وكان مع ذلك قَدًّا حَا.. وكان «جده» رئيس النجادين.. وكان جد أبيه مَسَاحًا.

ودخل «جالينوس» رومية في المرة الأولى التي رأى فيها ابتداء ملك «أنطونيوس»^(١) الذي مَلَكَ بعد «إدريانوس»، وصنّف كتابًا في التشريح

(١) أنطونيوس مرقس «٨٣ - ٣٠ ق.م» قائد روماني حالف «أوكتافيوس»، ثم خاصمه بعد أن فتته «كليوباترا» ملكة مصر، وانهمزم في موقعة «أكسيوم» البحرية عام (٣١ ق.م) انتحر في حصار الإسكندرية.

لـ (لبوابتون المظفر) الذي كان واليًا على (الروم) .. عندما أراد أن يخرج من مدينته .. إلى مدينة يقال لها: (بطولومايس)، وسأله أن يزوده كتابًا في التشريح.

وصنّف أيضًا في التشريح مقالات، وهو مقيم بمدينة (سمريا) عند «ثاليس»: معلمه الثاني، بعد «ساطروس» تلميذ «فوانيطوس».

ومضى إلى «فودينوس» بسبب أسباب أخرى .. وكان منكورًا «لينواطيس» يقال له: «أسقيانوس».

وسار إلى الإسكندرية لما سمع أن هناك مذكورين من تلاميذه: «فوانيطوس»، ومن تلاميذه: «يوقيسانوس».

ثم رجع إلى موطنه (فرغامس) موطنه وموطن آبائه من بلاد (آسيا) .. ثم سار إلى (رومية)، وشرح برومية قيام (يوانيسوس)، وكان يحضره «دانبالوديموس» الفيلسوف الدمشقي من فرقة المشائين، و «الإسكندر الأفروديسي» الدمشقي قد أهلك في ذلك الوقت؛ ليعلم الناس في (آثينة) في مجلس عام علوم الحكمة على رأي المشائين، وقد كان يحضرهم الذي كان يتولى في مدينة (الرومية)، وهو «سرجيوس بولوس» فإنه في أمور الحكمة كلها أولى بالقول والفعل جميعًا.

وذكر «جالينوس» في بعض كتبه: أنه دخل إلى (الإسكندرية) في أول دفعة ورجع عنها إلى «فوغامس» موطنه وموطن آبائه من أرض اليونانيين، وعمره (ثمان وعشرون) سنة.

وذكر في موضع آخر .. أنه احترق له في المدينة التي كانت فيها خزانة الملك كُتُب كثيرة وأثاث له قدر.

وكانت بعض النسخ المحترقة بخط «أرسطاطاليس»، وبعضها بخط «أنكساغورس»، و«أندروماخس»، وصحح قراءتها على معلميه الثقات، وعلى من رواها عن «أفلاطون».

وسافر على مُدن بعيدة، حتى صحح أكثرها، وذكر أنه كان فيما احترق له: كتاب «روفس» في التريقات، والسموم، وعلاج المسمومين وتركيب الأدوية بحسب العلة والزمان، فإن من عزته عليه كتبه في ديباج أبيض بقز أسود، أنفق عليه جملة كثيرة.

وكان ملوك اليونانيين يذللون الطُّرق الصعبة، ويطمون الأعماق، ويقطعون الجبال الشاهقة، ويزيلون الخوف، ويعقدون الجسور والقناطير، ويبنّون الأسوار المنيعة، ويمجرون المياه، ويشقون الأنهار، ويستعملون بقمع الأعداء، وفتح البلدان.

وكانت عنايتهم مصروفة إلى تدبير الملك، لا إلى لذات البدن، وكانت لهم عناية بالعلوم والطب.

وكان لكل واحد منهم رجال مرتَّبون في الطرق في كل بلد؛ لالتقاط الأدوية التي في ذلك البلد، وإنفاذها إليه مختومة؛ لئلا تتم فيها حيلة ولا غش. فإذا وصلت إلى الملك، وجربها الحكماء أذاعها في بلده ورعيته؛ لينفعهم بها.

وكان «جالينوس» أسمر اللون، وحسن التخاطيط، وعريض الأكتاف، واسع الراحتين، طويل الأصابع، حسن الشعر، محب الأغاني والألحان، وقراءة الكتب، معتدل القامة، ضاحك السن، كثير الهزر، قليل الصمت، كثير

الأسفار، طيّب الرائحة، نقي الثياب، يحب الركوب واليسرة، ومداخلاً
للملوك والرؤساء.

مات وله (سبع وثمانون سنة)، منها: صبي ومتعلم (سبع عشرة سنة).

آداب «جالينوس»

قال: لا ينفع علم من لا يعقله، ولا عقل من لا يستعمله.

وقال: من رغب عن الحقائق.. نafs في العظائم.

وقال: لِن، واحكم بِنِك.. ولا تكن معجبًا فُتْمَتِهِن.

وقال لتلاميذه: من نصح في الخدمة نعت له المجازات.

وقال: اهُمُّ: فناء القلب، والغم: مرض القلب.. ثم يئن ذلك، فقال: اهُمُّ:

بما يأتي.. والغم: بها فات.

وقال: العليل الذي يشتهي، أرجى من الصحيح الذي لا يشتهي.

وقال: من عود من صباه القصد في التدبير.. كانت حركات شهواته

معتدلة.

فأما من اعتاد ألا يمنع شهواته منذ صباه، ولا يمنع نفسه شيئًا مما تدعوه

إليه.. فذلك يُبقي شرَّها.

وذلك: إن كل شيء يكثر الرياضة في الأعمال التي تخصه، يقوى ويشتد..

وكل شيء يستعمل السكون يضعف.

وقال: من كان من الصبيان شرَّها، شديد القمة، فلا ينبغي أن يُطمع في

صلاحه البتة.

ومن كان منهم شرَّها ولم يكن وقحًا، فلا ينبغي أن يؤيس من صلاحه.

وقال: الحياء: خوف المستحي من تقصير يقع به عند من هو أفضل منه.

وقال: يتهياً للإنسان أن يصلح أخلاقه إذا عرف نفسه، فإن معرفة الإنسان نفسه هي الحكمة العظمى.. وذلك أن الإنسان لإفراط محبته لنفسه بالطمع يظنه بها من الجميل ما ليست عليه.. على أن قومًا يظنون بأنفسهم أنهم شجعان كرماء، وليسوا كذلك.. فأما العقل فيكاد الناس كلهم يظنون بأنفسهم التقدم فيه، وأقرب الناس لي أن يظن بنفسه ذلك، أقلهم عقلًا.

وقال: العادل: من قدر على أن يجوز، فلم يفعل، والعاقل: من عرف كل واحد من الأشياء التي في طبيعة الإنسان، وعرفها على الحقيقة.

وقال: العُجب: ظن الإنسان بنفسه أنه على الحال التي يجب أن يكون عليها... من غير أن يكون عليها.

وقال: كما أن من ساءت حال بدنه من مرض، وهو ابن خمسين سنة، ليست تستسلم، ويترك بدنه من مرض حتى تفسد ضياعًا... بل يلتمس أن يصحح بدنه، وإن لم تعدله صحة تامة.. فكذلك: ينبغي لنا أن نمتنع من أن نزيد أنفسنا صحة على صحتها، وفضيلة على فضيلتها، وإن كُنَّا لا نقدر على أن يلبحها نفس الحكيم.

وقال: يتهياً للإنسان أن يسلم من أن يظن بنفسه أنه أعقل الناس إذا فقد غيره امتحان كل ما يفعله في كل يوم، ويُعرفه صواب فعله من خطئه: استعمل الجميل، ويطوح القبيح.

ورأى رجلًا يُعظِّمه الملوك لشدة جسمه، فسأل: عن أعظم ما فعل؟

فقالوا: إنه حمل ثورًا مذبحًا من وسط الهيكل، حتى أخرجه إلى الخارج.

فقال لهم: قد كانت نفس الثور تحمله، ولم يكن له في حمله فضيلة.

وكان «جالينوس» رجلًا فاضلاً، بعيد الهمز، موسرًا يوقره كل من نظر إليه، وكان مسكنه بـ«ماقدونية» من مدن اليونانيين.

وكان الملك في عصره -مذ ملك أرض اليونانيين- وعدل فيهم، واختبر «جالينوس» وعرف فضله، وقَدَّمه على نُظرائه، وأهل زمانه، وأظهر للناس فضله، وأطلق لـ«جالينوس» التورع، ووضع عنه ما دام من غيره من الأطباء، وأهل المعرفة من تعاهد الملوك وخدمتهم.

وكان ببلاد المغرب ملك جليل يسمى «باز» قد خضع له جميع ملوك أطرافه، وسلّموا له الرئاسة، وأذعنوا له السمع والطاعة.

فمرضت بعض نسائه.. فاغتم لذلك، ولم يكن لأهل المغرب معرفة بالطب، ولا بالطبيب.. فشكا «باز» إلى بعض وزرائه ما لحق بعض نسائه من العلة، وأظهر الجزع.

وقيل له: إن في اليونانيين في مملكة (بيقاس) من له معرفة بقبول العلل، ومداواتها.. يقال له: «جالينوس».

فأمر أن يكتب إلى «بيقاس» أن ينفذ إليه «جالينوس» ساعة ما يرد عليه كتابه.. فإنه متى أخر ذلك، خرّب مملكته بحوافر خيله.

فلما ورد عليه كتابه اغتمّ، وقلق، ودعا «جالينوس» وخلا به وأوقفه على كتاب «باز»، وأظهر جزعًا، واكتئابًا لذلك.

وقال «جالينوس»: إما أن تغيب عني، فلا أقف على مكانك في مملكتي.. أو أمتنع عليه وأحاربه، وبذلت نفسي ومملكتي دونك.

فقال «جالينوس»: إن مخالفة هذا الملك مما يدعو إلى الفساد، وإهراق الدماء، وركوب الغدر.. وأنا أسرع الناس إثياناً إلى هذا الملك الجبار، ويأمن الملك من شره.

فأجب الملك «باز» بأنك قد أنفذت إليه، فليكن إحسانه إليّ بحسب ما استحقه، وعرفه منزلي عندك.

وكتب إليه: إنا معاشر الملوك اليونانيين، وإن كنّا مطيعين للملك «باز» فإننا عبيد الأطباء، وتحت أمرهم، وهم مالكو أيادينا، وخادمو أرواحنا، وليس في الأقاليم كل من يتقدم «جالينوس» في صناعة الطب، وليست له رغبة فيما يملك معاشر ملوك الأرض، فإن رأى الملك أن ينظر إلى «جالينوس» بعين ما يستحقه.

«فإذا استغنى عنه، لم يفجعني باعتقاله عنده.. بل يطاق له الرجوع إلى وطنه.. فقد نشأ في هواء وغذاء متى حيل بينه وبين ذلك انتقص بركته.. فعمل».. وختم الكتاب.

فنهض «جالينوس» نحو «باز» الملك مكرماً.. فلما ورد عليه، وجده جباراً ذا نحوه وبطش، قليل الرفق، بعيداً عن الإنسانية والأفعال الجميلة، همته الأمر والنهي، والسيف.

فأنزل «جالينوس» في منزل بعض الصيادين.. فبقي «جالينوس» بساحة الملك شهراً يروح ويغدو.. فلا يصل إليه، ويرجع إلى منزله، فلا يجد ما يتغذى

به إلا الذي يتغذى به الصيادون.

فلما كان بعد شهر، دعاه الملك.. فحضر، ووقف بين يديه، وقال له
بالترجمان: ما صناعتك؟

فقال له: حفظ الصحة، ونفي العلة قبل استحكام المادة.

فقال له الملك: إن لنا عليلاً قد استحال لونه الأسود إلى البياض، وساءنا
ذلك.. فهل أنت مُعيد لونه إلى السواد؟

فقال الترجمان: عرّف الملك أن من العليل عليلاً يرد في مدة، وينتهي في
مدة، ويزول في مدة.. فمنذ كم حدثت هذه العلة؟

فقال: ظهرت في سنة، واستحكمت في السنة الأخرى به، وهذه السنة
الثالثة.

فقال «جالينوس»: قد كنت سمعت بمقامي بساحة الملك.. إن من
سيرته: إن من نظر إلى نسائه، فقئت عينه، فشددت عيني اليمنى، وأظهرت
أنها معيوبة لا أبصر بها.

ثم قلت للترجمان: أعلم الملك أن الطبيب لا يصل إلى علاج العليل إلا
بعد النظر إليه.

فلما أبلغه الترجمان ذلك.. غضب، وقال: إن ذلك سيرتنا، فإن كنت
راضياً بذلك، فعالج.

فقلت: إن معي حيلة.. أنظر إلى العليل من حيث لا تقع عيني عليه.

فأعجب ذلك الملك، وقال: إن فعلتَ ذلك، فأنت فاضل.

فأخذتُ مرآة كانت معي.. وأقمت المرأة خلف ظهري حيث لا أرى وجهها إلا في المرآة، وهي قاعدة مع الملك.. فأبصرتُ وجهها بصراً شافياً.

وقد كان قد بقي وجهها نقط بيض مختلطة بالسواد، والجارية حبشية، فقلتُ للترجمان: قد أبصرتها، وأبصرتُ علَّتْها وأنا أعالجها حتى يزول ذلك عنها.

فسرَّ الملك بذلك، ومال إليّ، وأمرني كل يوم برغيف من مائدته، أتقوّت به، فاتخذتُ طلاءً لصبغ البياض من البهق.. فطليت وجهها فزال البياض، وعاد إلى السواد كما كان.

وازداد الملك لي حبّاً، ومال إليّ كثيراً، وأمرني بحضور مائدته.. فكنتُ أحضر وأرى عليها كل ضار مُسَقِّم يضاد البدن، وقد نشئوا على ذلك.

وكنْتُ أجنب أكل ما يكون على مائدته، فقال لي: لماذا لا تأكل؟

فأقول: هذا يُحدث علةً كذا.

وكنْتُ في خلال ذلك أعرف الملك ضرر ما يتناوله، فيصعب عليه ذلك، ويقول لندمائه: إني قطعت هذا الرجل عن وطنه، وقد ساء ذلك، وهو يكابطني؛ ليمنعني عن شهواتي.. فلاكلنَّ جميع ما أشتهي رغماً له، فورد بعض ندمائه على «جالينوس» على سبيل النصيح.

قال «جالينوس»: فاستشعرت الخوف منه، وكنْتُ أحتمل الذل، وأقاسي الجهد، ويطيق مع الرغبة الذي كان يحمل إليّ.

وكان الملك مشغولاً بالصيد، يغيب الشهر والشهرين، فلا يسأل عني،

ولا يراني، ولا أراه.

فحضرت يوماً مائدته، وجعل يأكل شيئاً ضاراً، فمنعته عن ذلك، فقال لي: ما يجلب أكل هذا؟

فقلت له: الجذام.

فمدّ يده عناداً وشرهاً، واستوفى منه.. ثم قال: على رغمك يا جالينوس أكل هذا..

فقلت له: أيها الملك.. يجب حقك عليّ، ومن وجوب حقك أن أوقفك على علامات تظهر في بدن الإنسان قبل حلول العلة بسنة أو بستين أو ثلاث.. وإني مثبت لك دستوراً يكون في خزانتك تذكرني به بعد موتي.

فألّفتُ مقالة في أسباب العلل الواقعة، وأوقاتها، وأبداؤها وانتهائها، واستحكامها، والأوقات التي تنهياً معالجتها فيها، وتقدمه المعرفة بالعلل السليمة، والمهلكة والسريعة الموت، والبطيئة.

وخصصت علامات علل الجذام؛ لأن بدنه كان متهيئاً لذلك، فعرفته استعداد بدنه لقبول الجذام لأكل اللحوم الغليظة كثيراً، وإدخال الطعام على الطعام.

فإذا كان بعد سنة.. فترت شهوته، واعتراه الكسل والنوم، وثقل مجده في الأطراف.. فإن استدرك بما ينفض بدنه، ولطف غذائه، رُجي له الصلاح، وإن غفل عن ذلك، وأتى عليه حول آخر.. ابتداء شعره يرقى ويتناثر، وتتغير حماليق عينيه، وتتقلص أظافره.

فإن استدرك بالعلاج تهيأ رده إلى حال الصحة.

وإن غفل عن ذلك، استحكمت عليه عِلَّةُ الجُذام.. فعسر عند ذلك،
علاجه، وآيس منه.

وأودع هذه المقالة خزانة الملك، واحتال «جالينوس» حيلة تنجيه من تلك
الناحية.. فصبغ وجهه أسود، وتمحل بخروج رفقة إلى بلاد اليونانيين، وهرب
معهم.

فلم يقف الملك على أمره إلا بعد مدة، ولم يبال بغيبته، وبحضوره استهانة
به، وكرامية لشخصه.

فسلم «جالينوس» ووقع إلى أرض اليونانيين... ونزل مدينة ليست من
مملكة (نيقاس).

وأتى على «باز» -بعد مفارقة «جالينوس» سستان أو ثلاث... فوجد
العلامات التي كتبها له «جالينوس» في علة مقدمات الجذام في نفسه، وكتبها
إلى أن تناثر شعر حاجبيه وتقلصت أظافره.

فقام من سريرته، وترك مُلكه وساح في الأرض متنكرًا يطلب مدينة
اليونانيين فوافى (مقدونيا) مُتنكرًا لا يعرف.. فسأل عن «جالينوس».
فقال له: إنه قد استوطن مدينة كذا وكذا من مملكة فلان الملك.

فأخذ «باز» سبيله إلى تلك المدينة فوجس «جالينوس» في مرتبة، يقعد
الناس، فيجتمع إليه عالم منهم.

فجلس الملك إلى أن خف عنه الناس، ثم دنا منه، فقال لي: سر لا يجوز

إذاعته، فهل أنت مُصنع إليّ.

فخلّى به «جالينوس»، فتعرّف إليه «باز» الملك، وعرف «جالينوس» فردّه إلى منزله، ووكل به من يتفقده، ويتعاهده، ويغذيه بالغذاء الموافق، ويداويه.

فبقي سنة، وعالجه حتى نبتَ شعره، وصلحت حاله، ثم عالجه سنة أخرى، وحماه من كل ضار إلى أن عاد صحيحًا سليمًا.. ثم سلّمه إلى بعض تلامذته، ممن وثق به، وحمل الملك على مركوب، وزوّده زادًا، وغلامًا يخدمه ونفقة، وردّه إلى ملكته سرًّا من غير أن يوقف على مكانه.

فلم يشعر أهل مملكته إلا وقد هجم «باز» صحيحًا سليمًا وقد طُهرت أخلاقه، وتأدّب بأدب اليونانيين، وتخلّق بأخلاقهم.

وقد كان «باز» قد خلّف في أهل مملكته «ابنين»، فلما فارق الملك قبض الابن الأكبر على مملكة أبيه.. إلى أن عاد «باز» إلى المملكة.

فلما استقر «باز» في مملكته، جهّز هدايا ومراكب وعبّداً، وجواهر.. وكتب إلى «جالينوس» كتابًا بالشكر، وبما أولاه، وسأله قبول ما أنفذه إليه.

وكتب إلى «نيقاس» الملك، وكان «نيقاس» الملك يقيقه، ويحذره بأن مملكتي لك وأنا أخوك عضدك، ولا فرق بيني وبين في الملك إذا سمحت لي بمثل «جالينوس» الجليل الفاضل.

الذي ليس له شبيه في الأنام، وحاجتي العظمى لديك أن تحتمل على نفسك المسير إلى مدينة كذا، فقد كتبت إلى فلان الملك لها أن يسأل «جالينوس» المتأمل لكل فضيلة الرجوع إلى وطنه، وهواء مدينته التي نشأ

فيها، ويكتب جواب كتابي منها، وقبول ما أنفذته إليه، وأتحفته به من عرض الدنيا مما لا قيمة له، ولا قدر له عنده.

فإن لم يحبك والعياذ بالله إلى الرجوع إلى وطنه.. أوجبْتُ على نفسي المسير إليه في شُرْذمة من أصحابي وخواصي، والشفيع بكماله إليه، وبمعروفه الذي أسداه إليَّ في الرجوع إلى وطنه إن شاء الله.

وأنفذ إلى «بيقاس» أيضًا هدايا وجواهر، وردَّ التلميذ مكرَّمًا محمولًا غنيًّا إلى «جالينوس».

فلما وردَ الكتابان على «جالينوس»، و«بيقاس»... استبشرا بذلك، وخرج «بيقاس» نحو ذلك الملك الذي «جالينوس» عنده، وتشفع بالملك إلى «جالينوس».

فأجابها إلى ذلك، وانصرف إلى وطنه، ولم تزل المكاتبات تُجرى بين ذلك الملك و«بيقاس» و«جالينوس» بلطف، وهدايا ورُسل.. إلى أن اعتل «باز» الملك، واتصل الخبر «بجالينوس».

فقال البيقاس: إني قد عزمْتُ على الشخوص نحو «باز»، فإنه قد اتصل إليَّ أنه عليل، فتجهز وساعده «بيقاس» الملك، وطويا المراحل.. إلى أن بلغ مملكة «باز»، فتزلا من المدينة على منزل، فجاءهما صاحب ذلك المنزل، فبحث عنهما.

فقال له «جالينوس»: بلغَّ الملك نزول «جالينوس» هذا المنزل.

فقال له صاحب المنزل يعني «جالينوس» سيد الملك مولاه.

فقال له «جالينوس» مبتسمًا: «جالينوس» طبيب الملك.

فغاب الرجل عن حضرته، وأبلغ تلك الرسالة، فتباشر الملك والناس بورود «جالينوس».

وقد كان الملك «باز» قد أقبل من علته، فركب في خاصته، وأمر الخيل أن يتبعه، واستقبل «جالينوس» فرحًا متبهجًا.

فلما نظر «جالينوس» فلم يتمالك أن نزل.. فركب الخيل كلها، واستقبله «جالينوس» و«بيقاس» الملك، واعتنقا ساعة.. ثم التفت، فأبصر «بيقاس».

فقال الملك لـ «جالينوس»: من هذا الذي شيعك، وساعدك أيها الفاضل؟
فقال له: المعتد بك، الطائر بجناحيك، الناشر لفضلك أيها الملك «بيقاس».

فعانقه الملك، واستبشر بقدومه، ودخلوا المدينة في زينة، وهيبة وجلالة.
فأنزلها الملك في دار مملكته، ولم يفارقهما أسبوعًا، ثم أكرمهما، وألففهما، وتشفع «بيقاس» إلى «جالينوس» أن يقبل من الملك أحد بنيه ليخدمه، ويتلمذ له، وكان اسمه «علوقن».

فأجاب «جالينوس» إلى ذلك، وقبله، وزوج «بيقاس» فعلمت ابنته من «علوقن»، وأقاما عند الملك شهرًا، فأعاد الملك لهما الخلع والجواهر، والألطف في كل يوم.

ثم انصرفا، وشيعهما الملك بنفسه وخاصته منازل متبهجًا بهما، وسلم «علوقن» إلى «جالينوس» بجماعة من الخدم والمماليك.

وردَّ على «بيقاس» الملك مدناً كثيرة بالقرب من مدينة كان قد تغلب عليها، وأمر ألا يرد أمر «بيقاس» في جميع مملكته، وينفذ أمره، كما ينفذ أمر «باز» الملك فوصلوا إلى البلاد.

وتقدَّم «بيقاس» فبنى قصرًا «لعلوقن» وابنته، وجعل «علوقن» ولي العهد، ولزم «علوقن» جالينوس.. فخرجه، حتى بز في الطب في مدة يسيرة. واعتل «بيقاس» الملك علة حادة، اشتعل قلب «علوقن» وساطته، واغتم لذلك.

وحضر «جالينوس»، واتفقا على أن تلك العلة قاتلة.. فقال له «جالينوس»: أو من أيها الملك بما تشاء قبل الفوت.

فقال «بيقاس»: من يخلف مثل «باز» الملك، وابنًا مثل «علوقن»، وأخًا مثلك؟ فهو مستغن عن الوصية.

وقضى نحبه.. وكتب «علوقن» إلى أبيه ببيعته، وعرفه أن له ابنًا راجحًا يصلح لسياسة الملك، فكتب إليه «باز»: أن تسلم المملكة إلى «بيقاس»، وزوج أختًا كانت لـ «علوقن» من ابن «بيقاس»، ويحليها، وجللها وجهازها، وخدمها مع ثقة من أهله.

ولحق «علوقن» بأبيه «باز» بعد أن فرغ «جالينوس» من تجريجه.. وودعه وداع الوالد للولد.. فسُرَّ به «باز» الملك، وبما صادفه من تجريجه على «جالينوس».

وابتهج بمكانه، وبما وجده عليه.. والله أعلم بالصواب.

من أقوال «جالينوس»

قال «جالينوس»: العلم لا يمنع الرزق، والأدب لا يرد الحظ... وهما أولى أن يكونا سببًا للرزق، وطريقًا إلى الكسب، وعونًا على الشرف وأقرب.

وقال: أما الفضيلة، فكل الناس تشاق إليها... وأما الطريق التي تؤدي إليها، فشاقة، وقليل من يصبر عليها.

وقال: ما دخل الرمان بطنًا فاسدًا، إلا أصلحه.. ولا دخل التمر جوفًا صالحًا، إلا أفسده.

وقال: أنواع الموت أربعة: موت طبيعي.. كالهرم..

وموت عرضي من آفة تصيب البدن..

وموت برضا وشهوة كالذي يقتل في نفسه.

وموت يكون بغتة، وهو موت الفجاءة..

ولنختتم تاريخ أفضل الأطباء بذكر الأحوال التي تتعلق بالطب ومبتدئه.

واعلم أن «يحيى النحوي الإسكندراني» الذي كان في زمن «عثمان»^(١)، و«معاوية»^(٢)، وكان يطبهما أحيانًا.

(١) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية (٤٧ق.هـ - ٣٥هـ / ٥٧٧ - ٦٥٦م) من قريش: أمير المؤمنين ذو النورين، ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

(٢) معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي: (٢٠ق.هـ - ٦٠هـ / ٦٠٣ - ٦٨٠م): مؤسس الدولة الأموية في الشام وأحد دُعاة العرب.

وقال: إن أول من أظهر الطب بمدينة (قو) إسقليوس الأول من مدينة (فو) وهي مدينة «أبقراط»، وهو الذي استخرج الطب بالتجربة.

وكان بينه وبين ظهور «جالينوس» خاتم الأطباء ثمانية أطباء.

«إسقليوس» الأول، و«غورس»، و«مينسي»^(١)، و«رمانقديس» و«أفلاطون» الطبيب، و«إسقليوس الثاني»، و«أبقراط الثاني»، و«جالينوس».

وكانت المدة التي كانت بين ظهور «إسقليوس الأول» إلى ظهور «جالينوس» خمسة آلاف سنة وخمسمائة وستين سنة، منها الفترات بين كل واحد من هؤلاء الأطباء.

منذ وفاته إلى ظهور الآخر: «أربعة آلاف وثمانمائة وتسع وثمانين سنة» من ذلك.

منذ وفاة «إسقليوس الأول» إلى ظهور «غورس» ثمانمائة وست وخمسين سنة.

ومنذ وقت وفاة «مينسي»، وإلى ظهور «مايندرس» سبعمائة وخمس وثلاثين سنة.

ومنذ وقت وفاة «رمايندس»، وإلى ظهور «أفلاطون»، وإلى ظهور «إسقليوس الثاني» ألف وأربعمائة وعشرين سنة.

ومنذ وفاة «إسقليوس الثاني» وإلى ظهور «أبقراط» ستين سنة.

(١) مينسي «٦٨٧ - ٦٤٢ ق.م» ملك يهوذا، مال إلى عبادة الأوثان.

ومنذ وفاة «أبقراط» وإلى ظهور «جالينوس» ستمائة وخمس وستين سنة.

وعاش «أسقليبيوس الأول» تسعين سنة، منها صبي قبل أن تفتح له القوة الإلهية (خمسون سنة)، وعالم معلم (أربعون سنة)...

وعاش «غورس» سبعة وأربعين سنة، منها صبي متعلم (سبع عشرة سنة)، وعالم يعلم (ثلاثون سنة).

وعاش «منيسي» أربعة وثمانين سنة، منها صبي متعلم (أربع وستون سنة)، وعالم معلم (خمس عشرة سنة).

وعاش «رمانيدس» أربعين سنة، منها: صبي متعلم (خمس وعشرين سنة) وعالم مُعلم (خمس عشرة سنة).

وعاش «أفلاطون» ستين سنة، منها صبي متعلم (أربعون سنة)، وعالم معلم (عشرون سنة).

وعاش «أسقليبيوس الثاني» مائة وعشر سنين، منها صبي متعلم (خمس عشرة سنة)، وعالم يعلم (تسعون سنة)، وعطل خمس سنين.

وعاش «أبقراط» خمسًا وتسعين سنة، منها صبي متعلم (خمس عشرة سنة)، وعالم معلم (خمس وسبعون سنة)، وعطل خمس سنين.

وعاش «جالينوس» سبعة وثمانين، منها صبي متعلم (ست عشرة سنة)، وعالم معلم (إحدى وسبعون سنة).

ولكل واحد من هؤلاء الأطباء الأصول: تلاميذ علموهم هذه الصناعة، وخلفوهم بعدهم لثبات ذكرهم.

وكانت تلاميذهم من الأولاد والأقارب، لا من أولاد الغرباء؛ لأنه كان بينهم عهود ومواثيق: ألا يعلموا هذه الصناعة غريباً على ما عهده «أسقليبوس الأول» إليهم، فإن «أسقليبوس» هذا خلف من التلاميذ (ماتني ولد)، وغيره من القرابة (سنة نفر):

«ماغنس»، و«سقراط»، و«أخروسييس»: الطبيب، و«مهراديس» المكذوب عليه.

والمزور سبب الكذب إنه لحق «سليمان بن داود» عليه السلام؛ لأن بينها (ألوف من السنين)، و«صدوريدر» و«سياسوس».

وكان كل واحد من هؤلاء ينتحل رأى أستاذه هو «أسقليبوس»، وهو رأي التجربة؛ لأن الطب إنما حصل لهم بالتجربة.

ولم يزل الطب يتقل من هؤلاء.. إلى من علموه، حتى ظهر «غورس»، ونظر في رأي التجربة وقواها.

وخلف من التلاميذ سبعة: «مرقس»، و«جروجيس»، و«ماسطيس»، و«بولس»، و«ماهانس»، و«أسقواطيس الأول»، و«سيقورس».

وكل واحد من هؤلاء ينتحل رأى أستاذه في التجربة..

فلم يزل الطب يجري من هؤلاء على السداد.. إلى أن ظهر «أسقليبوس الثاني».

فنظر في الآراء القديمة، فوجد أن الذي ينبغي أن يعتقد هو رأي «أفلاطون»، فانتحله.

فلما تُوفي خَلَفَ من أهل بيته من التلاميذ ثلاثة نفر، وهم:

«أبقراط بن إبرقلس»، و«ماغارس»، و«أورجس».

فلم تمض عِدَّة أشهر حتى تُوفي «ماغارس»... ولحقه «أورجس».. وبقي «أبقراط» وحيد دهره: كامل الفضائل، عالماً بسائر الأشياء التي بها يُضرب المثل، وأعني: الطب، والفلسفة.

إلى أن بلغ به الأمر.. أن عند الغاية، وقوى صناعة القياس والتجربة تقوية عجيب لا يتهيأ لطاعن أن يحملها.

وعَلَّمَ الغرباء الطب، وجعلهم أشباه أولاده؛ لأنه خاف أن يفنى الطب من العالم.

وخَلَفَ من التلاميذ من آل «أسقليبوس».

أما من أولاده: «فيالوس»، و«دارقن»، و«مالانا أريسنا» ابنته، وكانت أفضل من ابنه.

ومن أولاد أولاده «بقراط بن باسلوس بن بقراط بن دراقن بن بقراط».

ومن التلاميذ: القرباء، والغرباء خَلَقَ كثير مثل: «بالاون»، و«ماسرخيس»، و«مستانوس»، و«بولولس» وهو أجل تلاميذه وخليفته، و«بافبنسون»، و«أسطات»، و«ساوس»، و«غورس»، و«سيطوس» من أهل بيته، و«ماكليس».

ولم يزل الطب ينتقل من هؤلاء الأطباء.. إلى من علّموه.. إلى أن ظهر «جالينون»، وكان في الفترة بين «أسطيرس»، وبين «غورس سورندون»،

و«ماديوس» و«سادياس» و«سنبارس» و«سسقرو قوس الأول»
و«سموليس» و«أنطياخس» و«فريمون» و«أغاييس» و«أبراقلس»
و«أسفوروس».

وكان في الفترة بين «أفلاطون» و«إسقليوس الثاني» مثل «الإقراعيطي»
و«تامسطيوس» الطيب، و«إقليوس» و«فوريفوس» و«إبرقلس الأول»
و«أندرماخس» القدم، و«إفلاغورس» و«ماخيس» و«سيفوروس»
و«غالوس» و«طيلطاس» و«أمروقلس» و«بونا» الطيب.

وكان في هذا الوقت من الفلاسفة: «فوتا غورس» و«ذوفلس»
و«بادن» و«أنبارقليس» و«إقليدس» و«ساوري» و«طيثاوس» و
«إنكسمانس» و«ديمقراطيس» فإنه لحق «أبقراط» وهو مع أستاذه
«إسقليوس» و«تاسليس».

وكان في الفترة التي بين «بقراط» و«جالينوس» «سقليوس» الطيب
المفسر لكتب «أبقراط» و«أنقيلاولس الأول» الطيب، و«لوفس»
و«أرشيسعراطس الثاني» القياس، وقيل: الثاني «غالوس» و«سوير فاطوس»
صاحب العقاقير، و«سقالس» المفسر لكتب «أبقراط» و«مابطانس» المفسر
لهذه الكتب، و«غاغولس» و«مفيس» «الحمصي» و«أندماخس» القريب،
و«سوباخس» الأثيني، و«دوفس» الكبير، و«أومرفولوفوس» و«إيديجانس»
صاحب النبض، و«دياسقوريدس» الأول: المفسر لكتب «أبقراط»
و«ساقريطس» العامل للمعجونات، و«مساوس» و«مادس» الجلي.

وكان قد وقع إليه كتاب من كتب «باسلس» الأول الذي كان يقول: إنه

ثاني الطب حيلة، وكان قد بقي بعد اختراق كُتب الحيل، فانتحلته.

وقال: لا صناعة غير صناعة الحيل، أعني: الطب.. وأراد إفساد الناس عن اعتقاد القياس والتجربة، ووضع كُتبًا كثيرة، أخذها من ذلك الكتاب.

فلم يزل مع الأطباء يقبلها بعضهم، ويردّها بعضهم.. حتى ظهر «جالينوس» فناقضه، وأفسدها عليه، وأحرق ما وجد منها بالكلية.

و«أقريطن»، و«أغافرس»، و«جاديكسانس»، و«أرساسيس»، و«ماريطس»، و«فافولس»، و«مارقس»، و«رغالس»، و«هرمس» الطبيب، و«بولانس»، و«ماخودنا»، و«جكلس».

وهؤلاء الاثنا عشر طبيبًا الذين أولهم «أقريطن» عاضد بعضهم بعضًا في تأليف الأدوية لمنفعة الناس تشبهاً لهم بالبروج الاثني عشر.

و«فيلس» الذي لا يخطئ في علاج، و«ديمقراطيس»، و«فافولس»، و«مادفنس»، و«برغالس»، و«هرمس» الطبيب، و«بولانس الثاني» الطبيب، و«أفروسييس»، و«أنكسافطواطيس»، و«أفردوتيس»، و«بطليموس» الطبيب.

و«سقراطيس» الطبيب، و«مادقيس» العاشق للعلوم، و«سوريش»، و«سادرنتوس» التام، و«قوريس» قاده العين، و«دياسقوريدس» العين، صاحب النفس الذكية، النافع للناس المنفعة الجليلة، السائح في البلاد، المقتبس لعلوم الأدوية المفردة من البراري والبحار والجُزر المصورها أبعاد لمنافعها.

فلما صحّت له بالتجربة، ووجدها غير مختلفة.. أثبتّها وصوّرها.

وعنه أخذ جميع من جاء بعده، وبه تقوُّوا على جميع ما احتاجوا إليه من الأدوية المفردة.

و«بلاديوس» المفسر لكتب «أبقراط»، و«قلاوبطو» امرأة طيبة، و«جالينوس» أخذ عنها أدوية كثيرة، وعلاجات شتى، وخاصة في أمور النساء.

و«أسقليبادوس» و«سوانوس» الذهبي، و«إراقليس» الطرانطي، و«أدوميس» الملك، و«ساروس القلبطي»، و«سالس الحمصي»، و«كسانوا أبرخس»، و«فرطانس»، و«ديوجانس» الطبيب، و«ذوالس الكمال».

و«أسقليادس»، و«البلاذري»، و«بقراطيس الجوارثي»، و«الأون»، و«أريوس الطرسوسي»، و«نيمن الحراني»، و«مودوقوس» الأثيني، و«أراقلس الهادي»، و«بطرونس»، و«فرداداس»، و«باقراطس العين» ردي، و«أنطياطروس»، و«أديوس الطريبوسي»، و«فيلوس الطرسوسي» الذي له معجون الفلونيا، و«عاقوس» المصري، و«طوطوسوس» الإسكندراني، و«أليس»، و«سقورس» المطاع؛ لأن الأدوية كانت تطاوعه فيما يستعملها.

و«ثانون»، و«أران الحراني».. وجميع هؤلاء أصحاب الأدوية مفردة، و«جالينوس» أخذ منهم كتبه في الأدوية المركبة.

ومن كان في هذه الفترة من الفلاسفة: «زينون» الكبير، و«زينون» الصغير، و«أقراطس» المنطقي، و«أدمون» المستوفي، و«إغلوغن النصيبي»، و«سقراط»، و«ديمقراط»، و«أرسطاطاليس»، و«ثافرسطس»، و«أذيموس»، و«فافامس»، و«أخروسييس»، و«دياجانس الكلبي»، و«فيلاطس».

و«فيماطوس»، و«أسقليبيوس»، و«أرمينيس» الرومي مُعلم «جالينوس»، و«إغلقون» المحب لجالينوس، و«الإسكندر» الملك، و«الإسكندر الأفروديسي»، و«فرفيوس» السادري، و«أبرقليس» الأفلاطوني، و«إسطفانس» المصري، و«رامس».

ومنذ وفاة «جالينوس».. وإلى سنة تسعين ومائتين، فالأطباء في هذه الفترة: «أصطقن»، و«جلسيوس»، و«أنقيلاوس»، و«مادينوس»: فهؤلاء الأربعة: «الإسكندر إنيون»... وهم الذين فسّروا كتب «جالينوس»، وجمّعوها، واختصروها.

و«طيمائوس» الطرسوسي، و«معيش» الإسكندراني، و«أسطفن الحراني»، و«سمري» الملقب بالهلّال كثرة ملازمته منزله؛ لاشتغاله بالتأليف، و«أدناسيوس»، و«فولس»، و«أرسا سالوس القوابلي»؛ لمشاورة القوابل إياه في أمور النساء.

و«ذياسقورنيدس الكمال»، و«مافالس» الأثيني، و«أفرونيطس» الإسكندراني، و«بنطس»، وهو من الحُدّاق في سائر صناعات الطب.

و«مارسوس» الرومي، و«أدون»، و«زومانك».

ومن الفلاسفة المذكورين «ثامسطيوس»، و«فرفيوس الصودي»، و«يحيى النحوي»، و«درانوس»، و«إنقيلاوس»، و«أموسوس»، و«قولوس»، و«أفروطوخس»، و«أذونيس»، و«ملغاراليب رزلي»، و«ميادوس» الأثيني، و«أدى الطرسوسي».

فجملة السنين من وقت «أسقليبيوس» الأول.. إلى سنة مائة وتسعين.

أعلام الحكماء الإسلاميين

جدير بنا أن نذكر في هذا المقام - إلى جانب تواريخ القدماء من حكماء الإغريق اليونانيين الأثينيين، وأيضًا الرومانيين وغيرهم من الفلاسفة والأطباء والقادة... وغيرهم - تواريخ الحكماء المتأخرين من الإسلاميين، ونبدأ من نوادرهم، ومآثرهم، وطرائفهم، وحِكَمهم، وحكاياتهم التي تدل على ثراء عقولهم، وصقل أفكارهم، وغزير علومهم..

حنين بن إسحاق^(١) المترجم

كان أول من فسر اللغة اليونانية، ونقلها إلى السريانية والعربية.. ولم يكن يوجد في هذه الأزمنة -بعد الإسكندر- أعلم منه باللغة العربية واليوناني.

وكان «حنين بن إسحاق» في عهدي «المأمون»^(٢)، والمعتصم^(٣): بغدادى المولد، ونشأ بالشام، وتعلم بها.

وكان يدخل بيع النصارى، ويتعبد على قوانين شريعة «المسيح»، فدخل على عادية يوماً في البيعة، فرأى بها صورة، ونقل في الصور التي فيها، وقال: هذه بدعة لا يجوزها الشرع والعقل.. وكيف يجوز نصب الصور في موضع يُعبد فيه «الله» تعالى الذي هو مُتَزَّه عن الصورة والهيئة.

فحبسه (الجائليق) مدة في داره، فصنّف في حبسه المسائل المنسوبة إليه، وفسر كُتُب «أرسطو»، و«أفلاطون».

ثم اعتذر إليه (الجائليق)، فما قَبِلَ عُذْره، وما عاد إلى البيعة، واشتغل بنشر العلوم، وقال: كل زمان يلائم علماً، وعادة، وصنفاً من الإنسان.

وقال: من خاف شقاوة الدنيا، ما اكتسب سعادة العُنى.

(١) حنين بن إسحاق العبادى، أبو زيد (١٩٤ - ٢٦٠هـ): طبيب، مؤرخ، مترجم.

(٢) عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور، المأمون العباسي أبو العباس (١٧٠ - ٢١٨هـ): سابع الخلفاء من بني العباس في العراق، وأحد أعظم الملوك في سيرته، وعلمه، وسعة ملكه.

(٣) محمد بن هارون الرشيد، المعتصم بالله العباسي (١٧٩ - ٢٢٧هـ): خليفة من أعظم خلفاء هذه الدولة، وهو أول من أضاف إلى اسمه اسم الله تعالى، من الخلفاء، فقليل: «المعتصم بالله».

ابنه إسحاق^(١)

كان من نُدماء «المكتفي بالله»^(٢) تعالى، وقد دعاه يوماً ليختار طالعاً؛
ليجعل ابنه ولي عهده.

فقال: يا هذا.. لا يتم أمره، ولا يصلح حاله للخلافة.

وقال: تأملتُ طالع «المكتفي بالله»، فوجدت صاحب عاشره في ثالث
طالع، فعلمتُ أن الأمر بعده لأخيه.

وكان كما قال فجلس بعده «المقتدر»^(٣).

ولإسحاق تصانيف كثيرة، وكان الغالب عليها الأحكام والطب.

وقال للوزير «العباس بن الحسن»^(٤): إن من تصدَّى لحفظ الناس، ذكرتهُ
الألسن بالمدح، والذم... فاجتهد أن تكون ممدوحاً في ذاتك، ولا تحسب
أغراض الناس.

(١) إسحاق بن حنين العبادي (٢١٥-٢٩٨هـ): طبيب مترجم، أفاد العربية بما نقله إليها من
كتب الحكمة، وشروحها.

(٢) علي «المكتفي بالله» بن أحمد المعتضد بن الموفق بن المتوكل، أبو محمد (٢٦٣-٢٩٥هـ): من
خلفاء الدولة العباسية في العراق.

(٣) جعفر بن أحمد بن طلحة، أبو الفضل «المقتدر بالله» بن المعتضد بن الموفق العباسي (٢٨٢-
٣٢٠هـ): خليفة عباسي.

(٤) العباس بن الحسن بن أيوب الجرجاني، أو المآداني، أبو أحمد (٢٤٧-٢٩٦هـ) من وزراء
الدولة العباسية.

وكان «إسحاق» ممن حُسُن إسلامه، وقد أشركه «المكتفي» في بيعة ابنه مع وزيره «العباس».

سأل «إسحاق بن حنين» أباه: ما الذي تُشير عليّ أن أقرأ من الكتب، وأن تجعل غرضي معرفته في شيء بيده بحسب ما أعلم من عنايتك لي، ومن علمك برغبة طبيعتي لقبول العلم.

فقال «حنين»: ما أعلم أشد ضرورة منك إليه إلا ما أمرك «الحكيم الأول» بتعرفها، وهي التي أنت بها مشارك للباري جلّ ثناؤه، ومنفصل عن البهائم، وهو الذي تسميه العرب نطقًا، واليونانية: لوغس، أي: بالقول.

فقال «إسحاق»: فإذا كانت الكتب في هذا الفن كثيرة، فأرشدني إلى كتاب أبتدئ به.

فقال «حنين»: كتاب «فاطيفورياس».

فقال «إسحاق»: ولم اخترت كتاب «فاطيفورياس»؟ ولم اخترت الذي للحكيم «أرسطو»؟

قال حنين: أما كتاب «فاطيفورياس» فلأنه ابتدأ هذا العلم.. وأما الذي للحكيم فلأن غيره، ليس بموجود في هذا الوقت، ولو كان غير هذا الكتاب موجودًا في هذا المعنى، وهو كتاب «أرخوطس» لاخترته لك.

وكان «أرخوطس»، من شيعة «فيثاغورس»، وهو المتبدئ لأكثر حكمة اليونانيين، وعنه أخذ «سقراط»، و«إقليدس»، و«إيلوس»، و«أرشميدس»، و«بطليموس»... وسائر الحكماء والمهندسين.

«حبّيش»^(١) الطيّب

كان من الأطباء المتقدمين والمهندسين.. وله تصانيف كثيرة في الطب،
ومصنفات في المعالجات...

فمن كلامه

الكذب: رأس كل بلية.

وقال: من ترك الحق، أدرك معالي الأمور.

وقال: من كَرُمَت نفسه، لم يكن إلا بالحكمة أنه ثابت.

(١) حبّيش بن الحسن الأعشم الدمشقي: طبيب، ومؤلف، ومترجم... من تلاميذ «حنين»،
وابن أخته.. ترجم أغلب كتب «جالينوس» إلى العربية.. له العديد من الكتب: تأليفًا وترجمة.

ثابت بن قرة الحراني

كان حكيماً كاملاً في أجزاء علوم الحكمة.. وكان من الصائين.

وهو جد «محمد بن جابر بن سنان»^(١)، صاحب الرصد.

وكان «المعتضد»^(٢) يكرمه، ومن إكرامه له أنه طاف معه في بستان له،

ويده على يد «ثابت»، فانتزع يده بغتة من يد «ثابت».

ففزع من ذلك «ثابت»، ثم قال له: أخطأت حين وضعت يدي على يدك

وسهوت، فإن العلم يعلو ولا يُعلى.. فهذه غاية الإكرام.

وكتاب (الذخيرة) له هو نادر في الطب، فإن «الصابي» قال: رأيت «ثابتاً»

في النوم، واستفدت منه نكتة ذهب عني.. وبعد حين تذكرتها، وهي أنه قال:

خُذ ثمرة الفلسفة من هذه الكلمات الشافيات:

اعلم أنه اليقظة التي لنا بالحس هي: النوم، والحلم الذي لنا بالعقل هو:

اليقظة، ويغلبه الحس علينا.. حكمنا: إن الأمر بخلاف هذا، وإلا فغلب

العقل على الحس، يتصدع له الحق في هذا الحكم، فإذا وضح هذا، ينبغي أن

تتقصى من الحس، وإن ظننا أن اليقظة من ناحيته وتلبس بالعقل، وإن ظننا أن

(١) محمد بن جابر بن سنان الحراني الرقي الصابي، أبو عبد الله المعروف بالبناني (ت ٣١٧هـ)

فلكي، مهندس، وكان من أهل حرّان، وسكن الرقة، واشتغل برصد الكواكب من عام ٢٦٤هـ

إلى ٣٠٦هـ.

(٢) أحمد بن طلحة بن جعفر، أبو العباس المعتضد بالله، ابن الموفق بالله، ابن المتوكل (٢٤٢-٢٨٩هـ): خليفة عباسي.

الحلم من ناحيته.

وقال الملك «أبو جعفر» وعنده جماعة من الحكماء منهم «أبو سليمان»: إنا لم نجد من فلاسفة المسلمين على كثرتهم من يقوم في أنفسنا مقام «سقراط»، و«أفلاطون»، و«أرسطو».

فقل له: ولا الكندي؟

فقال: إن «الكندي» على غرارته، وجودة استنباطه: رديء اللفظ، قليل الحلاوة، متوسط السيرة، كثير الغارة على حكم الفلاسفة.

و«ثابت» ألزم العطب، وأشد اعتناقاً لهذا الفن، وجميع الناس متقاربون بعدهما، ولهما سبق..

وجرى عند «ثابت» ذكر «فيثاغورس» وأصحابه، وتعظيمهم العدد الذي لا يفهم معناه.

فقال: إنَّ الرجل شيعته أجل قدرًا، وأعظم شأنًا أن يقع لهم سهو وخطأ في معرفة الأمور العقلية، فيجوز أن يكون قد وقفوا من طبيعة العدد على سرائر لم تبتة إلينا لانقراضها.

أبو عثمان الدمشقي سعيد بن يعقوب

هو من مقدّمي الأفاضل، ونقله كُتب الأوائل، ومن له السَّبق في ذلك بعد «حنين»، وابنه «ثابت بن قرّة».

وكان فصيحًا بما في اللغتين العربية واليونانية، معتمد النقل، من ترجمته: المتواضع من طلاب العلم، أكثرهم علمًا.

من أقواله: إن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء.

وإذا أبصرت العين الشهوة، عمي القلب عن الاختيار.

ومن نظر إلى الموت بعين الأمل، رآه بعيدًا.

ومن نظر إليه بعين علقه، وجده قريبًا.

وقال: العقل صفاء النفس، والجهل كدرها.

وهو من أطباء بغداد المذكورين.. وكان قريب الصلة إلى «علي بن عيسى

الوزير»^(١)، الماريستان في يده.

(١) علي بن عيسى بن داود، ابن الجراح، أبو الحسن البغدادي الحسني (٢٤٤ - ٣٣٤هـ): وزير المقتدر العباسي، والقاهرة، وأحد العلماء الرؤساء، من أهل بغداد.

أبو الحسن ثابت بن قرة الحرّاني^(١)

كان من الصابئة، وله سوى براعته في علوم الأوائل رأس مال كثير، ورئاسة عظيمة في الصابئة.

وقد رأيت عدّة كتب مصنفة في مذاهبهم هي عند تميم الآن.

وقد بلغ من جلالة قدره، وعِظَم محله في العلم.. إنه جعل كالمتوسط بين «يحيى النحوي»، وبين «برقلس»، وله عليهما كلام طويل، يشتمل عليه «دسوتكاغد».

و«ثابت» هو أصل ما تجدد للصابئة من الرئاسة ببغداد بحضرة الخلفاء، ولم يكن في زمانه من مماثلة في جميع أجزاء علوم الفلسفة، وله أرضاء حسنة للشمس.

ولما حبس «الموفق» «المعتضد» في دار «ابن بلبل»، تقدم «ابن بلبل» إلى «ثابت» أن يدخل إليه، ويؤانسه.

فكان يدخل إليه في كل يوم ثلاث مرات يحادثه ويسأله، ويعرفه أحوال الفلاسفة، وأمر الهندسة، والنجوم، وغيره.

(١) ثابت بن قرة بن زهرون الحرّاني الصابئ أبو الحسن (٢٢١-٢٨٨هـ): طبيب حاسب وفيلسوف، ولد، ونشأ بحرّان بين (دجلة والفرات)، وحدث له مع أهل مذهبه (الصابئة) أشياء أنكروها عليه في المذهب، فحرم عليه رئيسهم دخول الهيكل، فخرج من حرّان وقصد بغداد، فعمل بالفلسفة والطب، فبرع.

فشغف به «المعتضد»، ولطف محله.

فلما خرج من حبسه قال لبدر غلامه: أي رجل أفادنا بعدك؟ فسأله عنه.
فقال «ثابت»: ولما تقلد الخلافة أقطعه ضياعاً جليلاً، وكان يُجلسه بين يديه
كثيراً، يحضره الخاص والعام، ويكون بدر والوزير قائمين وهو جالس.

محمد بن زكريا الرازي^(١)

كان في بادئ الأمر صائغاً... ثم استعمل حلم الأكسير، فرمدت عيناه بسبب الحدة التي في العقاقير... فذهب إلى الطبيب؛ ليعالجه، فقال: لا أعالجك حتى آخذ منك خمسمائة دينار.

فدفع إليه ذلك، فقال: هنا هو الكيمياء، لم اشتغلت به؟ فترك الأكسير، واشتغل بالطب حتى نسخت تصانيفه تصانيف من كان قبله من الأطباء المتقدمين.

قال «ابن سينا» في حقه: هو المتكلف الفضولي الذي من شأنه في الأبوال والبرازات، وقد صدق في ذلك؛ لأنه بلغ الغاية في المعالجات الطبية.

وتكلم بالعوراء والحباث فيما سوى ذلك، قال: السموم ثلاثة: أكل الشواء المفحوم، واللبن الفاسد، والسمك المتن.

و «لمحمد» مصنّفات كثيرة جداً، ومولده ومنشأه بالري.. وقرأ على الطبيب «علي بن زين الطبري».

قال القاضي «ابن صاعد»: إن «الرازي» لم يتوغل في العلم الإلهي، ولا فهم غرضه الأقصى.. فلذلك اضطرب رأيه، وانتحل آراءً سخيضةً خبيثةً، وذم أقواماً لم يفهم عنهم، ولا اهتدى لسبيلهم.

وكان ينتقل في البلدان، وكان شيخاً كبير الرأس مسقطه، وكان يجلس للتعليم

(١) محمد بن زكريا الرازي، أبو بكر (٢٥١-٣١٣هـ): فيلسوف من أئمة صنّاع الطب.

بعظمة، فيجلس دونه التلاميذ، ودون التلاميذ تلاميذ.

وكان كريماً متفضلاً، باراً بالفقراء والأعلام.

وكان يجري عليهم الجرايات الواسعة، ولم يفارق المدارج والنسخ.

وكان في بصره رطوبة؛ لكثرة أكل الباقلاء.

وكان يقول: إنه قرأ الفلسفة على (البلمي)... وكان (البلمي) جَوَّالاً في البلاد

حسن المعرفة بالفلسفة، والعلوم القديمة.

وكان «الرازي» فطنًا ذكيًا مجتهدًا في جُلَّةِ أوقاته بالاجتهاد، والتطلع، والفكر

فيما دونه الأفاضل.

ومن شعره:

تعاجل ترحالي إلى أين ترحالي

من الهيكل المتحل والجسد البالي

لعمري ما أدري وقد أذن البلى

وأين محل الروح بعد خروجه

علي بن ربن الطبري^(١)

كان من كبار مدينة (مرو)، وله هبة رفيعة، وعلم بالإنجيل والطب، وابنه كان حكيمًا كاملاً، يُعرف ذلك من كتابه المعنون: (فردوس الحكمة)، وله مصنفات كثيرة.

(١) هو الحسن بن سهل بن ربن الطبري، قال ابن النديم: إن اسمه «علي بن ربل»، وقال عنه: إنه كان للمازيار بن قارن، فلما أسلم على يده «المعتصم» قربه، وظهر فضله بالحضرة، وأدخله المتوكل في جملة نُدماه، وله همة عالية، وكان حكيمًا كاملاً.. ولد بطبرستان، وكان يخدم وُلّاتها، ويقرأ علم الحكمة، وانفرد بالطبيعيات... ثم رحل إلى الري وسامرا، وصنّف بها كتابه (فردوس الحكمة)، ومن كتبه أيضًا: الدين والدولة، وتحفة الملوك، ومنافع الأطعمة، والأشربة والعقاقير، وكتاب حفظ الصحة، وكتاب في الحجامة (توفي عام ٢٤٧هـ).

أبو الخير الحسن بن بابا

البغدادى بن سوار بن بهنام^(١)

و (بهنام) كلمة فارسية مركبة من كلمتين، وهي: به، ونام، أي: اسم الخير، وكان خبيراً بالنقل، وقد نقل كثيراً من السرياني إلى العربي.. وقرأ الحكمة على «يحيى زعري»، وكان في نهاية الذكاء والفطنة.

وبلغ في الطب إلى غاية، قيل له: (محمود الأرض)، وكان ملكاً محموداً عظيماً. وكان إذا دعاه الفقير مشى راجلاً، وقال له: جعلتُ هذا المشي كفارةً لمروري إلى أهل الفسق والجبابرة.

فإذا دعاه سلطان، ركب في زي العظماء بالماليك الترك، والخيول الجياد، معه الهبة والوقار.

ووفى صناعته حقها بالتواضع للضعفاء، وبالتعاضد على العظماء.. وهذا كان طريق «بقراط»، و«جالينوس»، وجميع الحكماء.

فمنهم من تواضع، فلزم الزهد والتعاون.

ومنهم من أظهر من حكمته ما ظهرت به محاسن الحكمة.

(١) هو المعروف بابن الخمار (ولد سنة ٣٣١هـ)، له تصانيف مذكورة، منها كتاب الهيولي: مقالة واحدة، وكتاب «الوفاق بين قول الفلاسفة والنصارى» ثلاث مقالات، كتاب: «تفسير إيساغوجي» مشروح، كتاب «مختصر الصديق والصدّاقة»: مقالة واحدة.

وحكى «ابن هند»، وكان زعيم الفرقة النافية للطبع، تمادى أستاذي «ابن الحجاز»، ويعري العامرية.

فاشتكى الزعيم رأسه إلى أستاذي، فقال له: (ضع تحت رأسك الكتاب الذي نفيت فيه فعل الطبيعة؛ لتشفى).

وأبى أن يعالجه وهو بغدادي المولد، وقد حمله إلى (خوارزم) على «مأمون بن محمد بن خوارزم شاه».

فلما استولى «محمود بن سبكتكين»^(١) على خوارزم، وحمله إلى غزنة، وعرض عليه الإسلام.. فأبى وعمره جاوز المائة.

ومرَّ يوماً بمعلم في مكتب يقرأ: {الم* أحسب الناس أن يتركوا} [العنكبوت: ١، ٢].

فوقف وبكى ساعة، ومرَّ.. فرأى في منامه تلك الليلة «النبي» صلى الله عليه وسلم، وهو يقول: «يا أبا الخير مثلك مع كمال علمك، يقبح أن تنكر نبوتي». فأسلم على يده صلى الله عليه وسلم، فلما انتبه من منامه أظهر الإسلام، وتعلَّم الفقه على كِبَرِ سِنِّه، وحَفِظَ القرآن، وحَسُنَ إسلامه.

وقد حكم له «أبو ريحان» بنكتة قاطعة، فدعاه السلطان «محمود» يوماً لعارض، وبعث إليه مركوبه فَمَرَّ على سوق الخفافين، فنفرت الدابة فأهلكته. وقيل لأبي الخير: حَدَّثْنَا عن معرفة الله تقدست أسماؤه، وعلا شأنه...

(١) محمود بن سُبُكْتِكِين الغزنوي، السلطان يمين الدولة أبو القاسم ابن الأمير ناصر الدولة، أبي منصور ٣٦١ - ٤٢١ هـ: فاتح الهند، وأحد كبار القادة.

أضرورية هي - أم استدلالية؟ فإن المتكلمين قد اختلفوا في هذا الشأن اختلافًا شديدًا، وتنابروا عليه تنابرًا بعيدًا... ويجب أن يحصل لنا جواب فلسفي على جد الاختصار مع البيان.

قال: هي ضرورية من ناحية العقل، واستدلالية من ناحية الحس.

ولما كان مطلوب من العلم: إما أن يطلب بالعقل في المعقول، أو بالحس في المحسوس.

قال: هذا هو الشاهد والغالب، شاع أن يظن تارة معرفة الله اكتسابًا واستدلالًا؛ لأن الحس يتفصح ويستقر لموازرة العقل ومظاهرتة، ويحصله ويفضّله.

وأن تظن تارة أخرى أنها ضرورية؛ لأن العقل السليم من الآفة، البريء من العاهة، يحث على الاعتراف بالله، ويقدس اسمه، ويخطو على صاحبه حجله. وإن كان كارهاً، والتشكل فيه.. ولكن ضرورة لائقة بالعقل؛ لأن ضرورة العقل ليست كضرورة الحس فيها حدث، واختبار، وحمل وإكوره.

أما ضرورة العقل.. فهي لطيفة جدًا، لا يعظ ويلطف، وينصح ويجب.

وكان بعض أصحابنا في الوراقين ببغداد يضرب في هذا المثل: زعم أن مثال الحسن في هذا كامرأة حسناء مسرحة، ذات وقاحة وخلاعة.

قد جلست إلى شاب ظريف له شطر جاهلها، وعليه مسحة من حُسْنها، تخدعه بخدعتها، وتراوده.

فمن نفسه لنفسها، وتُبدي له محاسنها، وتطعمه في الاستكمال منها، وتستعجله

في حاجتها، وتحته على قضاء اللذة منها.

فأما مثل العقل، فإنه كشيخ هرم قاعد على بُعد، ليس به نهضة للرجوف إليه، والحيلولة بينه وبين ما قد نزل به من صاحبه الوقحة الناضجة.

إلا أنه مع ذلك ينظر إلى بيوت، وينادي بصوت، ويحرك رأسه، ويسبط يده ويعظ، ويلطف ويعد، ويخوف ويضمن، ويرفق ويفسق ويحنو.

فإن تأثير هذا الشيخ الهرم المحطم من تأثير هذه الجالسة الغالبة المحتالة المغتالة.. هذا مع قلة إصغاء الشاب إلى الشيخ، وسيلانه مع هذا.

وأراد بهذا المثل: الفرق بين العقل فيما يدعوك إليه ليستعد، والحس فيما يعلمك عليه، ليستقى هذا في جميع ما يتناوله ويحاوله.

فعلى هذا.. فإن الله تقدّس اسمه معروف عند العقل الاضطرار، لا ريب في وجوده، ومستدل عليه عنه الحس.. لأنه يستحيل كثيراً، ولا تنبت أصلاً.

فمن استدل يرقّ في الجزئيات، ومن ادّعى الاضطرار انحدر من الكليات..

فكلا الطرفين قد وضحا بهذا الاعتبار بدلاً من الخبط والإكثار..

وهكذا كل شيء طلب أصله وفصله بالنظر الفلسفي، والبحث المنطقي، والافتراء الإلهي.. فإما ينظر فيه بالجدال والخصومة، فلا يرث الإنسان منه إلا الشك، والمحرمة، والحسان، والظنة، والاختلاف، والفرقة، والعصية.

وهناك للهوى ولادة وحصانة، وللباطل استيلاء حصوله، وللخير ركود وأفاقه أخذ الله تأييدنا.

وكفانا الهوى الذي يزيدنا وضع، وبالذي هو أولى به والسلام.

قال «ابن سينا» في بعض كتبه: فأما «أبو الخير» فليس من عداد هؤلاء، ولعل الله تعالى رزقنا لقاءه.. فيكون إما أفاد.. وإما استفاد، وبعض الناسخين يكتب.

فأما «أبو النصر»، وهو غلط؛ لأن «أبا نصر» مات قبل ولادة «أبي علي» بثلاثين سنة، وقد أعطاه السلطان ناحية يقال لها: ناحية خمار، ونُسب إلى تلك البقعة.

وله تصانيف كثيرة في أجزاء علوم الحكمة، منها:

مقالة في الوفاق بين رأي النصارى، والفلاسفة.

ومقالة في الإيضاح عن رأي القدماء في «الباري» تعالى، في الشرائع، وجوّد فيها، ومقالة في السعادة.

وله غيرها كتب كثيرة في فنون.

ورأيت له رسالة إلى الوزير «الأمين» إلى «سعيد» فيها كلمات شافية.

وكتاب «خلق الإنسان»، وقد حلّ فيه كثيرًا من رموز الأوائل.

وقيل له: «بقراط الثاني»، وحق له ذلك.. لأن «النبي» صلى الله عليه وسلم سيّاه عالمًا.

وسُئل «ابن سوار» عما فيه الناس من السيرة، وما هم عليه من الاعتقاد: أحق كله، أو أكثره، أو باطل كله، أو أكثره؟

فقال: المسألة هائلة، والجواب هيّن.

قيل: فأفدنا أفادك الله، فإن ركب العلم لا ينزح، ولو اختلفت عليه الدلاء، وكُثر على دافتها الوارد.

فقال: صدقتم.. اعلموا أنه إذا لحظ استيلاء الطبيعة عليهم وعليه.. أثارها فيهم من الرأي المعتقد، والسيرة المؤثرة.. فأكثر ذلك باطل؛ لأن سلطان العقل في بلاد الطبيعة غريب، والغريب: ذليل، وإن لحظ حكم العقل، وما يجب به ويليق بجوهره، ويحسن مضافاً إليه فأكثر.

ذلك حق كان الملحوظ رأياً، أو سيرة، أو عادة، أو خليقة.. وعلى حسب هاتين العلتين يكون القضاء، ويقع الحكم.

والحق لا يصير حقاً بكثرة معتقديه، ولا يستحيل باطلاً بقلة متحليه، وكذلك الباطل.

متى بن يونس المترجم^(١)

كان حكيماً نصرانياً، وشرح كتب «أرسطو» وله تصانيف في المنطق.. وغير ذلك.

من كلامه: السعادات ثلاث: (نفسانية، وبدنية، وخارجية).

فالنفسانية هي: العلوم الحقيقية، وتتبعها الأخلاق المحمودة، والفضائل، والسيرة الحسنة.

والبدنية: كمال الأعضاء، وجودة التأليف، والتركيب.

والخارجية: حُسن اكتساب الدنيا وتحصيلها، وإنفاقها في وجهها على ما يوجهه العقل والشرع، ولا تجمع تلك السعادات لأحد إلا في النواذر.

(١) أبو بشر متى بن يونس النصراني المنطقي، نزيل بغداد، وإليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره، ومن مؤلفاته: كتاب تفسير الثلاث مقالات الأواخر في تفسير «تامسطيوس»، تفسير كتاب «إيساغوجي لفوفوريوس»، وهو المدخل إلى المنطق.. وغيرهما.

محمد بن جابر بن سنان الرقي

الحراني، أبو عبد الله^(١)

يعتبر أشهر علماء الفلك العرب، وقد عمل في مكتبة الخليفة المأمون، وهو صاحب الرصد المشهور بعد أيام الخليفة، وكان رصده في مدينة الرقة على نهر الفرات، كما أنشأ مرصد (البتاني) في سوريا.. وبتان: قرية من قرى (حران)، وإليها ينسب.

وكان عارفاً بتفاصيل أجزاء علوم الحكمة.

وقد أنفق أموالاً طائلة في الرصد.. وقد حدد بدقة عظيمة ميل تلك البروج، وطول السنة الشمسية، وعارض نظرية «بطليموس» في ثبات الأوج الشمسي، واستنتج أن معادلة الزمن تتغير تغيراً بطيئاً.

كما صحح حركات كثيرة للقمر والكواكب.

ويعد من المتقدمين في علم الهندسة، وهيئة الأفلاك، وحساب النجوم.

له من المؤلفات: كتاب الزيج (جزءان)، معرفة مطالع البروج، أقدار الاتصالات، وقد ترجمت بعض كتبه إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي.

(١) محمد بن جابر بن سنان الحراني الرقي الصابري: أبو عبد الله المعروف بالبتاني «٢٤٣-٣١٧هـ» فلكي، مهندس، من أهل (حران)، وسكن (الرقة)، واشتغل برصد الكواكب من سنة

الشيخ الفاضل

محمد بن محمد الفارابي^(١)

ويعرف «بأبي نصر الفارابي».. وكان أبوه قائد جيش، وأصله فارسي، وكان ببغداد مدة.. ثم انتقل إلى الشام، وأقام به إلى حين وفاته.

وكان مجتنبًا عن الدنيا، مقتنعًا بالقليل منها، يسير سيرة المتقدمين.

وقيل: إنه كان في أول أمره «ناطورًا»^(٢) بدمشق، دائم الانشغال بالحكمة والنظر فيها، والتطلع إلى آراء المتقدمين، وكان ضعيف الحال.

حكى: أنه كان بالليل يسهر للمطالعة والتصنيف، ويستضيء بقنديل الحارس، بقي كذا مدة حتى اشتهر، وكثرت تلاميذه، وصار أوحد زمانه.

واجتمع بسيف الدولة بن حمدان، فأكرمه إكرامًا عظيمًا، وعظمت منزلته عنده، وكان له مشيرًا.

وقيل: إنه لم يقبل من «سيف الدولة» كل يوم إلا أربعة دراهم ينفقها على أصحابه.. لم يعتن بمسكن، ولا بهيمة، ولا بشيء من أمور الدنيا.

وقيل: إنه كان في أول أمره قاضيًا.. فلما شعر بالمعارف، نبذ ذلك، وأقبل على

(١) محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، ويعرف بالمعلم الثاني «٢٦٠-

٣٣٩هـ»، أكبر فلاسفة المسلمين.

(٢) الناطور: حافظ الزرع، والتمر، والكرم (لسان العرب) مادة: نظر.

تعلم العلوم.

وقيل: إن سبب قراءته الحكمة، أن رجلاً أودع عنده كُتُب «أرسطو»، فنظر فيها.. فصادت منه قبولاً عظيماً، فتحرك إلى قراءتها حتى أتقنها (رُوح الله تعالى رسمه).

وهو من فاراب تركستان، وهو الملقب بالمعلم الثاني، ولم يكن أفضل منه من حُكماء الإسلام.

وقيل: الحكماء أربعة:

اثنان قبل الإسلام، وهما: (أرسطو، والإسكندر).

واثنان في الإسلام وهما: (أبو نصر، وأبو علي).

وكان بين وفاته، وولادة «أبي علي» ثلاثون سنة.

وكان «أبو علي» تلميذاً لتصانيفه.

وفي كتاب أخلاق الحكماء: إن «عباد»^(١) بعث إلى «أبي نصر» هدايا وصلات، واستحضره واشتاق إلى ارتباطه، و«أبو نصر» يتعفف، وينقبض، ولا يقبل منه شيئاً.. حتى ضرب الدهر ضرباته، ووصل «أبو نصر» إلى الري، وعليه قباء وسخ، وقلنسوة بلقا.

وكان أثبطاً قصيراً على هيئة بعض الأتراك.

(١) إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني ٣٢٦-٣٨٥هـ: وزير غلب عليه الأدب، ولُقِّب بالصاحب لصحبته (مؤيد الدولة)، من صباه، ولد في الطالقان (من أعمال قزوین) وإليها نسبته.

وكان «الصاحب» يقول: من أرشدني إلى «أبي نصر»، أو دعاه إلي... أعطيته مالا أغناه.

فانتَهز «أبو نصر» الفرصة حتى دخل مجلس «الصاحب» متنكراً، وكان المجلس غاصاً بالندامى، والظرفاء، وأرباب اللهو.. فأضافوا الجرم إلى الباب، ورموا إليه أسهم العتاب.

واستهزأ «بأبي نصر» كل من كان في المجلس وهو يحتمل الأذى، حتى اطمأنت أنفسهم بمجالسته، وأنساهم الشراب ذكره، ودارت الكئوس، ومالت الرءوس.

وحمل «أبو نصر» مزهراً، واستخرج لحنًا مع وزن نَوَم المستمعين، فصار كل واحد منهم كالذي يغشى عليه من الموت.

وقيل: كانت معه آلة قد أعدها لهذا الشأن، وكتب على البريط: قد حضر «أبو نصر الفارابي» واستهزأت به، فنوّمكم.

وغاب، ثم خرج «أبو نصر» من الري متنكراً متوجّهاً إلى بغداد.

فلما أفاق «الصاحب» وندماؤه، وتعجبوا من حذقه في صناعة الموسيقى، وتأسفوا على فوات منادته.

ثم قال «الصاحب»: أديروا الكئوس على اسمه، لعل الزمان يرده علينا.

فلما حمل المطرب العود قال: أيها الصاحب.. قد كتب ذلك الرجل شيئاً على (مزهري).

فلما نظر إليه «الصاحب»، وعرف أنه «أبو نصر» شق جيبه، واستغاث وجهه

أعوانه في طلبه.. وكان كالقارظ العنزى، فلم يجد له أثراً، ولا استمع له خبراً.. وبقي بقية عمره متأسفاً على فوات منادمته، والغفلة عن معرفته.. وأين من المشتاق عنقاء مغرب؟!

وقيل: إن «أبو نصر» كان يرتحل من دمشق إلى عسقلان، فاستقبله اللصوص، فقال لهم: أنا أبو نصر.. خذوا ما معي من الدواب والأسلحة والثياب، وخلّوا سبيلي..

فأبوا ذلك، وهُمّوا بقتله.. فلما صار مضطراً ترجّلاً، وحارب حتى قُتل مع من معه.

ووقعت هذه المصيبة في أفئدة أمراء الشام مواقع، فطلبوا اللصوص، ودفنوا «أبو نصر»، وصلبواهم على قبره.

- من أقوال «أبو نصر الفارابي»

قال «أبو نصر الفارابي»: ينبغي لمن أراد الشروع في الحكمة أن يكون شاباً، صحيح المزاج، متادباً بآداب الأخيار، قد تعلّم القرآن واللغة، وعلوم الشرع أولاً.. ويكون عفيفاً صدوقاً معرضاً عن الفسوق والفجور، والغدر والخيانة والمكر والحيلة، ويكون فارغ البال عن مصالح معاشه، مقبلاً على أداء الوظائف الشرعية، غير مُحلّ بركن من أركان الشرعية، ولا بآداب من آدابها، معظماً للعلم والعلماء، ولا يكون لشيء عنده قدر إلا العلم وأهله، ولا يتخذ علمه لأجل الحرفة.

ومن كان بخلاف ذلك.. فهو حكيم زور، ولا يُعَدُّ من الحكماء.

وقال: من لا يهذب علمه أخلاقه إلا في الدنيا، لا يسعد في الآخرة.

وقال: تمام السعادة بمكارم الأخلاق، كما أن تمام الشجرة بالثمرة.

وقال: من رفع نفسه فوق قدرها، صارت نفسه محجوبة عن نيل كماها.

وله أشعار حسنة حكيمة منها قوله:

لما رأيت الزمان نكسا	وليس في الصحبة انتفاع
كل رئيس به هلاك	وكل رأس به صداع
كرمت نفسي وضئت عر	ضابه عن الذلة امتناع
أشرب مما اقتنيت راحا	لها على راحتني شعاع
لي من قواريرها ندامي	ومن قراقيرها سماع
وأجتني من حديث قوم	قد أقفرت منهم البقاع
رأيت حاشية في انتخاب الصوان أنها للشيخ «أبي علي» رضي الله عنه، وله أيضًا:	

أخي خل حيزًا ذا باطل	وكن للحقائق في حيز
فما الدار دار خلود لنا	ولا المرء في الأرض بالمعجز
وهل نحن إلا خطوط ونقش	على كسرة وقع مستوجز
تناقص هذا لهذا على	أقل من الكلم الموجز
محيط السموات أولى بنا	فكم ذو التزاحم في المركب
وله أيضًا:	

ما يلوم جسمي عن لقائكم	إلا وقلبي إليكم شيق عجل
------------------------	-------------------------

وكيف يفقد مشتاق تحركه
فإن نهضت فإلى غيركم وطر
وكم تعرض لي الأقوام قبلكم
إليكم الباعثان: الشوق والأمثل
كيف ذاك ومالي منكم بدل
يتأتون على قلبي فما وصلوا

أبو سليمان محمد بن مسعر

البستي، ويعرف بالمقدسي

وأبو الحسن علي بن هارون الرنجاني، وأبو أحمد النهر جوزي، والعوفي، وزيد بن رفاعه.

فهم حُكماء اجتمعوا، وصنّفوا (رسائل إخوان الصفا)، وألفاظ هذا الكتاب للمقدسي «أبو سليمان محمد مسعر البستي المعروف بالمقدسي» له الرسائل الإحدى والخمسون المسماة «برسائل إخوان الصفا»، وكلها مشحونة بالأخلاق، وعلم اللحام، وهي موجودة فيما بين الناس، قد تداولتها الأيدي.

قال: ولما نظر فيها «أبو سليمان المنطقي» قال: تغنوا وما أغنوا، ونصبوا وما وجدوا، وحاموا وما وردوا، وغنوا فما أطربوا، وانسجوا فهلهلوا، ومشطوا فقلقلوا.

وقال «أبو الحسن علي بن أساس العوني»، وهو من إخوان الصفا: البيضة صارت رطبة لغليان الماء والهواء والنار عليها، ونقصان طبيعة الأرض.. فصفرة البيض تشبه طبيعة الهواء، وبياضها طبيعة الماء.. ولذلك يطير الطائر، والمادة الترابية فيه أقل.

ولذلك لم تخلق له الأسنان والفرج من البياض، والصفرة غذاؤه، والحضانة في الطائر معينة للقوة المولدة.

وقال: مَنْ لم يكن خيراً متخلّفاً بأخلاق الحكماء، فلا خير في علمه.

وقال: اجعل لنفسك من حُسن الظن بالناس نصيبًا مفروضًا.

وقال: الفضائل مبدأ الخيرات، والردائل أساس الشرور.

وقال: بالمشورة تضايّف العقول إلى عقل واحد على العمل.. خير من الإشكال بعد الإقدام عليه.

أبو عبد الله الناتلي

كان حكيماً عالماً، متخلّقاً بأخلاق جميلة، وزعم «ابن سينا» أن والده ارتبطه، واستفادت قوانين المنطق... وانتهيت إلى غوامض يتعجب الناتلي منها.

فلما انتهيت في تعلم الرياضيات إلى المعطيات والمخروطات قال لي: استخرج هذه الأشكال من ذاتك، ثم اعرضها عليّ.

وكان يستفيد بسبب هذه الوسطة منّي.

وله رسائل لطيفة في الوجود وشرح اسمه، وهذه الرسالة دالة على أنه كان مبرّزاً في الإلهيات جدّاً.

وله رسالة في علم الإكسير، ولا يذكره «ابن سينا» في مصنفاته إلا في كتاب «المقتضيات».

قال: عليك بالبحث عن جوهر النفس الشريفة، ولا تدخر ما تخاف عليه.

والعاقِل: لا يختار عرفان الحق على الحق.

يحيى النحوي الديلمي

هو غير «النحوي الإسكندراني أبو علي» الملقب بالطريق.
كان من القدماء، نصرانيًا فيلسوفًا.

وقال له «أبو علي» في حقه: هو المموه على النصاري؛ لأنه صنّف كتبًا ردّ فيها على «أفلاطون»، و«أرسطو» حين هُتِّمَ النصاري بقتله.
وأكثر ما أورده «الغزالي» في (التهافت) من تلك الكتب.
وقيل له: محب التعب لكده في طلب العلوم، وتحقق ماهيات الأشياء.

وله تصانيف كثيرة، ومنه أخذ الطب «خالد بن يزيد بن معاوية»، وقيل: «يحيى النحوي إسكندراني»، وكان في أيام «معاوية»، و«عثمان»، اشتغل بكتب الأوائل، وتبحر فيها من الفلسفة والطب، وقد طبها وخدمها.
ومنه أخذ «خالد بن يزيد بن معاوية» القليل الذي كان يدعيه من مغالطة هذا الشأن.

وكان نصرانيًا، فنقم عليه وشرح كتب «أرسطو» فاهتموا به، فأظهر لهم مخالفته في الأصول، وتفادى منهم بعمل كتابه الذي ينقض به مذاهب الحكيم.. وفي الكتاب الذي رد فيه على «أبرقلس».

ووصل إليه منهم من العطايا على هذين الكتابين بضع عشرة آلاف دينار، ولا يستبعد ذلك، فقد أعطى «يحيى بن خالد البرمكي» «إبان» على نقله «كليلة ودمنة» إلى شعر، ونحو ذلك، وعطيات الخلفاء بمثل هذا كثيرة.

يعقوب بن إسحاق الكندي

كان مهندسًا خائضًا غمرات العلم، وله تصانيف كثيرة، وجمع في بعض تصانيفه بين الشرع والمعقولات.

وقيل: كان يهوديًا، ثم أسلم.

وقيل: كان نصرانيًا، وكتابه في المناظر في غاية الحسن، وقد ارتبطه «المعتصم»، فكان أستاذ ولده «أحمد بن المعتصم».

وقال الكندي: لو أفسد أحد أحسن أعضائه كان مذموماً، وأشرف الأعضاء: الدماغ، ومنه الحس والحركة، وسائر الأفعال الشريفة، ومستعمل السكر يدخلون الفساد في أدمغتهم، ومتى توالى السكر على بدن، مرض دماغه، واشتد ضعفه، وبُعِدَ عن القوة المظهرة للأفعال الإرادية والنفسانية.

وقال: من مَلَكَ نفسه، مَلَكَ المملكة العظمى، واستغنى عن المؤن.. ومن كان كذلك، ارتفع عنه الدم، وحمده كل أحد، وطاب عيشه وله شعر منه:

أناف الذنابي (١) على الرأس	فغمض جفونك أو نكس
وضائل سوادك واقبض يديك	وفي قعر بيتك فاستجلس
وعند مليكك فابغ العلو	وبالوحدة اليوم فاستأنس
فإن الغنى في قلوب الرجال	وإن التعزز في الأنفس

و«أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي»: أول من تبحر من المسلمين في

(١) أناف بمعنى: أكل، والذنابي: الأتباع.. (لسان العرب.. مادة: نوف).

الفلسفة، وسائر أجزائها من المنطق، والطبيعيات، والرياضيات، والإلهيات، مع تبحره في علوم العرب، وبراعته في الآداب من النحو والشعر.

وكان يعرف الطب والنجوم وأحكامها، وضروباً من الصناعات والمعارف التي قلَّ أن تجتمع في إنسان واحد، وفهرسة كتبه تزيد على دست كاغد^(١).

وكان أستاذ «أحمد بن المعتصم»^(٢)، وباسمه عمل التزكية، وإليه كتب جُلُّ رسائله وأجوبته.

وهو أول من أحذق هذه الطريقة التي أخذها من جاء بعده من الإسلاميين، وإن كان قد تقدمه من ارتفع اسمه، وحسنت حاله في أيام «المأمون» الذين كان جلهم نصارى، وتصانفيهم تجري على الرسم القديم.

وقال: المسترسل موقى، والمتحIRON ملقى.

وقال: إن النظر في كُتُب الحكمة أعياد النفوس الناطقة.

وقال: إن «أفلاطون» قاس الشهوة التي للإنسان: بالخنزير.. والقوة الغضبية: بالكلب.. القوة العقلية: بالملك.

قال: فمن غَلَب عليه الشهوة، فهو: خنزير.. ومن غَلَب عليه الغضب، فهو كلب.. ومن غلب عليه العقل، فهو: ملك.. وإذا كان ملكاً فهو قريب التشبه بالله تعالى؛ لأن الأشياء التي يوصف بها الباري تعالى، وتضاف إليه، وهي:

(١) كاغد أي: مجموعة أوراق.

(٢) أحمد بن محمد بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبو العباس، أمير المؤمنين، المستعين بالله

٢٦٦ - ٢٥٢ هـ. خلفاء الدولة العباسية في العراق.

الحكمة، والقدرة، والعدل، والخير، والجميل، والكرم، والإحسان،
والفضل، والإنعام.

وقال: الإنسان لا يكون ذا فضل، إلا بأن تكون هذه الفضائل له، وجلي فيه،
وحاصلة لديه، وغالبة عليه.

فقد بان من هذه الجملة.. أن عواقب الناس إليّ هذه المنزلة المصحوبة بين
الكون والفساد... والمستصحبة إلى هناك، أعني: على الطريق الزاد والعتاد.

قال: ولهذا الثلاث، قال بعض القائلين بالتناسخ: الأنفس ثلاثة:

نفس مالكة، وهي الناجية.

ونفس سالكة، وهي الراجية.

ونفس هالكة، وهي التي لا حال لها فتذكر.

قال: فأما (أفلاطون)، فإنه قال: إن مسكن الأنفس العقلية إذا تجردت - كما
قالت الفلاسفة - خلف الفلك في عالم الربوبية، حيث نور الباري تعالى.

وليس كل نفس تفارق البدن، وتصير من ساعتها إلى ذلك المحل؛ لأن في
الأنفس ملاً يفارق البدن، وفيها دنس وأشياء حسنة.

فمنها: ما يصير إلى فلك عطار، فتقيم فيه مدة.. فإذا صارت إلى الفلك
الأعلى، ونُتقت غاية النقاء، وزالت أدناس الحس.. ارتقت إلى عالم العقل،
وجازت الظل، وصارت في أجل محل، لا تخفى عليها خافية، وواصلت نور
الباري تعالى.. وصارت تفكر في الأشياء: قليلها وكثيرها كعلم الإنسان
بإصبعه الواحدة، وصارت الأشياء كلها مكشوفة وبارزة.

فحينئذ يفوض الباري تعالى إليها من سياسة العالم أشياء تلتذ بها وتفعلها،
والتدبير لها.

أبو زيد البلخي^(١)

كان من حُكماء الإسلام، وفصحائه، وبلغائه.

وله تصانيف كثيرة في كل فن: كتاب «الأمَد الأقصى».

وكتاب «الإبانة عن علل الربانة».

وقال: لا بُدَّ من الموت، فلا تخف منه، وإن كنت تخاف مما بعد الموت، فأصلح شأنك قبل موتك، وخَفِ سيئاتك لا موتك.

وقال: الشريعة هي الفلسفة الكبرى.. ولا يكون الرجل متفلسفًا حتى يكون متعبدًا، مواظبًا على أداء أوامر الشرع..

وقال: الدواء الأكبر هو: العلم.

(١) أحمد بن سهل، أبو زيد البلخي ٢٣٥ - ٣٢٢هـ، أحد الكبار الأفاضل، من علماء الإسلام، كان فاضلاً في سائر العلوم القديمة والمعاصرة، وجمع بين الشريعة، والفلسفة، والأدب، وسائر الفنون، ولد في إحدى قرى بلخ.. وله العديد من المؤلفات منها كتب:

شرائع الأديان..

أقسام العلوم.

اختيارات السير.

أبو الفرج بن الطيب الجاثليق^(١)

كان «أبو علي» يذمه، ويهجن تصانيفه، ويقول في المباحث:
من حقق تصانيفه (لا بد) أن يرد على ما بها.. ولعل ذلك كان لتحاسد يكون
بين أهل العصر.

و «أبو الفرج»: كان حكيماً بغدادياً، وكان حكيماً جل أهله، داخلاً بين الحكمة
من باب، وتصانيفه كثيرة، وله تصنيف لطيف في كمية الأعمار.
وكان عالماً بالرومية واليونانية.

و «أبو علي» يعترف بتقدمه في الطب، ويعترض على بعض رسائله في الطب.
وكان يقول: كلامه غير فصيح، بعضه سقيم، وبعضه مستقيم.. فهو من
المستظرفين، لا من أصحاب الصناعة..

وله كتاب في علل الأشياء يدل على أنه حكيم، وبينه وبين «أبي علي» بونٌ بعيد.
و «أبو علي» كان مؤدياً مهجناً.

وفي بعض الكتب: أن «أبا علي» دخل على الحكيم «أبي علي مسكويه»
والتلاميذ حوله، فرمى «أبو علي» إليه جوزة، وقال: بين مساحة هذه الجوزة
بالشعيرات.

فرمى «ابن مسكويه» إليه أجزاء في الأخلاق، وقال: أمّا أنت فأصلح أخلاقك

أولاً؛ حتى استخرج مساحة الجوزة.

وليس الذم والتهجين من دأب الحكماء المبرزين، بل تقرير الحق.. ومن قرر الحق استغنى عن تهجين أهل الباطل.. صاننا الله تعالى عن الرزائل، وأسبغ علينا نعم الفضائل.

وقد بعث «أبو ریحان» مسائل إلى «أبي علي»؟ فأجاب عنهما «أبو علي» واعترض على تلك الأجوبة «أبو ریحان»، وهجنه كلامه، وخاطبه بما لا يخاطب به العلماء، فضلاً عن الحكماء.

فلما تأمل «أبو الفرج» الأجوبة والأسئلة قال: من يحمل الناس محلوه، أناب عني «أبو ریحان».

وكان «أبو الفرج» يقول: أنا من أولاد «قولوس». وكان «قولوس» ابن أخت «جالينوس».

ولما بعث الله تعالى «المسيح» كان (جالينوس) شيخاً عاجزاً، فبعث إلى «عيسى» عليه السلام ابن اخته «قولوس»، واعتذر إليه، وقال: أنا محبوس بالهرم..

وكتب إلى «المسيح» كتاباً.. وكان «المسيح» عليه السلام يقرأ ويكتب، ومضمون الكتاب:

يا طبيب النفوس، ونبي الله.. ربنا عجز المريض عن خدمة الطبيب بسبب عوارض جسمانية، وقد بعثت إليك بعقبى «قولوس»؛ ليعالج نفسه بالآداب النبوية... والسلام.

فلما وصل «قولوس» إلى «المسيح» عليه السلام.. أكرمه، وصار من الحواريين.

وكتب «المسيح» عليه السلام إليه:

يا من أنصف من علمه.. الصحيح لا يحتاج إلى الطبيب إلا في حفظ صحته،
والمسافة لا تحجب النفوس.. والسلام.

وادعت النصارى أن «قولوس» صار بعد «شمعون»، فصار نبياً من الأنبياء.

أبو القسم الكرمانى^(١)

كان حكيمًا عالمًا، جرى بينه وبين «أبي علي» مناظرات أدت إلى مشاجرة، لزمها سوء الأدب.

ونسبه «أبو علي» إلى قلة العناية بصناعة المنطق، ونسب «الكرمانى» «أبا علي» إلى المغالطة.

وكتب هذه المناظرة «أبو علي» إلى الوزير الأمين «أبي سعيد الهمداني» الذي صنّف لأجله (الأضحوية).

ومن كلامه: الطبيب خادم البدن (صح المريض، أو هلك).

وقال يومًا لأبي علي: لا تقرر ما عندك بتهجين ما عند غيرك؛ فإن الحق لا يتدلجج، والإنصاف لم ينعدم.

(١) عمرو بن عبد الرحمن بن أحمد الكرمانى، أبو الحكم، أو «أبو القسم» «٣٦٨-٤٥٨هـ»: جراح، عالم بالطب والهندسة، من أهل قرطبة.

أبو حامد أحمد بن إسحاق الإسفراي

الحكيم المتقي، والفيلسوف المبرز.. له تصانيف في الرياضيات والمعقولات.

وكلامه في تصانيفه هيَّج الاعتناء له، ولا يشينه ضعف.

ومن كلامه: العلم بالله يكون باللفظ اليسير.. فأما اللفظ الكثير، فدليل على عدم العلم به.

وقال: المظلوم الذي لا يَظْلَم.. مُستجاب الدعوة.

وقال: لا تُبالغ في إفراط البشاشة والهشاشة؛ فإن ذلك من السَّخَف، كما أن قِلَّة الكلام من الكبر.

أبو الوفا البوزجاني^(١)

بلغ المحل الأعلى في الرياضيات والحساب، وكان حميد الأثر قانعاً بما عنده.

له عدة مؤلفات، منها:

المفاضلة: في الحساب.

تفسير كتاب الخوارزمي: في الجبر والمقالة..

المدخل إلى الأرثماطقي.

(١) محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل بن العباس، أبو الوفا البوزجاني وُلِدَ بـ«بوزجان»، بين هرة ونيسابور سنة ٣٢٨هـ، وتُوفي ببغداد عام ٣٨٨هـ: مهندس، فلكي، رياضي.

بطليموس الثاني، أبو علي بن الهيثم^(١)

كان عالماً بالرياضيات، والمعقولات، وتصانيفه أكثر من أن تُحصى.
وله في الأخلاق رسالة لطيفة ما سبقه بها أحد.

وصنّف كتاباً بيّن فيه الحيلة في أجزاء نيل مصر عند نقصانه في المزارع، وحمل
الكتاب وقصد القاهرة مصر، ونزل في خان.

فلما ألقى عصاه قيل له: إن صاحبَ مصير الملقّب بـ«الحاكم» على الباب
يطلبك.

فخرج ومعه كتابه.. وكان «أبو علي» قصير القامة.

وكان على باب الخان دكان، فصعد «أبو علي» على الدكان، ودفع الكتاب إلى
الخليفة.

(١) محمد بن الحسن بن الهيثم، أبو علي، ولد في البصرة (عام ٣٥٤ - وتوفي بالقاهرة عام ٤٣٠ هـ): مهندس، يلقب ببطليموس الثاني، له تصانيف في الهندسة، ارتحل إلى مصر في عصر
الخليفة الفاطمي «الحاكم بأمر الله».

وقد برع «ابن الهيثم» في دراسة العلوم الطبيعية، والفلسفية، والفلكية، والرياضية.

وهو أول من وضع نظرية صحيحة في البصريّات والضوء.

ومن مؤلفاته:

كتاب: المناظر.

تهذيب المجسطي.

حركة القمر.

وصاحب مصر راكبًا حمارًا مصريًا مع آلات مفضضة.

فلما نظر صاحب مصر في الكتاب قال له: أخطأت؛ فإن مؤنة هذه الحيلة أكثر من منافع الزرع.

فأمر بهدم الدكان، ومضى ... فخاف «أبو علي» على نفسه، وهرب حين جنَّ الليل، وأقام بالشام عند أمير من أمراء الشام، فأدرَّ عليه ذلك الأمير، وأجرى عليه أموالًا كثيرة.

فقال أبو علي: «يكفيني قوت يوم بيوم، ويكفيني جارية وخادم.. فما زاد على قوت يومي إن أمسكته كنت خازنك، وإن أنفقته كنت وكيلك، فإذا اشتغلت بهذين الأمرين، فمن الذي يشتغل بأمرى وعلمي».

فما قَبِلَ بعد ذلك إلا قوت يوم، ولباسًا متوسطًا.

وقيل: إن «الحاكم» كان له ميل إلى الحكمة، فسمع بفضيلة «أبي علي»، وكان يسكن الشام، وكان يشناق إليه.

وبلغه أيضًا أنه قال: لو كنت بمصر لعملت في النيل عملاً ينتفع به إذا نقص.

فاشتد اشتياقه إليه، وأنفذ له سرًّا شيئًا (من البر)، وسأله المسير إليه فسار.

ولما قرب «ابن الهيثم» من القاهرة، خرج «الحاكم» إلى لقائه، وأكرمه، وأنزله، وبرّه.. ثم طلب منه ما كان يقوله في معنى النيل.

فخرج ومعه جماعة من معاونين يزور ديار مصر حول النيل، فرأى آثار الأوائل من العمارات الهائلة، والهندسة المنيعة، ورأى الموضع الذي في الصعيد العالي في النيل.

وتحقق أن الذي تصوره كان فاسدًا لا يمكنه خروجه إلى الفعل، وأنه ليس أقدر على ذلك من الأوائل.. ولو كان ممكنًا لفعلوه.

فخجل من ذلك، واعتذر إلى «الحاكم» في ذلك.. فعذّره وولّاه بعض الدواوين.

ثم تحقق كون «الحاكم» سَفَاكًا للدماء بأضعف الأسباب، وخاف منه، وأظهر الجنون! فقيّده في داره، وأدخل ما له تحت الحجر.

فلم يزل كذلك حتى مات «الحاكم»، فأظهر العقل والتعفف، وانعزل قريبًا من الجامع.. إلى أن تُوفي.

وقد قصده من أمراء (سمنان)^(١) أمير يقال له: «سرجاب» متعلّمًا..

فقال له: أريد منك كل شهر مائة دينار أجرة.

فبذل له ذلك، وأقام عنده ثلاث سنين، فلما عزم الأمير على الانصراف، قال أبو علي: «خُذْ أموالك بأسرها فلا حاجة لي إليها، وأنت أحوج إليها مِنِّي عند عودتك إلى مقر ملكك، وإني قد جربتكَ بهذه الأجرة.

فلما علمت أنه لا خطر ولا موقع للمال عندك في طلب العلم، بذلت مجهودي في تعليمي وإرشادك.. واعلم أنه لا أجرة ولا رشوة ولا هدية في إقامة الخير».

ثم ودّعه، وانصرف.

وكان «أبو علي» متعبّدًا ورعًا، زاهدًا معظّمًا لأوامر الشريعة.

(١) سمنان: تقع بين الري، وأفغانستان.

وقال في بعض رسائله: تخيلنا أوضاعًا ملائمة للحركات السماوية، ولو تخيلنا أوضاعًا أخرى ملائمة أيضًا لتلك الحركات لما كان منعه مانع؛ لأنه لم يقم البرهان على أنه لا يمكن أن يكون سوى تلك الأوضاع أوضاعًا أخرى مناسبة لهذه الحركات، وطول الكلام وهي آخر تصانيفه.

وعرض له إسهال دموي، وكان كلما تناول شيئًا من القابضات قاء، فأيس من نفسه، ثم قال: ضاعت الهندسة، وبطلت المعالجة.. وعلم الطب، ولم يتبق إلا تسليم النفس إلى خالقها وبارئها.

ثم توجه إلى القبلة بعدما قاسى الإسهال أسبوعًا، وقال: «إليك المرجع والمصير.. ورب عليك توكلت وإليك أنيب».

ومات رحمه الله تعالى.

ومن كلامه: الإنسان مجبول على أن يتباعد ممن دنا منه، ويدنو ممن تباعد عنه. موعظة الحكماء، وإن قلت، منفعة عظيمة.

واعلم أن «ابن الهيثم»، و«الكندي»، و«الرازي» لهم المصنفات الكثيرة.

ولـ«ابن الهيثم» رسالة لطيفة يبين فيها أن جميع الأمور الدنيوية والأخروية.. هي نتاج العلوم الفلسفية.

أبو سهل الكوهي

رائد علم الروافع والأثقال

«ويجن بن رستم الكوهي، أبو سهل»، تُوفي حوالي (سنة ٣٩٠ هجرية).

مهندس، عالم بالهيئة وآلات الرصد، من أهل جبال طبرستان، ينسب إلى بلده.

كان في ابتداء أمره يلعب في الأسواق، فأدركته عناية أزلية.. فبرز في علم الحيل والأثقال، والأكر المتحركة، وصار مشارًا إليه..

وتعلم الأدب على كِبَر سنه، وصنّف الكتب، واختُلف إليه للاستفادة. وكان جميل الهيئة..

ومن كلامه:

- إن اعتذر إليك معتذر، فقابله بوجهٍ طلق، إلا أن تكون ممن قطيعته غُثم.

ومن مصنفاته:

- مراكز الأكر.. (لم يتمه).

- كتاب الأصول.. (وهو يُشبه كتاب إقليدس).

- رسالة في استخراج الطلع المسبع في الدائرة.. إلخ.

ابن أعلم بن غلام^(١)

هو بغدادى المنشأ والمولد.. وكان شريفاً من أولاد «جعفر الصادق»، وبه شرف، فصنّف الزيج المنسوب إليه.

واتفق المهندسون على أن زيجه أصح، وأقرب إلى التحقيق.. ولكنه ألقى زيجه بالماء، فلم يجد منه إلا نسخة سقيمة.

وكان عالماً بالهندسة وأجزائها، وعارفاً بالقانون الفيشاغوري من الموسيقى.

ومما نُقل عنه -إن أخلاقه كانت أخلاق المجانين- قوله: «كُنْ إِمَامًا مع الملوك مكرماً، وإِمَامًا مع الزُّهاد متعبداً -وهذا كلام رصين- حوله من الحكمة حصن حصين.. لكنه رمية من غير رام».

(١) هو علي بن الحسن العلوي البغدادي: «توفي عام ٣٧٥ هجرية» كان معاصراً لعضد الدولة بن بويه، وضع له زيجاً ظلَّ العمل به في زمانه، وبعده في القرن السابع للهجرة.

أبو الفرج علي بن الحسين بن هندو^(١)

كان أديبًا فاضلاً، حكيماً من تلامذة «أبي الخير بن سوار»، وله مصنفات كثيرة.

وذكر في كتاب (المفتاح) أن متكلّمًا في جوارنا صنّف كتابًا في إبطال علم الطب، وحثّ تلامذته على درسه. فعرض له صداع، فبحث بقسرية^(٢) إلى «أبي الخير» فقال «أبو الخير» لرسوله: قلّ له ضع تصنيفك بقسرية في إبطال علم الطب تحت وسادتك، فإنه لا حاجة لك إلى الطبيب والطب..

فما عاجله أحد من الأطباء، حتى اعترف ببطلان كلامه، ومزّق تصنيفه، وتاب.. ثم عاجلناه، وشفاه الله تعالى.

وقال «أبو الفرج»: قلت له يومًا:

قال صلى الله عليه وسلم: «العلمُ علّمان: علم الأبدان، وعلم الأديان».

(١) علي بن الحسين بن هندو، أبو الفرج، من التميزين في العلوم الحكيمة، والأمور الطبية، والفنون الأدبية، تتلمذ في الطب على يد «ابن الخمار».

ومن مؤلفاته:

المقال الموسومة بمفتاح الطب.

المقالة المشوقة في المدخل إلى علم الفلسفة.

الكلم الروحانية من الحكم اليونانية.. وغيرها.

تُوفي بجرجان عام ٤٢٠هـ.

(٢) بلد على ساحل بحر الشام تعدّ من أعمال فلسطين.

فقد علم الأبدان؛ لأن العبادات إنما تصدر عن صحة جسمه، وثبات عقله.

قال الله تعالى: {ولا على المريض حرج} [النور: ٦١].

وقال تعالى: {وإن كنتم مرضى} [النساء: ٤٣].

وقال تعالى: {فمن كان منكم مريضاً} [البقرة: ١٨٤].

ومعالجات النبي صلى الله عليه وسلم معروفة، وجمعها واحد من الأطباء، وصنّف منها كتاباً.. (فاستغفر المتكلم).

وقال: كان واحد من المتكلمين في جوارنا عَرَضَ له خِنَاقٌ.. فعُدَّتُهُ، فقال لي: ما ينفعني من طريق الطب؟

فقلت: ماء الشعير الفاتر مع ماء الرمان، زيت التوت، وحل الجوز، وماء الهندباء، مع فلولس الخيار وشنبر، وفصد القيصال.. وغير ذلك.

فقال: وما يضرني.

قلت: ما فيه حرارة.

فقال: كيف يكون العسل المصفى، والعصيدة التمرية؟

فقلت: نعوذ بالله... فيه هلاكك.

فقال لتلاميذه: إني أخاف رأي الأطباء عقيدة ومذهباً، ولا غُفر لي إن خالفت عقيدتي، وأطعت طيبياً.

فقممت من عنده، فتناول ذلك.. فمات قبل غروب الشمس.

وكتاب (المفتاح) نافع جدًا، وكان من كبار السيرة بالرأي.

ومن أقواله:

«كُنْ قَوِيًّا عِنْدَ الْجَدِّ، وَضَعِيفًا عَنِ الْهَزْلِ، وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ».

وله أشعار حسنة، وقال في الحثِّ على الحركة والسعي:

خليليَّ ليس الرأيُّ ما تَريَانِ	فشأنُكُمَا أَنِي ذَهَبْتُ لَشَأْنِي
خليليَّ لولا أَن في السَّعي رفعة	لَمَا كَانَ يَوْمًا يَدَأُبُّ الْمَرَانِي

وقال في النهي عن اتخاذ العيال، والأمر بالوحدة:

ما للمعيل والمعالي إِنَّمَا	يسمو إِلَيْهِنَّ الْوَحِيدُ الْفَارِدُ
فالشَّمْسُ تَجْتَابُ السَّمَاءَ فَرِيدَةً	وَأَبُو بَنَاتِ النَّعْشِ فِيهَا رَاكِدُ

وله، قالوا:

اشتغل عنهم يَوْمًا بغيرهم	وخادم النفس إن النفسَ تنخدع
قد صيغ قلبي على مقدار حُبهم	فما الحب لسواهم فيه متسع

وله في عزِّ الكمال:

فإذا رأيتَ الفضلَ قارنه الغنى	فاعلم بأن هناك نقصًا خافيًا
فإن الله أكمل قدرة من أن يُرى	لكماله ممن تراه ثانيًا

أبو سهل المسيحي^(١)

كان حكيماً استولى عليه الطب، وتصانيفه في الطب كثيرة مفيدة، وقد ارتبطه «خوارزم شاه» «مأمون بن محمد».

ومولد «أبي سهل» بجزجان، ونشأ وتعلم ببغداد، وصنّف لخزانة «خوارزم شاه» كتاباً لطيفاً في التعبير.

وكان نصراني الملة لا يحضر بيع النصارى، ويتعبد في منزله.

وكان يقول: كيف أعدل عن حكم «المسيح»، والنار نازلة في كنيسة القيامة في المسجد الأقصى؟

وقصة تلك النار.. إن الليلة التي رُفِعَ فيها «المسيح» إلى السماء ليلة النصف من نيسان.

(١) أبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجاني، ولد بجزجان، وتعلم ببغداد.. حسن الخط متين العربية، تتلمذ على يد «حنين بن إسحاق» في الترجمة والنقل إلى العربية، وهو حكيم طبيب منطقي فاضل، عالم بعلوم الأوائل.. مذكور في بلده.

له العديد من المؤلفات منها:

الكتب المائة في الصناعة الطبية.

الطب الكلي.

أصول الطب.

مقالة في الجدري.

توفي سنة ٤٠١ هجرية.

وفي هذه الليلة في كل سنة ينزل نار من الأثير بحيث يراها الناس، وتُشعل قناديل القيامة من غير أن تكون كوة، ولا فرجة في سقف ذلك البيت.. بل تقوم النار في سقف البيت من غير أن تحرق الخشب، ثم توقد الشُّرج والمشاعل.

فإذا طلع الفجر.. انطفأت.

وقد صنّف «يحيى بن عدي» كتاباً يُبين الأمر الطبيعي في ذلك.

أبو زكريا يحيى بن عدي^(١)

كان حكيماً كاملاً من أفضل تلامذة «أبي نصر».

وله تصانيف كثيرة... وشرح كتب «أرسطو»، ولخصّ مصنفات «أبي نصر».

قال: ينبغي أن يصفو اللفظ الذي يجرد نحو الأشياء الأول التي هي كثيرة بالأسماء، والنعوت عند الاستعمال.

فواحدة بالحقائق والذوات.. فإن هذا النظر إذا صفا، وتم.. كفى مؤنة عظيمة، وكان أمراً عزيزاً.

وكان كثير الاشتغال والتحقيق والتصنيف والبحث، لا يستريح ليلًا ولا نهارًا، وكان يسكن بغداد، ومات بها.

(١) يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا، أبو زكريا المنطقي «٢٨٠-٣٦٤هـ» فيلسوف، حكيم.. انتهت إليه الرئاسة في علم المنطق في عصره.. قرأ على أبي بشر متى، وعلى الفارابي. وكان من النصارى البعقوبية، وقد عمل بالنقل، فقد كان عارفاً باللغتين: السريانية والعربية. وله العديد من الكتب، منها: تهذيب الأخلاق، مقالة في الموجودات، تفسير كتاب الطويقا لأرسطوطاليس، مقالة في أهمية صناعة المنطق وماهيتها وأوليئها.

بهمن يار بن المرزبان^(١)

تلميذ «أبي علي»، كان مجوسي الملة، غير ماهر في كلام العرب.
 وكان من بلاد (أذربيجان)، والمباحث التي «لأبي علي» أكثرها مسائل
 «بهمن يار».

وكان يبحث عن غوامض المشكلات.

ومن كلامه: العقل أنيس في الغربية.

قال: اللذات العقلية شفاء لا يعقبها داء، وصحة لا يلزمها سقم.

ومن تعلم العلوم العقلية، ولم يتخلق بأخلاق أربابها.. كان جاهلاً
 بحقائق العلوم.

كل حكيم طلب زيادة على حاجته من المال، فليس له علم الحكمة،
 وليس له ذوقها.. واعلم أنه لا بد من المقدور.

ومات بعد موت «أبي علي» بثلاثين سنة.

(١) بهمن يار بن المرزبان الأذربيجاني، أبو الحسن «توفي عام ٤٥٨ هجرية»، من أشهر تلاميذ
 «ابن سينا» كان مجوسياً، وأسلم وكان يجيد الفارسية ولا يجيد العربية، ومن أهم مصنفاته: كتاب
 «التحصيل»، وكتاب «البهجة» في الإلهيات، وكتاب في إثبات العقول الفعالة، وإثبات النفوس
 السامية.

أبو منصور الحسين بن طاهر بن زيلة^(١)

أصفهاني الأصل والمولد، من خواص تلامذة «أبي علي»، ومن بطانته.

وقيل: كان مجوسي الملة، ولم يتحقق ذلك.

وكان عالماً بالرياضيات، ماهراً في صناعة الموسيقى، وله اختصار

لطبيعات الشفاء، وشرح رسالة «حي بن يقظان».

وكان قصير العمر.. مات في (سنة أربعين وأربعمائة) بعد موت «أبي علي»

بأثني عشرة سنة.

ومن كلامه: «لا تفكر في الأمور المستقبلية؛ فإنك لا تدري ما يأتيك منها،

وما لا يأتيك».

(١) الحسين بن محمد - أو ابن طاهر - ابن زيلة، أبو منصور «توفي سنة ٤٤٠ هجرية»، حكيم،

عالم بالرياضيات، ماهر في الموسيقى، عارف في الأدب، حسن الإنشاء أخذ عن «ابن سينا».

من مؤلفاته: «الاختصار» من طبيعات الشفاء، شرح حي بن يقظان، كتاب: «في النفس»،

«الكافي» في الموسيقى.

أبو عبيد عبد الواحد الجوزجاني الفقيه^(١)

كان من خواص «أبي علي» وندمائه وخدمه، وهو الذي أعان «أبا علي» على جمع كتاب الشفاء، وفسّر مشكلاته، وفسّر مشكلات القانون، وشرح رسالة (حي بن يقظان).

ولم يجد في تلامذة «أبي علي» أقل بضاعة منه.

وقيل: كان في مجلس «أبي علي» شبه مريد، لا شبه تلميذ مستفيد.

ومن كلامه: «معرفة الإنسان وعجزه عن كمال الله تعالى: غاية علم الإنسان، وتلك معرفة برهانية».

(١) أبو عبيد الله عبد الواحد بن محمد الجوزجاني «توفي عام ٤٣٨ هجرية» أحد تلاميذ «ابن سينا» سجل شيئاً كثيراً من سيرة أستاذه «ابن سينا»، وأعانته في بعض المسائل وتوفي بهمدان.

أبو عبد الله المعصومي^(١)

كان أفضل تلامذة «أبي علي»، وصنّف له رسالة في العشق، ولما اعترض «أبو ريجان» على أسئلة «أبي علي»، وأساء الأدب.. امتنع من مناظرته.

فأجاب «المعصومي» عن اعتراضات «أبي ريجان».

وقال: لو اخترت يا أبا ريجان لمخاطبة الحكيم ألفاظاً غير تلك الألفاظ، كان أليق بالعقل والعلم.

وصنّف «المعصومي» كتاباً في النيرنجات، وإعداد العقول والأفلاك، وترتيب المبدعات.. وكانت في الخزانة النظامية بنيسابور منها نسخة، فأخذ حمّال الملك من نظام الملك، ولا يُدرى أطارت بها العنقاء، أم أدركها الفناء، وكان هذا الكتاب معشوق كافة الحكماء.

وكان «أبو علي» يقول: هو منّي بمنزلة «أرسطو» من «أفلاطون».

وقتله «محمود بن سبكتكين» فيمن قتل من الحكماء لجهله.

ومن أشعاره قوله:

حديث ذوى الألباب أهوى	كما يشتهي الماء المبرّد شاربهُ
وأفرح أن ألقاهم في يديهم	كما يفرح المرء الذى آب غايبه

(١) محمد بن عبد الله بن أحمد المعصومي، أبو عبد الله «توفي نحو عام ٤٦٠ هجرية»: حكيم من

تلاميذ «ابن سينا».

أبو الحسن الأنباري^(١)

كان حكيماً، والغالب عليه الهندسة، وكان «عمر الخيامي» يستفيد منه، وهو يقرر له المجسطي^(٢).

فقال بعض الفقهاء يوماً للأنباري: ما تدرس؟

فقال: أفسر آية من كتاب الله تعالى.

فقال الفقيه: وما تلك الآية؟

فقال الأنباري: قوله تعالى: {أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها} [ق: ٦].. فأنا أفسر كيفية بنيناها؟

(١) محمد بن إبراهيم عبد الكريم بن رفاعه الشيباني، المعروف بابن الأنباري (سديد الدولة) (٤٧٢ - ٥٥٨ هـ) من الكتاب والوزراء.. أقام بديوان الإنشاء خمسين سنة، ونفذ رسولاً إلى ملوك الشام.

(٢) كتاب في علم الهيئة، والنجوم، وحركات الكواكب والأفلاك في ثلاث عشرة مقالة، وأول من اعتنى بترجمته إلى العربية وتفسيره «يحيى بن خالد بن برمك» المتوفى عام ٩١٠ هـ.

إسماعيل الهروي^(١)

كان حكيماً أديباً فاضلاً، له أشعار وتصانيف في الحكمة.
 وكان يدرس كتب «أبي نصر»، ولا يخوض في تصانيف «أبي علي».
 وله تلامذة حكماء فضلاء.. يأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى.
 وتشاجر يوماً مع خطيب هراة، فقال له: أنا أدعو عليك بين الخطبتين.
 فقال له: تيقنت أنه لا استجابة لدعوتك؛ لأنك تقول كل جمعة: أصلح
 الله الأمير.. والله ما أصلحه.

(١) قيل: هو عبد المجيد بن إسماعيل بن محمد القيسي الهروي، توفي عام ٥٣٧هـ: قاضي بلاد الروم، من فقهاء الحنفية، وقيل: هو إسماعيل الهروي الخراساني، ولم تضاف كتب التراجم شيئاً أكثر مما ذكرنا..

ميمون بن النجيب الواسطي

كان طبيبًا فاضلاً حكيمًا.. وسمعتُ أنه كان يحفظ المنطق، والطبيعيات،
والإلهيات من الشفاء.

وقلما كان يخالط أرباب الجاه والمال، وكان عاهل «هراة» ظهير الملك «علي
البيهقي» يشناق إليه.

وكان يتعزز عليه... فإذا مرض «الظهير»، أو أحد من أولاده... أنزل
الأتراك في داره حتى أزعجوه، وصيروه مضطراً إلى دفع المال إلى العامل.

فعند ذلك يرتبطه «ظهير الملك» حتى يعالج مرضه، ويجالسه مدة.

وقيل: كان واسطي الأصل، جوزي المولد مقيماً بهراة.

أبو الفتح كوشك^(١)

كان حكيماً، صاحب خاطر قوي.. وكانت كتبه في خزانة السلطان «سنجر».

وكان السلطان شغوفاً بكتبه بسبب حُسن الاعتقاد فيه، وكان عارفاً بأجزاء علوم الحكمة، وحكي أنه كان بناحية «بيهق» علوي متكلم، وكان أصله من (نيسابور)، وكان يحفظ ظواهر علم الكلام فحسب.

فدخل يوماً على الحكيم «أبي الفتح»، والحكيم يتخيل أنه من حُذاق «بيهق» وفضلائها، فاستنطقه «أبو الفتح» فقرأ بطريقة المطاوعة، فضلاً من ظواهر الكلام، وأعاده ثلاث مرات، كما يكرر المسائل في المدارس.

فعلم «الحكيم» قلة بضاعته ومرتبته، فقال له: يا سيد.. بِمَ عرفت أنك إنسان.

فقال: لم أقرأ هذا في كتابي.

فضحك الحاضرون، وخرج السيد وقال: هذا الحكيم يسألني عن غوامض المخروطات، ويقول: بِمَ عرفت أنك إنسان، وأما متكلم لا علم لي بالمخروطات.

وقال له بعض الناس: ولا بالمبسوطات يا سيد.

(١) هو أبو الفتح الكراجكي «المتوفى عام ٤٤٩ هجرية»: لغوي، متكلم، منجّم، طبيب.

أبو سهل النيلي النيسابوري^(١)

كان حكيماً فاضلاً، الغالب عليه علم الطب، وشرح مسائل (حنين) في مجلدات، عارفاً بأجزاء علوم المعقولات.

ومن شعره:

يا من تكلف إخفاء جَلَدًا إن التكلف يأتي دونه الكلف
وللمحب لسانٌ في ضمائره بما يحسن من الأهواء يعترف

(١) سعيد بن عبد العزيز بن عبد الله النيلي أبو سهل (٣٥٣-٤٢٠هـ): حكيم، عالم بالطب والمعقولات، شاعر، أديب، والنيلي، نسبة إلى تجارة النيل وصناعته.

أبو القسم الحسن بن الفضل الراغب^(١)

كان من حكماء الإسلام، وهو الذي جمع بين الشريعة والحكمة في تصانيفه.

وله تصانيف كثيرة، منها: «غرة التزويل ودُرّة التأويل»، وكان حظه من المعقولات أكثر.

(١) الحسين بن محمد بن الفضل، المعروف بالراغب الأصفهاني، (أو الأصبهاني) أبو القاسم المتوفى سنة ٥٠٢ هجرية: أديب لغوي من الحكماء العلماء من أهل (أصبهان)، من تصانيفه: تحقيق البيان في تأويل القرآن، أو غرة التزويل ودرة التأويل، والذريعة إلى مكارم الشريعة، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء، ومفردات ألفاظ القرآن، وتفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين.

أبو القسم عبد الرحمن بن أبي صادق^(١)

نال من الحكمة وأجزائها مرتبة عظيمة، وخصوصًا في الطب، وكان حسن الشئائل، نيسابوري الأصل والميلاد، وهو الملقب: بسقراط الثاني.

وقيل: انتقل في آخر عمره إلى بعض منتزهات نيسابور بقرية، ولزم مكانه واختار الانزواء.. فدخل بعض الناس عليه وبين يديه أطباق من الفواكه، فقال لهم: إنه لا فرق عندي بين هذه الأطباق والفواكه، فإن الفواكه تضرني، فقنعت منها بالرائحة وبطيب الهواء..

فلا أشتهي تناول هذه الفواكه، وأرحت نفسي منها، ودفع مضارها.. فإن المضرة ربما تنتهي على حدٍّ لا يدفع.

وكان حسن المعيشة، فأصاب عميد خراسان «محمد بن منصور» قولنج أعيا دواه كل طيب، فبعث إليه مركوبه وغلماؤه، وكلفه المسير إليه، والشمس في أول درجة من السرطان، وبين القرية وبين نيسابور اثنا عشر فرسخًا... فأذاه الحر، وسرعة الحركة، وجماع ذلك المركب والعطش.

فقال لمن معه من تلامذته: نجا عميد خراسان، وهلك أنا.

وكان كما قال... ثم عاجله، فصَحَّ.

(١) عبد الرحمن بن علي بن أحمد بن الصادق، أبو القاسم النيسابوري، «توفي نحو ٤٧٠ هـ جرية» حكيم، من الأطباء، يلقب بسقراط الثاني، له تصانيف في شرح مسائل «حنين» وشرح فصول أبقراط.

ومرض «أبو القسم» وسقطت قوته، وقد نيف على الثمانين.. وقضى نحبه.

وقيل: إن السلطان بعث إليه خواصه، ودعاه إلى خدمته.

فقال: القنوع بما عنده لا يصلح بخدمة السلطان، ومن أكره على الخدمة، لا ينفع بخدمته كالبازي الذي يُكره على الصيد.

وبعث إليه سلطان غزنة «إبراهيم» مالا عظيما مع المحفة ذي المركب، ودعاه إلى حضرته بلطائف.

فقال: السلطان، يطلبني لعلمي، فأنفق عليّ ماله لأنفق عليه علمي.. وهذا بيع وشراء، والعلم لا يُشترى ولا يُباع.. ومالي حاجة إلى قبول تلك الأموال، وإفاضة علمي على أهل بلدي أولى.. فأنا أدعو للسلطان بالخير، وأريح نفسي من رقّ المنّة.

ومن كلامه: الطبيب الحقيقي من عالج بالفضائل نفسه، ورأى مضراته في الرزائل.. ثم يهبط بعد ذلك إلى معالجة الأجسام، فمن لا يهبط من معالجة النفس إلى معالجة الجسد - فهو في أسفل السافلين.

وقيل: إنه أدرك «أبا علي بن سينا» واستفاد منه.

الأستاذ المختص أبو الحسن علي النسوي^(١)

كان من حكماء الرأي، وله الزيج الفاخر.. وكان حكيماً فاضلاً، مهندساً،
ذا أخلاق رضية.

وقربَ عمره من مائة سنة، وقوّاه سليمة.. إلا أن الضعف منعه عن المشي
في الأسواق، فلزمه بيته.

وقيل: كان من تلامذة «كوشيار»^(٢)، و«أبي معشر»، وفيه نظر.. إلا أنه
كان من المعمرين.

ومن كلامه: بالهمة العلية الصادقة ينال المرء مطلوبه، لا بالكدّ.

وكان يقول: لتلامذته: كونوا كأصحاب الصنائع، ولا تكونوا ذواقين،
فإن الذواق لا يشبع.

(١) علي بن أحمد، أبو الحسن النسوي، «توفي نحو ٤٢٠ هجرية»: رياضي فلكي، من أهل (نسا) بخراسان.. من مصنفاته: التجريد في أصول الهندسة.

(٢) كوشيار بن لبنان الجيلي، أبو الحسن «توفي عام ٣٥٠ هـ»: مهندس، فلكي، من العلماء.

عضد الدنيا والدين: ملك زد

كان ملكًا عادلاً، وله كتاب سماء: «مهجة التوحيد».

وكان يذبُّ عن رأي «أبي البركات»، ويقرر قوله في عالم مسألة العالمية.

وكان متخلِّقًا بأخلاق الحكماء.

وقال يوماً للخيامي: ما تقول في اعتراضات «أبي البركات» على «أبي

علي»؟

فقال الخيامي: إنه لم يفهم كلام «أبي علي»، وليست له رتبة الإدراك

لكلامه، فكيف يكون له رتبة الاعتراض؟

فقال له الملك علاء الدولة: من المستحيل أن يكون حدسي أقوى من

حدس «أبي علي»، أم من الممكن.

فقال الخيامي: ليس من المستحيل.

فقال له الملك: شأنك عند غيرك، أنت تقول: ليست له رتبة الإدراك

والاعتراض، وغلامي «الدوائي» يقول: له رتبة الإدراك والاعتراض

والزيادة.. فتكلم بما يزيد به كلامك على كلام مملوك، ولا تمل على سفاهة

غلامي (فهو) أقدر عليها منك، فتشوش الخيامي.

فقال له الملك: الحكيم يهجن كلام غيره بالبرهان، والجدل، لا بالسفه،

وبالوقية، والبُهتان.. فاطلب أعلى الدرجتين، ولا تقنع بأخس الرذيلتين.

فقام «الخيامي» ملجئًا بالسكوت.

ومن كلامه في (مهجة التوحيد) مَنْ لَا يَكْمَلُ فِي صِنَاعَتِهِ الَّتِي تَلِيْقُ بِهِ،
فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَطْلُبَ صِنَاعَةَ أُخْرَى، فَمَنْ رَضِيَ بِالنَّقْصِ وَالنَّقْصَانِ، صَارَ
مَحْجُوبًا عَنْ نَيْلِ الْكَمَالِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ.

أحمد بن الطيب السرخسي أبو العباس^(١)

من تسمى إلى الكندي، وعليه قرأ.. وكان ماهراً في علوم كثيرة من علوم الفقهاء والعرب.

كان جني المقال، جيد القريحة، بليغ اللسان، مليح التصنيف، فاضلاً في النحو والشعر.

وكان حسن العشرة، مليح القدرة، ضليعاً، ظريفاً.

وسمع الحديث، فمن سماعه قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا اكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، فعليهم الديات».

وقوله صلى الله عليه وسلم: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة: من يسب نبياً، أو أصحابه، أو أئمة المسلمين».

وتولى الحسبة ببغداد أيام «المعتضد»، ثم نادمه وخصّته، وكان يفضي إليه بأسراره، ويستشير في أمور مملكته.

وكان الغالب على «أحمد» علمه، لا اعتقاده.

وسبب قتله: أنه أفضى إليه سرّاً في أمر «القسم بن عبد الله»، فبَدَرَ غلام «المعتضد»، فأفشاه بحيلة من «القسم» عليه، فسلمه «المعتضد» لفتح أمد.

(١) أحمد بن محمد بن مروان الطيب السرخسي، أبو العباس «توفي عام ٢٨٦ هجرية» من أكتب أهل زمانه، ومن أوفرهم أدباً، تلميذ الكندي، وكان من المتبحرين في علوم الفلسفة، وله كثير من المؤلفات.

وقال «أحمد بن عيسى»: أفلت من جماعة من المطامير^(١) من الخوارج وغيرهم.

وأقام «أحمد» في الحبس رجاء السلامة، فكان قعوده سبباً لمنيته.

فأمر «المعتضد» القيم بإثبات من يجب قتله؛ ليستريح من تعليق القلب بهم فأسهم.

ووقع «المعتضد» بقتلهم، فقتل، وسأل عنه «المعتضد»؟ فأخبر بقتله.. فلم يغضب.

(١) المطامير. السجون- والكلمة: جمع مظمورة، وهي حفرة تحت الأرض؛ لتخزين الطعام أو المال.

عمر الخيامي^(١)

نيسابوري الآباء والميلاد، وكان تلو «أبي علي» في أجزاء علوم الحكمة، إلا أنه كان سيع الخلق، ضيق الفطن.

وقد تأمل كتاباً بأصفهان سبع مرات، فحظه، وعاد إلى (نيسابور) فأملاه.. فقبول بنسخة الأصل، فلم يجد بينهما كثير تفاوت.

وله ضنة بالتصنيف والتعليم.. وله مختصر في الطبيعيات، ورسالة في الوجود، ورسالة في الكون، والتكليف، وكان عالماً باللغة والفقه، والتواريخ.

ودخل «الخيام» على الوزير «عبد الرزاق»، وكان عنده إمام القراء «أبو الحسن الغزالي»، وكانا يتكلمان في اختلاف القراء في آية، فقال الوزير: على الخبير سقطنا، فسأل عنها «الخيام»؟ فذكر اختلاف القراء وعلل كل واحد منها.

وذكر الشواذ وعللها، وفضل وجهًا واحدًا.

فقال «الغزالي»: كثر الله في العلماء مثلك؛ فإني ما ظننت أن أحدًا يحفظ من القراء، فضلًا عن واحدٍ من الحكماء.

(١) عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوي، أبو الفتح «توفي عام ٥١٥ هـ»: شاعر، فيلسوف فارسي، مستعرب، من أهل نيسابور، مولدًا، ووفاء ودعاه السلطان «ملكشاه» وطلب منه القيام بتعديل التقويم السنوي، فأنجزه، ونجح في ذلك.. ومن مؤلفاته كتاب (الزيج) كان عالماً بالرياضيات، والفلك، واللغة، والفقه والتاريخ.. له ديوان شعر أيضًا.

وأما أجزاء الحكمة من الرياضيات والمعقولات، فكان «ابن نجدتها».

ودخل حجة الإسلام «الغزالي» عليه يومًا، فسأله عن تعيين جزء من أجزاء الفلك للقبطية، دون غيرها مع كونه متناسب الأجزاء؟

فطَوَّل «الخيامي» الكلام، وابتدأ من: أن الحركة من مقولة كذا، وضمَّن بالخصوص في محل النزاع.

وكان من دأبه ذلك الشُّحُّ المطاع، حتى أذَّن الظُّهر، فقال «الغزالي»: جاء الحقُّ، وزهق الباطل.

وقام ودخل على السلطان «سنجر» وهو صبي وقد أصابه جذري، فلما خرج سأله الوزير: كيف رأيته؟ وبأي شيء عالجته؟ فقال: عمر الصبي مخوفٌ.

فرفع خادم حبشي ذلك إلى السلطان.. فلما برأ السلطان بغضه، وكان لا يحبه.

وكان «ملك شاه» ينزله منزلة الندماء، «الخاقان شمس الملوك» بخارا يعظِّمه غاية التعظيم، ويجلسه معه على سريره.

وحكي أنه كان يتحلَّى بخلال من ذهب، وكان يتأمل الإلهيات من الشفاء.

فلما وصل إلى فصل الواحد والكثير، وضع الخلال بين الورقتين.. وقام وصلى، وأوصى.

ولم يأكل، ولم يشرب... فلما صلى العشاء الآخرة سجد، وكان يقول في

سجوده: «اللهم إنك تعلم أني عرفتك على مبلغ إمكاني فاغفر لي فيا، معرفتي
إياك وسيلتي إليك».

ومات رحمه الله تعالى، وله أشعار حسنة بالعربية والفارسية، منها:

تدين لي الدنيا بل السبعة العلى	بل الفلك الأعلى إذا جاش
أصوم عن الفحشاء جهراً وخيفة	عفاً وإطاري بتقديسن فاطري
وكم عُصبة ضلت عن الحق	لطرق الهدى عن فيض المتقاطر
لأن صراطى المستقيم بصائر	نصبني على وادي العمى كالقناطر

وقال أيضاً:

إذا أقنعت نفسي بميسور بُلغة	يحصّلها الكد كفى وساعدي
آمنتُ تصاريف الحوادث كلها	فكن يا زماني موعدي أو مواعدي
وهبني اتخذت الشعر بين منازل	وقوف مناط الفرقدين مصاعدي
أليس قضى الرحمن في حكمه بأن	يعيد إلى نحس جيم المساعد
إذا كان محصول الحياة منية	فسيان حالاً كل مساعد وقاعد
متى ما دنت دنياك كانت قضية	فما عجبني عن القريب المباعدي

وقال:

رحبتُ دهرًا طويلاً في التماس أخ	يرعى ودادي إذا ذو خُلّة خاناً
فكم ألفتُ وكم آخيت غير أخ	وكم تبدلتُ بالإخوان إخواناً
وقلت للنفس لما عَزَّ مطلبها	بالله لا تألفي ما عشتُ إنساناً

وقال:

أظلت رياح الطارقات رواكدا	أم انطبقت منها الجنون رواقدا
تحللت الأفلاك أم رأيت دورها	فصرن حيارى قد ضلن المرشدا
كأن النجوم السائرات توقفت	عن سير حتى ما بلغن المقاصدا
فقى قلب بهرام وجيب وروعة	وكيوان أعشى ليس يرعى المراصدا
لذاك تمادت دولة اللؤم وانبرت	بنو التُّرك يبغون السماء مصاعدا

وله:

ولو أعطاني الدهر اختياري	بحب السر منى والطوية
لسرت على جفوني كى أرجى	لدى مغناك من عمرى البقية

وإذا عُدَّ حكماء خراسان «فالحيام» أزخرهم بحرًا، وأرفعهم قدرًا
وأطولهم في الرياضيات باعًا، وأمدَّهم في الحسابيات أنفاسًا.

وستل في الحمام عن معنى «المعوذتين»، وتكرار بعض ألفاظها؟

فسرد نحو مجلد في علم لم يبعث فيه نفسه.. فما ظنك بالحكمة التي أفنى
فيها عمره.

أبو المعالي عبد الله بن محمد المانجي^(١)

المعروف بعين القضاة..

كان من تلامذة «الخيامي»، وتلامذة «أحمد الغزالي»^(٢)، وخلط كلام الصوفية بكلام الحكماء، فُصِّلَ بسبب عداوة كانت بينه وبين الوزير «أبي القسم الإستربادي»، وسبب قتل عين القضاة: أنه كان يُسمي الله تعالى بأسماء اصطلحت عليها الفلاسفة، مثل: «واجب الوجود» وغيره.

فأنكر عليه بديع المتكلم «الهمذاني»، وقال: إن أسامي الله تعالى توقيفية، فصنَّف عين القضاة رسالة، وذكر فيها أن الله سبحانه وتعالى معشوقه، أسميه أي اسم أريده.

وقال:

يا أهو أفتاده بدامت سر وسهى وماه تمامت خواتم

(١) هو عبد الله بن محمد بن علي بن الحسن بن علي الميانجي، السهروردي الهمذاني، ويعرف بعين القضاة (أبو المعالي) ت ٥٢٥ هـ ١١٣١ م، حكيم فقيه، شاعر، صوفي، أخذ من عمر الخيام، وأحمد الغزالي، وصلب بهمدان، من تصانيفه: زبدة الحقائق (خلط فيه كلام الصوفية بكلام الحكماء) مدار العيوب في التصوف، الرسالة الميمينة.

(٢) هو أحمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي مجد الدين، شقيق حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، وكان فقيهاً وواعظاً، درس بالنظامية عن أخيه لما ترك التدريس، واختصر كتاب الإحياء في مجلد سماه «الباب الإحياء»، وله «الذخيرة في علم البصيرة»، وكان يميل للانقطاع والعزلة ت ٥٢٠ هـ.

كز رشك نخو اھم كه منامت خواتم زين هرسة تكوى كه

فلما وصلت الرسالة إلى «البديع» أغرى العوام، حتى قتلوه رحمه الله عليه
من شهيد.

أبو حاتم المظفر الإسفزازي^(١)

كان حكيماً معاصراً للخيامي، وبينهما مناظرات.. و«المظفر» عنه بعيد.
والغالب على «المظفر» علم الهيئة والأثقال، وكان رءوفاً بالمستفيدين على
خلاف طبيعة الخيامي.
وله تصانيف كثيرة في: الرياضيات، والآثار العلوية، وهو الذي عمل
ميزان «أرشميدس» الذي يُعرف به الغش والعيار.
وصرف عمره في ذلك فخاف خازن السلطان - وهو نُحْص باسمه سعادة
الخازن - ظهور خيانتة في الخزانة بسبب هذا الميزان.. فكسره، وفتّت أجزائه.
فلما سمع «المظفر»: ومات أسفاً.
ومن كلامه: نسبة اللذة الحسية إلى اللذة العقلية، كنسبة المتنسم إلى
المتطعم.

(١) هو (أبو حاتم) المظفر بن إسماعيل الإسفزازي (نسبة إلى إسفزار، مدينة بين هراء
ومجستان) كان حكيماً رياضياً نشأ بمدينة إسفزار، واشتغل بالعلوم الرياضية وبالفلك، وكان
معاصراً لعمر الخيام، وله تصانيف كثيرة في الرياضيات، والآثار العلوية منها: إرشاد ذوي
العرفان إلى صناعة القبان، واختصار أصول إقليدس في الهندسة، ومقدمة في المساحة، وتوفي
حوالي عام ٤٨٠ هـ.

أبو العباس اللوكري^(١)

كان تلميذ لبهمن يار، ومنه انتشرت علوم الحكمة بخراسان.

وكان عالماً بأجزاء علوم الحكمة: دقيقةا وجليلها.

وعمي في شيخوخته، وكان من أرباب البيوت بكورة مرو، وله ديوان شعر.

وكان يقول في آخر عمره: يَأْسْتُ من زيادة علمي ومعرفتي، فلا زيادة لي على ما حصلت، وصرتُ عاجزاً بسبب الضعف وعدم البصر، واشتقت إلى العُقبى.

وكان يقول ذلك غير مرة، حتى ظهر لمن حوله شدة شوقه إلى الآخرة، فاتفق أنه تناول يوماً (الرأس المشوي).

ودعاه بعض تلامذته إلى الحمام، وكان ذلك سبب مرض موته، وكان بعض تلامذته يعالجه وهو يقول: خَلَّنِي ورَبِّي، فإن شفاني فله الأمر.. وإن أَمَاتَنِي فله الحكم، فإِما لا أختار إلا ما أختاره الله تعالى، وشعره متين.

(١) هو أبو العباسي الفضل بن محمد اللوكري، نسبة إلى لوكر (بالفتح، ثم السكون، وفتح الكاف والراء) وهي قرية كانت كبيرة على نهر مرو، واللوكري كان تلميذ لبهمن يار، وبهمن يار تلميذ أبي علي بن سينا، ومن حكمه: «العلم يعلي الهمة، ويفيد المحاسن، ويبسط اللسان، وقد أحسن إليك من لا يسيء الظن بك، ومن مؤلفاته: بيان الحق وضمان الصدق، وله قصيدة شعر مع شرح بالفارسية، وديوان شعر بالعربية».

السيد محمد بن الإيلاقي^(١)

اجتمعت فيه الفضائل بأسرها: العلمية والعملية، وله تصانيف كثيرة.

وكان مصنفًا، مباركًا حسن المعالجة.

وكان مقيمًا بباخرز^(٢)، ثم ارتبطه «علاء الدين بن القماح» ببلخ، وقُتل في مصاف (كوزخان)، وهو من تلامذة «أبي علي بن سينا»، وقيل: من تلامذة «الخيام».

ويصحح ذلك بمعرفة تاريخ علاء الدين بن القماح.

(١) هو السيد أبو عبد الله محمد بن يوسف شرف الدين، خبير بصناعة الطب والعلوم الحكيمة، وقد اختصر كتاب القانون لابن سينا، ومن تأليفه كتاب: «الأسباب والعلاقات»، والفصول الإيلاقية.

(٢) وهي ناحية من نواحي نيسابور مشتملة على قرى ومزارع.

القاضي زين الدين بن سهلان الساوي^(١)

سرد الشريعة والحكمة في نظام، وترك قضاء بلده (ساوة)^(٢)، فآثر العزلة على الصحبة، واختار العطلة على الشغل، وتوطن بنيسابور، وتعلم بها. وكان يأكل من كسب يده، ويرتزق بالنسخ، ويبيع كل نسخة من كتاب الشفاء بمائة دينار من خطه.

- من أقواله:

وقال: أشكل عليّ من المقالة العاشرة من «إقليدس»، فنمت فرأيتُ في المنام شيخاً قيل: إنه «إقليدس النجار» فسألته عن الشكل؟ فقال لي: عد إلى شكل كذا.. فلما انتبهت، صليت وتأملت الشكل فأنحلتُ معي. وله تصانيف كثيرة، أحرقت مع بقية كتبه بساوة.

وقال الظهير البيهقي: كنت اختلفت إليه، فأراه بحرًا موجًا.

قال: وكتب إليّ في رسالة: كن في الزمرة المنسلخين عن جلدة النسب والألقاب، الواضعين عن أكتافهم أوزار الأعقاب، النافضين عن أحوالهم

(١) وهو زين العابدين عمر بن سهلان، يعرف بالقاضي الساوي، من أهل ساوة (بين الري وهمدان) وينسب إلى الفلسفة أكثر من غيرها من الفنون، ومن مصنفاته: «البصائر النصيرية» ورسالة في المنطق، وأخرى في الحساب، ورسالة الطير، وقد أحرقت هذه المصنفات بعد وفاته في حدود ٤٥٠ هـ.

(٢) وهي تقع بين الري وهمدان، وبين ساوة وقم، وكان بها الأسواق الحسنة، وهي صالحة ولكن خربها التتار، وأحرقوا الكتب التي بها، وينسب إليها طائفة من أهل العلم.

عشرة الدهور والأحقاب... فهذه عادة: {قد أفلح من زكاها* وخاب من دساها} [الشمس: ٩، ١٠].

من لم يخف الله، خاف من كل أحد... ومن خاف الله لم يخف من أحد، وخافه كل أحد.

أبو الصلت «أمية بن أبي الصلت»^(١)

من جملة المتقدمين في الحكمة والفلسفة.. وله شعر رقيق وهو من مصر. وكان عالماً وأديباً وحكيماً..

وله من الكتب: «الأدوية المفردة»، و«حديقة الأدب»، و«ديوان شعر»، و«الوجيز في علم الهيئة»، و«رسالة في الموسيقى».

(١) هو أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي الداني عاش من ٤٦٠م إلى ٥٢٩ هـ - ١٠٦٨-١١٣٥م، ولد بدانية من بلاد شرقي الأندلس، وأقام بإشبيلية عشرين سنة، كما أقام بالـ قاهرة والإسكندرية، ثم عاد إلى المغرب، وتوفي بالمهدية في بلاد القيروان.

أسعد الميهني^(١)

كان مدرسًا بنظامية بغداد، ومحظوظًا في دار الخلافة... وكلما حضر دار
الخلافة خرج التوقيع الاسمي: رفع إلينا حضور «أسعد الميهني».
وكان من تلامذة «اللوكري»، وله رسالة إلى «ابن سهلان»، فيها خذلان
الأعوان: عار، ومواساتهم: فضيلة:

(١) هو أبو الفتح أسعد بن أبي نصر بن أبي الفضل الميهني، فقيه شافعي، يلقب بمجد الدين، كان
إمامًا مبرزًا في الفقه، والخلاف، وله تعليقة مشهورة، تولى التدريس بنظامية بغداد مرتين،
والميهني نسبة إلى ميهنة أحد أقاليم خراسان، وقد توفي الميهني بهمدان سنة ٥٢٧هـ.

تاج الدين محمد بن عبد الكريم الشهرستاني^(١)

له تصانيف كثيرة منها: كتاب العيون والأنهار، وقصة موسى والخضر،
والمنهاج والآيات...

وكان يُهَجَّن رأي «أبي علي» في كتاب المنهاج والآيات.

قال الظهير: قرأ عليّ من هذا الكتاب فصولاً في منزل «ميرزقوان»، فقلت
له: يجب أن تبحث عن كل فصل واعترض.

فلم يساعد القول، وأزف الرحيل.

وتصانيفه تزيد على عشرين مجلدة، وهو لا يسلك فيها سبيل الحكماء..
وقد رأيت له مجلساً مكتوباً عقده بخوارزم، فيه إشارات إلى أصول الحكمة..
فتعجبت منها.

قال الظهير البيهقي: وقد جمعني وإياه «أبو الحسن بن حمويه» في مجلس،
وحضر «أبو منصور العبادي»، و«أحمد الليثي»، و«شهاب الدين» الواعظ
السفوماني.. وغيرهم من الأفاضل.

فقلت له حين ذكر أقسام التقديمات: هذا التفصيل حقيقي؟ أم غير
حقيقي؟ فإنك تقول: التقدم إما بالذات، وإما بالطبع، وإما بالمكان، وإما

(١) هو أبو الفتح محمد بن أبي القاسم عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني كان إماماً مبرزاً،
وفقيهاً متكلماً له العديد من المصنفات منها «نهاية الإقدام في علم الكلام»، «كتاب الملل
والنحل»، و«كتاب المناهج والبيان»، وتوفي بشهرستان سنة ٥٤٨ هـ.

بالزمان، وإما بالشرف، وإما بالوجود.

فقال: فرق بين التقدم بالذات وبالوجود.

وأخذ يقرّر ذلك، وأنا أقول له: أنت تجيب عن مطلب ما في غير موضع النزاع، وتعرض عن مطلب هذا المركب. وأن لا أسألك، ولا أقول: (ما الفرق بين ما بالذات والوجود)؟ ولكني أقول: لم قلت: إن أجزاء الانفصال في حصر التقدّمات محصورة، وهي منفصلة حقيقة؟ فطال التكرار، وانقطع بسبب التكرار الكلام.

وكان يصنّف تفسيرًا، وتأول الآيات على قوانين الشريعة والحكمة.

فقال له الظهير: هذا عدول عن الصواب، والقرآن لا يُفسر إلا بتأويل السلف الصالح، والتابعين، والحكمة بمعزل عن تفسير «القرآن» وخصوصًا ما كنت تأوله، ولا تجمع بين الشريعة، والحكمة أحسن مما جمعها «الغزالي»... فامتلاً غيظًا، ومات بشهرستان: مسقط رأسه في شهور سنة ثمان وأربعين وخمسةائة.

وكان مقرّبًا جدًّا من سرير السلطان «سنجر»، وصاحب سره.

ابن التلميذ «أبو الحسن الطيب البغدادي»^(١)

حكى الحكيم «أبو بكر بن عروة» أنه دخل على «ابن التلميذ» يوماً، فلما عرف أنه حصلت بعض علوم الحكمة، غيّر درسه، وأورد فيه من دقائق المنطق والحكمة ما عرفت أن له وراء الطب غاية.

وكان مرسومه ببغداد يزيد كل سنة على عشرين ألف دينار.. ينفق جميع ذلك على طلاب العلم.

(١) هو الأجل موفق الملك أمين الدولة أبو الحسن هبة الله بن أبي العلاء صاعد بن إبراهيم بن التلميذ أوحّد زمانه في صناعة الطب، تولى رئاسة البيمارستان العضدي، سنة ٥٦٠ هـ.

ابن الشبل^(١)

هو «أبو يوسف علي بن الحسين عبد الله بن يوسف بن شبل البغدادي».

مولده ومنشؤه ببغداد، وكان حكيماً فيلسوفاً، ومتكلماً فاضلاً، وأديباً بارعاً، وشاعراً مجيداً.

وكانت وفاته ببغداد سنة أربع وسبعين وأربعمائة.

ومن شعره ما قاله في الحكمة.. وهذه القصيدة من جيد شعره، وهي تدل على قوة اطلاعه في العلوم الحكيمة، والأسرار الإلهية.

وبعضهم ينسبها إلى «ابن سينا» وليست له، ولا لغيره:

بَرَبِّكَ أَيُّهَا الْفَلَكُ الْمَدَارُ	أَقْصِدْ ذَا الْمَسِيرِ أَمْ اضْطَرَارُ
مَدَارُكَ، قُلْ لَنَا فِي أَيِّ شَيْءٍ	قَفَى أَفْهَامُنَا مِنْكَ انْبِهَارُ
وَفِيكَ نَرَى الْقَضَاءَ فَهَلْ فُضَاءُ	يَسُوْى هَذَا الْفَضَاءُ بِهِ تُدَارُ
وَعِنْدَكَ تُرْفَعُ الْأَرْوَاحُ أَمْ هَلْ	مَعَ الْأَجْسَادِ يُذَرِّكُهَا الْبَوَارُ
وَمَوْجُ ذَا الْمَجَرَّةِ أَمْ فَرِيدُ ^(٢)	عَلَى لَحْجٍ ^(٣) الدَّرْعُ لَهُ أَوَارُ

(١) هو محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد يوسف بن الشبل البغدادي «أبو علي»، كان شاعراً مشهوراً من أهل بغداد امتاز بالحكمة والفلسفة، والعلم بصناعة الطب، توفى ببغداد عام ٤٧٣ هـ أو ٤٧٤ هـ.

(٢) الفريد هو الدرر إذا نظم وفصل بغيره، ويقال أيضاً على الشذر الذي يفصل بين اللؤلؤ والذهب.

(٣) اللحج: هي التنبؤات، أو الأجزاء البارزة في الدروع.

وفيك الشمسُ رافعةٌ شُعاعًا
وطَوَّقَ في النَحْوِ^(١) مِنَ اللَّالِئِ
وَشَهَبٌ ذا الخَوَاطِفِ أم ذِبَالُ^(٢)
وترصيع نجومك أم حِباب^(٣)
تمد رقومها ليلًا وتطوي^(٤)
فكم بصقها صدا البرايا
تباري ثم تخنس^(٥) راجعات
فبيننا الشرقُ يقدمها صعوذاً
على ذا ما مضى وعليه يمضي
وأيام تفرقنا مراهبا
بأجنحة قوادمها قصار
هلالك أم يد فيها سوار
عليها المِرخ^(٦) يقدح والعفار^(٧)
تؤلفُ بينه^(٨) اللجج الغزائرُ
نهارًا، مثلُ مَاطوى الإزائرُ
وما يصدي لها أبدًا غرائرُ
فتنكس مثل ما كنس^(٩) الصوارُ
تلقاها من الغرب انحذارُ
طوال مني وآجال^(١٠) قصار
لها أنفاسنا أبدًا سفارُ

(١) في نسخة أخرى النجوم.

(٢) الذبال مفردها ذبالة، وهي الفتيلة التي تسرج.

(٣) المِرخ: الدهن الكبير، ويقال أيضًا على نوع من الشجر فيه نار يسهل قدحها.

(٤) العفار: شجر يتخذ منه الزناجد، والمِرخ والعفار شجرتان فيهما نار، ويسوى من أغصانها الزناد فيقتدح بهما.

(٥) الحباب من حَبِّ الماء، أو تكسره.

(٦) في نسخة أخرى: بينهما.

(٧) في مخطوط آخر: تراعي.

(٨) الخنس: هو الانقباض والانخفاض والتأخر..

(٩) المقصود أن النجوم تستمر في مجاريها، ثم تنصرف راجعة، وتختفي كما يختفي القطيع من البقر، أو الظباء (الصَّواب) يستتر.

(١٠) في مخطوط آخر: وأعمار.

(ونسخة أخرى)

وأيام يقربنا شفاهاً
 ودهرٌ ينشُرُ الأعمازَ نشرًا
 ودنيا كُلِّها وضعتُ جنيئًا
 هي العشواءُ ما خبطت هشيما
 فمن يوم بلا أمس ليوم
 ومن نفين^(٢) في أخذ وردٍ
 فكم من بعد ما ألفت نُفوس
 ألم نكُ بالجوارح أنسًا
 فإن يك آدم أشقى^(٣) بنيه
 ولم ينفعه بالأسماء علمُ
 فأخرج ثم أهبط ثم أودى
 فأدركه بعلم الله فيسه
 ولكن بعد غفرانٍ وعفو
 لقد بلغ العمدو بنا مناه
 ولها وأعمازُنا فيها شفازُ
 كما للغصن بالورق انتشار
 غداةً من نوائبها ظوار^(١)
 في العجماء ما جرحت جبارُ
 بغير غدٍ إليه بنا يسارُ
 لروح المرء في الجس انتشارُ
 جُسُومًا عن مجاثمها تُطارُ
 فلم بالقرب عادَ لها نفارُ^(٤)
 بذنب ما له منه اعتذار
 وما نفع^(٥) السجودُ ولا الجوارُ
 فتربُ السافيات^(٦) له شعارُ
 من الكلمات للذنب اغتفارُ
 بغير مائلٍ ليلًا نهارُ
 وحل بآدم وبنا الصغارُ

(١) الظوار هو التهذيب والتأديب.

(٢) النفيان مواقع من الرشاء من الماء على ظهر المستقي أو تطاير، وهو نفي الماء هو ما يرشه.

(٣) مخطوط آخر: مقار.

(٤) مخطوط آخر: يسقى.

(٥) مخطوط آخر: ولا نفع.

(٦) السافيات هو التراب الذي يذهب مع الريح.

ولا عجل أضل ولا خوار
 علينا نقمة وعليه عار
 ويذبح في حشا^(١) الأم الحوار
 وبعد فبالوعيد لنا انتظار
 خروج الضب أخرجه الوجار
 لغير الموجددين به^(٢) الخيار
 نخير قبله أو نستشار
 وهذا الكسر ليس له انجبار
 وليس لعمق جرحهم انسبار
 وغال الكواكب^(٣) الليل انتشار
 وطوح بالسموات انفطار^(٤)
 لخيرتها، وعطلت العشار
 خُسُوفٌ يعتريه لأسرار^(٥)
 مهيلات، وسجرت^(٦) البحار
 وأين مع الرجوم لنا اصطبار

وتنهط طائعين كقوم موسى
 فيالك أكلة ما زال منها
 نعاقب في الظهور ومسا ولدنا
 وننتظر الرزايا والبلايا
 ونخرج كارهين كما دخلنا
 فماذا الامتنان على وجود
 وكانت أنعمًا لو أن كوننا
 أهذا الداء ليس له دواء
 تحير فيه كل دقيق فهم
 إذا التكوير غال الشمس عنا
 وبدلنا بهذي الأرض أرضنا
 وأذهلت المراضع عن بتيها
 وعشى^(٥) البدر من فرق وذعر
 وسيرت الجبال فكن كئيبا
 فأين ثبات ذي الألباب منا

(١) نسخة أخرى: حشام.

(٢) نسخة أخرى: لها.

(٣) نسخة أخرى: راكب.

(٤) نسخة أخرى: الفطار.

(٥) السرار: هو الخطوط التي توجد في باطن الكف، ومنها أسارير الكف.

(٦) نسخة أخرى: وغنى.

(٧) نسخة أخرى: وسخرت.

وأيُن عقولُ ذي الأفهام ^(١) ما
 وأيُن يغيب لبُّ كان فينا
 وما أرضُ عصمتُهُ ولا سماءُ
 وقد وافقهُ طائعة وكانت
 قضاها سبعة والأرض مهذا
 فما لسمو ما أعلى انتهاء ^(٢)
 ولكن كل ذا التهويل فيه ^(٣)
 (من بحر الوافر)

وله أيضًا:

قالوا القناعة عزُّ والكفاف غنى
 صدقتم من رضاهُ سدُّ جوعته
 (من بحر البسيط)

وله أيضًا:

خرجنا من فضاء الله خوفًا
 وأشقى الناس ذو عزم تواليت
 تضيق عليه طوقُ الهدى منها

فكان فرارنا منه إليه
 مصائبه إليه من يديه
 ويقسو قلبُ راحمه عليه

(١) نسخة أخرى: فما.

(٢) مخطوط آخر: ترقى.

(٣) مخطوط آخر: منه.

(من بحر الوافر)

واعلم أن قول الحكماء الأوائل: إن «الباري» تعالى ساكن، وأن ذاته جوهر ثابت غير متغير دائم الوجود.

ومعنى قول من زعم أنه متحرك: أنه دائم الفعل في القوابل سرمدى الفيض، والإشراف على كل مستحق من غير بخل، وأما قولهم متحرك وساكن في العقل.

فمعنى من قال: إنه ساكن، أي: أنه بالفعل من جميع الوجوه.

ومعنى أنه متحرك، أي: أنه فاعل ومتفعل عما فوقه.

وقولهم: إن النفس متحركة: أنها دائمة الطلب للكمال من العقل الفعّال.

وقال طاليس: «إن الجسم هو الذي لا يدثر كالفلكيات»، ولجرم (كثيف) وهو الذي يدثر.

فالأول: لطيف. والثاني: كثيف.

وقال: «ووراء السماء عوالم مبدعة، لا يقدر المنطق أن يصف تلك الأنوار، ولا يقدر العقل أن يقف على ذلك الحسن والبهاء.. وهي مبدعة من عنصر لا يدرك عوره، ولا يبصر نوره».

والمنطق والطبيعة والنفس تحته ودونه، وهو الدهر المحض من نحو آخره، لا من نحو أوله، وإليه تشتاق العقول والأنفس، وهو الذي سميناه، الديمومة والسرمد والبقاء في حد النشأة الثانية.

وظهر بهذه الإشارات، أنه لما أراد بقوله: «الماء هو المبدع الأول»، أي: هو

مبدأ المركبات الجسمانية، لا المبدأ الأول في الموجودات العلوية.

ولكنه لما اعتقد أن العنصر الأول هو قابل كل صورة، أي: منبع الصور كلها، فأثبت في العالم الجسماني له مثالا يوازيه في قبول الصور كلها.

ولم نجد عنصراً على النهج المبدأ الأول في الموجودات العلوية.

لكنه لما اعتقد أن العنصر الأول هو قابل كل صورة، أي: منبع الصور كلها، ولم نجد عنصراً على هذا النهج كل صورة، أي: منبع الصور كلها.

فأثبت في العالم الجسماني له مثالا يوازيه في قبول الصور كلها، ولم نجد عنصراً على هذا النهج مثل الماء، فجعله المبدع الأول في المركبات، وأنشأ منه الأجسام والأجرام السماوية والأرضية جرياً على منهج الشرع.

وكذا نص التوراة، وإلى أمثاله يشير من يزعم بأن المبدع الأول: النار، أو الهواء، أو الأرض.. وأشبه ذلك؛ لأن حِكْمَهُمْ مأخوذة من مِشْكَاة النبوة.

الحسن بن إسحاق بن محارب القمي^(١)

ذكروا عن «ابن العميد» أنه كان يفتخر به ويقول: لو لم يخرج من بلدنا
سواه لكان كافياً.

كان يقول: العشق: هو الشوق إلى الاتحاد بالمعشوق.

وحكي عن بعض الأوائل: «لا شيء أنفس من الحياة، ولا عيب أعظم
من إنفاقها لغير حياة أبدية».

(١) هو الحسن بن الحسين بن الحسن بن الحسين بن علي بن موسى بن بابويه القمي،
ثم الرازي (أبو محمد) فقيه، ومشارك في بعض العلوم، ومن تصانيفه: العبادات، الأعمال
الصالحة، سير الأنبياء والأئمة، توفي حوالي ٥١٥ هـ.

الأستاذ أبو الفضل بن العميد القمي^(١)

كان قد أوتي من الفضائل والمحاسن ما بهر به أهل زمانه، حتى أذعن له العدو، وسلّم الحسود، ولم يزاحمه أحد قط.

فمن ذلك: أنه كان أكتب أهل عصره وأجمعهم؛ لأنه حافظ للغة والغريب. وله توسع في النحو والعروض، اهتدى إلى الاشتقاقات والاستعارات، وحفظ الدواوين من الجاهلية والإسلام.

وكان يسمع الأبيات الحماسية فردّ مرة^(٢) فيحفظها.

وكان «متضلعا»^(٣) في الهندسة والتعليم الأبداني، والمنطق، وعلوم الفلسفة، والإلهيات خاصة.

فما جَسَرَ أحد في زمانه^(٤) «أن»^(٥) يدعيها بحضرته، إلا أن يكون مستفيدا.

ولما رآه «العامري» بعد شرح كتب «أرسطو»، ورواحه إلى بغداد تحيّر.

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد المعروف بابن العميد (أبو الفضل)، المتوفى بهمدان عام ٣٦٠هـ - ٩٧١م، عن نيف وستين سنة، وكان أديبا، وكاتبًا، وشاعرًا، ولغويًا، حكيمًا، وفلكيًا، كما كان من الوزراء، ولي الوزارة لركن الدولة البويهية، ومنه تعلم عضد الدولة البويهية سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء، وله من الكتب: كتاب ديوان رسائله، وكتاب المذهب في البلاغات.

(٢) أي مرة واحدة.

(٣) أضفناها؛ ليستقيم السياق، ويتضح المعنى.

(٤) مخطوط آخر: واستدركها الناسخ بالهامش.

(٥) أضفناها، ليستقيم السياق.

وكان وزيراً لركن الدولة «بويه»^(١)، وكان قليل الكلام نذر الحديث، إلا إذا سئل، ووجد من يفهم عنه، فيسقط ويسمع منه ما لا يوجد عنه غيره، مع فصاحة وبلاغة.

وكان لجودة حاله وأخلاقه إذا دخل عليه العالم، أو صاحب فن.. سكت له وأصغى إليه، استحسن كل ما سمعه استحسان من لا يعرف منه إلا ما يفهم، حتى إذا طاوله، ووردت الشهود عليه من عنده.

واتفق أن يسأله عن شيء أو يجري بحضرته، فرغب إليه في إتمامه، تدفق حينئذ مجراه، وجاش خاطره.. وبهب من كان عند نفسه بارعاً في ذلك المعنى.

وما أكثر ما خجل عنده المعجبون بأنفسهم بعد مدة، وإجزال العطاء.

وكان عالماً بالحيل، وأحوال الحروب، مع شجاعة وثبات جأش في الحروب.

ومن خطئه، قال بعض الأوائل: قليل الخمر دواء، وكثيرها داء، وهي بالمشايخ أليق منها بالشباب.

ووجد بخطه: لما كان حدُّ الشرب منها مجهولاً، وجب بالنظر العقلي، والتدبير الشرعي أن يُمنع الناس منها؛ لئلا يتجاوزوا الحد؛ لأن الخمر كثير الشر، وينبوع الفجور، وباب مفتوح إلى كل بلاء.

والعاقل من صبر بنفسه عنها، وفدى مضارها بمنافعها.

(١) وهو أحمد بن أبي شجاع بويه من أمراء البويهيين.

أبو جعفر بن بابويه^(١)

ملك سجستان.

قال «أبو سليمان السجزي» صاحب «صوان الحكمة»: كان الملك «أبو جعفر» قويًا في علم السياسة، لم يتصرف في غيرها، وله بصيرة حسنة. وكان قد أخذ بجوامع السياسة مع المروءة الظاهرة، والعفاف الغالب، وضبط النفس عند عارض الهوى.

وكان ينشد كثيرًا بيتين ويتعجب من صحتها وجودتها، وحسن بحرهما. ويقول: لقد وُفِّقَ هذا الشاعر، ولا أقول: إنه شاعر إلا من جهة النظم والوزن والقافية، ولكن أقول الحكيم:

فتى لم يتبع نعمة بعد ما مضت بمن ولم يطل وعيدًا ولا وعدًا
هواه له عبدٌ ولا يكمل الفتى إذا لم يكن يومًا هواه له عبداً
(من بحر الطويل)

وكان: يحفظ من نواذر اليونانيين وسيرهم وأحوالهم، (ما لم يقدر أحد عليه).

وكان يقول: هذه قراضات الذهب، وكالتبر الذي لم يُسبك بعد.

(١) لم نجد ترجمة صريحة لملك سجستان بهذا الاسم، ولعل المقصود هو أبو جعفر بن موسى بن بابويه القمي الشيعي المفسر، والفقيه الأصولي صاحب المصنفات العديدة، والتي منها الجمعة والجماعة، والمواظ والحكم، وأمير المؤمنين، ومن لا يحضره الفقيه.

وكان يعجبه نوادر اليونانيين، ويقول: إن قومًا هذه فكاهتهم ومؤانستهم واستراحتهم، ما يظن بهم إذا أخذوا في الجدد، واعتصروا قوى غرائزهم بالقصد.

ثم قال: إني لأستحسن شيئًا حكى عن «ديمقراطيس» أنه قال: السابح في بحرنا لا ساحل له إلا هو.

وكان يحفظ جميع الفقر التي لأرسطو في السياسة، مما كتب إلى «الإسكندر»، ومما شافه به.

وكان يقول: قد انتهى الزمان إلى أمر خارج عن جميع ما وسمه ذلك الحكيم لذلك الملك، وذلك أن الناس قد خلعوا ربة الدين الجامع للخبرات العاجلة والآجلة، ونبدوا عهد العقل الناظم لصالح العامة والخاصة، وحلوا رباط الحياء الذي به يكون التمتع من الغي، والتسرّع إلى الرشاد.

وإن زمانًا ينسلخ أهله من شعار الدين وحلية العقل ورباط الحياء، لغاية في الفساد، وما أعرف دواء إلا السيف الماحق.

وقال: ما أحسن ما قال «زياد»، وكان من رجال العرب: لقد فسد الناس فسادًا لا يصلحهم إلا السيف القاطع، والسوط الواقع، والسجن القامع.

وقال: وأنا أبقي قسمين من هذا الكلام: فإن الشر قد غلب على كل من أكل الطعام والسلام.

وقال أبو سليمان: سأل الملك «أبو جعفر» «ذات» ليلة جماعة عنده منهم

«الإسفزازي»، و«ابن حبان»، و«طلحة»، و«أبي تمام»، وغيرهم: لم يُقال في شائع الحديث: أصدق الحديث ما عُثِرَ عنده؟

فسكتوا.. ثم قالوا: ما عندنا فيه شيء؛ لأن هذا من آثار الطبيعة وهو تابع للأخلاق، وما يزيد منها وما ينقص، ومثل هذا يبعد عن عليّة تامة.

فقال: هذا كله نِفار وهرب؛ فإن الطبيعة لها أبدار بمثل هذه الأشياء بحسب اطلاع النفس عليها وتلويحها لها، وسريان قواها منها وإلقائها، فيمر ذلك بالطبيعة فتنتقض اهتزازاً له، فيصير ذلك كالشاهد على الشيء المزمع، والأمر المقبل، فإن لم يكن هذا على هذا فما انعقد، وهم كل سامع ليعطس في عرض حديثه إلا على هذا، وكانت النفس قد أومات لاتفاق الواقع مع هذا الغرض.

ثم يكون حق هذا في الثاني، وباطله على الزيادة والنقصان والقوة والضعف.

قال: وكان أكثر من هذا الضرب فيما هو قائم بين العامة ومعهود في بعض الخاصة.

وقال: قال أفلاطون: الشرف ثلاثة: «شرف النفس»، و«شرف الحكمة»، و«شرف الآباء».

وقال «أبو سليمان»: سمعت من «أبي جعفر» الملك أنه قال مُعَقَّباً لروايته: أمّا شرف النفس، فإنه يفضي إلى بقائها.

وأما شرف الحكمة، فإنه يوضح السبيل إلى هذا البقاء.

وأما شرف الآباء - وهو أحسن الثلاثة - فإنه يزيد في قدر صاحبه زيادة تفسده في باطن حاله بالكبر، وتصلحه في ظاهر حاله بالتوقر.

وهذا الشرف الأخير بالإصلاح والعادة.

وأما الشرف الأوسط فبالاجتهاد والاكتساب.

وأما الأول فهو بالطبيعة، أي: بالواجب؛ لأن شرف النفس لا يدخله الاصطلاح، ولا يحدث بالاكتساب، وإنما يظهر ما هو واجب الاكتساب.

قال: فقلت: لنهتلك أيها الملك فقال جمع الله تعالى لك هذا كله، فأنت البائن بالفضل، والمتفرد بالكمال، والمشار إليه في العلم.

فقال: مه يا أبا سليمان، فإني لا أؤاخذك بأن تغلط في وصفك، ولكن أؤاخذك بأن تغلطني في وصفي بوصفك، ويكفي للإنسان أن يكون مغروراً من نفسه معنوياً بفضله ساهياً عن رشده، وليس يحتاج إلى أن يكون صاحبه خائفاً عليه بجميل الثناء، خادعاً له بزخرف القول.

وقال أبو سليمان: فحضرت عند كلامه هيبة له، فانتدب «أبو تمام النيسابوري» فقال: أيها الملك إنا وإن انتهينا عما تنهانا عنه طاعة لك، وامثالاً لرسمك، وطلباً للمكان عندك.

فإننا ننطوي من إجلالك وتعظيمك ومعرفة وما وهب الله لك ولأوليائك ورعيتك بك على ما لا يفسره بيان، ولا يشرحه وصف، ولا يضمه فؤاد، ولا يلم به وهم.

ولو استعملنا الخطابة في نشر فضائلك على ما أوضحه «أرسطو» لكننا

عند بلوغ الغاية والوقوف على النهاية أغنى بها.

وليس إذا عمجزنا عن هذه القاصية يُحَسِّنَ بنا أن نسكت عن تلك الدانية.

دعنا أيها الملك حتى نتلذذ بوصفك، ونشكر نعم الله علينا بك، فقد أصبحت بلا ضد مطاول، ولا عدو مناضل، وأوضحت مناهج الحكمة بعد درسها، ودعوت الناس إليها بعد نفوزهم منها، وجمعت حولك أبناءها وطلابها، ثم عمرتها بإحسانك وطولك معينا على اقتباسها.

والله ما حملني و«أبا سليمان» على تملق ولا خداع؛ لأن هذا ليس هدينا وسيرتنا، ولو كان هذا فينا لكان علمنا بكساده عليك، وسقوط متعاطفة عندك يمنعنا عن ركوب سنامه وامتطاء ظهره.

فقال الملك: نهيت أبا سليمان عن شيء قليل، فأتيت أنت بما أوفى عليه، والله ما أردت بما قلت إلا حسم ضراوة النفس على هذه الأشياء التي إذا وصلت إلى القلب، عششت وأفرخت، وصارت بصاحبها إلى الفتنة؛ لأن الإنسان عاشق نفسه، وكيف لا تُعشَقَ وهو يجدُّ بها كل لذة، ويقضي بها كل وطر، ويصل بها إلى كل هوى؟

وبهذا العشق واصلت النفس البدن، وبه أطاع البدن النفس.

ولولا هذا ما ائتلقت المتعاديات فيه، واصطلحت المتنافرات له.

وإن امرأ يورث في أصل الخلقة بالطينة والصورة، والشكل والهيئة، ثم يُنَمَّى بالمشاكلة والعادة والزيادة.

ثم يَسْتَحْكَمُ بالهوى والميل والمحبة، لراسخ الأصل ممتد الفعر، عريض

الفضاء، ظليلُ الظل.

وإنما جئنا على التماس الحكمة، وأُكْرِهنا على إحكام الشريعة، لنعدل بأنفسنا في هذا العشق الموروث، ونسلك الطريق الظاهر، ولا نجني على أنفسنا بالغلط فيها، ولا نمكن غيرنا من الجناية عليها بالخداع لها.

ونعود إلى كلامنا الأول فنقول: من عدم شرف النفس، لم ينفعه شرف الحكمة؛ لأن الحكمة لا تقلب الحمار إنسانًا، ولا تجعل الشيطان ملاكًا، ولكنها فتنة للنفس، وأريحية للروح، وطمأنينة للقلب، وأنس في الوحدة، وطريق إلى الرشد، وسدٌّ بين الإنسان والغبي.

وكتب الملك: كتب «قيصر» إلى «كسرى»: بم انتظمت مملكتك واستقامت رعيتك؟!

فقال: بست خصال:

لم أهزل في أمر ولا نهي.

ولا أخلفت وعدًا ولا وعيدًا.

وعاقبت للحزم لا للحقد.

ووليت للأعباء لا للهوى، فاستملت قلوب الرعية من غير كره.

وسهلت الإذن من غير ضعف.

وعممت بالقوة، وحسنت الفضول.

فلما قرأه قال: هذا كلام يجب أن يكتب بالذهب.

وقال أبو سليمان: يخرج منه كتاب في علم السياسة.

وقال الملك: عَلِّلِ النَّفْسَ وَلَا تُضِلِّهَا؛ فَإِنْ تَعْلِيلُهَا يَفْتَحُ عَلَيْهَا،
وَتَضْلِيلُهَا يَحْجُبُ عَنْهَا.

وقال: الشريعة تنطوي على تنبيه نفس فاضلة، وجبر نفس قابلة،
وتأديب نفس جاهلة.

وقال: السماع يزود الرصد إلى الحس بواسطة الطبيب في الصناعة
الجيدة.

وكان رحمه الله مُجَبِّاً للحكمة ولأهلها، كثير الفضائل لا يصبر عن
أهلها، كثير الإحسان إليهم، ذا أخلاق شريفة وهمة عالية.

أبو بكر الحسن بن كردة القومسي^(١)

وهو من قومسة، قرية من ضياع همذان من قرى أصفهان، كان كبير الطبقة في الفلسفة، وهو تلميذ «يحيى بن عدي»^(٢)، لازمه زمانًا، وكتب لنصير الدولة، وكان حلو الكتابة مقبول الجملة، متوجهًا في الأدب، ومعرفة الأشعار، وسائر العلوم العربية، وله (في هذه) الصنعة بعده أولاده وأخوه وأقارب وغيرهم يتميزون عن غيرهم بالفضيلة.

وسئل «أبو بكر» عن معنى كون الزمان، أو المكان، أو الإنسان، أشرف من زمان آخر، ومكان آخر^(٣) وإنسان آخر، فقال: هذا النوع بإضافة الزمان إلى سعادة شائعة فيه، وخير عام، وبركة فائضة، وخصب عام، وشريعة مقبولة، وخيرات معقولة، ومكارم مؤثرة من جهة شكل الفلك بما يقتضيه بعض أدواره، وكذلك المكان إذا قابله جرم من هذه الأجرام الشريفة.

فأما الزمان الذي مفهومه مقدار حركة الفلك^(٤)، فليس فيه جزء أشرف من جزء، وكذلك المكان، وكذلك الإنسان.. لا شرف له على إنسان آخر من حيث اتحاد العام بكل واحد.

بل الشرف له بالكمالات العقلية، والأعمال الصالحة.

(١) لم نجد لهذه الشخصية ترجمة في المراجع المتوفرة لدينا.

(٢) يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا أبو زكريا (٢٨٠ - ٣٦٤ هـ) فيلسوف حكيم، انتهت إليه الرئاسة في علم المنطق في عصره.

(٣) في مخطوط آخر: وسئل عن معنى هذا الزمان أشرف من زمان آخر، وهذا المكان أشرف من غير، وهذا الإنسان أشرف من غيره.

(٤) وهذا هو تعريف أرسطو للزمان بأنه عدد الحركة بحسب المتقدم والمتأخر.

أبو علي أحمد بن مسكويه^(١)

وهو من أعيان الزمان وقد صحب الوزير «أبا محمد المهلبى» في أيام شببته، وكان من خواصه.

ثم اتصل بعد ذلك بخدمة الملك عضد الدولة، وصار من جملة الندماء والرسل.. إلى أن فارق الملك الدنيا.

ثم اختص «بابن العميد»، وابنه «أبي الفتح»، وبالمملك «صمصام» الدولة.

وكذلك تخصصه سائر الأكابر.. إلى وقتنا هذا مما لا حاجة فيه إلى البيان^(٢).

وله تصانيف كثيرة في كثير من فنون العلم والحكمة.

وله الأخلاق الكاملة والآداب الفاضلة.

وله من الكتب: النورس في علوم الأوائل^(٣)، وتعاليق حواشي كتب

(١) وهو أبو علي أحمد بن مسكويه الخازن، له مشاركة حسنة في العلوم الأدبية، كان خازناً للملك عضد الدولة بن بويه، وله مناظرات ومحاضرات وتصنيفات في العلوم، فمن تصانيفه: تجارب الأمم، والفوز الكبير، والفوز الصغير، والأدوية المفردة، وتهذيب الأخلاق، وعاش ابن مسكويه زماناً طويلاً إلى أن قارب سنة عشرين وأربعمئة.

(٢) هو صمصام الدولة بن عضد الدولة، تولى الحكم بعد أبيه، وكان موجوداً في أواخر القرن الرابع الهجري.

(٣) ح، والمقصود أن تقريب العلماء أصبح عادة يواظب عليها أكابر رجال الدولة، وكانت لا تزال مستمرة في وقت الشهرزوري.

(٤) في مخطوط آخر: الغوراني، ولم يرد ذكر كتاب بهذا الاسم ضمن مؤلفات أحمد بن مسكويه، ولعل المقصود هو كتاب له أنواع علوم الأوائل.

المنطق.

وله كتب في جميع الرياضيات، والطبيعيات، والإلهيات، والحساب، والصناعة، والطبخ.

وكانت هذه الكتب تُقرأ عليه أيام مجالسه.

وله كتاب «المستوفي في الشعر» وهو مختار الشعر، ومجموعة تسمى «أنس الفريد»، و«وجودان جود»، وله البلاغة والخط الحسن.

أبو النفيس^(١)

كان أحفظ الناس لنوادر الفلاسفة وفقرهم وملحهم.

وقيل له: كيف ترى الدهر؟

فقال: وهوب لما سلب، سلوب لما وهب، كالصبي إذا لعب.

وقال بعض الحكماء من الأوائل: المال محبوب من أجل البقاء في عالم الكون والفساد، والدين محبوب من أجل البقاء (في عالم البقاء) والخلود.

ومتى ضعفت قوة النفس عن التمييز، صار توهمها للبقاء أبدًا في عالم الفناء علة الاستكثار منه.

وقال: العجلة مذهلة، وفي اللجاج: بغض، والعجب حيرة، وفي التواني: فوات.

وأنشد «أبو النفيس»:

في النفس والجسم إن فكرت معتبر	بل دون ذلك ظل الرأي والفكر
وحار كل لبيب في اتحادهما	وتلك عينٌ وهذا حكمة الأثر
إذا نظرت رأيت العين واحدة	وثم صوب صفاهمة الكدر
بذلك الفيض يرنو العقل مخترقا	أستار غيب تجافي دونه البصر
وتلحظ المرء غايات الأمور به	من قبل مذهبه والعيب مستقر

(من بحر البسيط)

(١) هو أحمد بن عبد الغني بن أحمد الملقب بالنفيس، شاعر وأديب مصري، له علم بالفقه، كان يجوب البلدان ويمدح الناس، وله ديوان شعر توفي بمصر سنة ٦٠٣ هـ.

يا ليت شعري إذ الأبدان أضمرها
 هل للنفوس النقل نحوها عالمها
 ليحصل الفوز في دار الخلود لها
 أم تضمحل كما قد بان هيكلها
 تلوي لشفاه بها حتى يعينها
 هذا الذي صدئت منه خواطرننا
 تفرد الله تعالى بالعلم الخفي
 فليس يعثو إلى نار الهوى أحد
 (من بحر البسيط)

ثم قال: هذه بلابل الصدور، وحشرات الأرواح، ووساوس الكرام، من هذا السواد العامر للأرض، والمطبق للآفات على مر الزمان القديم، والأعصر الأول، وكلُّ تعلق في نصابه، ويجفزه مكره إلى مدى فطره.

وتتطاول بحوله وقوته^(١) إلى ما يناله بسكونه وحركته واستطاعته.

ولا دواء لهذا ولغيره أنجع^(٢) من صُنع الله، الذي من جاد عليه به صحا، ومن فاته ذلك منه سكر وذهل.

وهب الله تعالى لنا من العقل ما نعرف به أنفسنا، ومن الأدب ما نتعاشر به بيننا، ومن الكفاية ما نغني به عن إمامنا وكرمائنا، ومن الشكر ما نستحق المزيد من ربنا، ومن الصبر ما نتجرع به مرارة حياتنا بمنته وكرمه.

(١) في مخطوط آخر: وطاقته.

(٢) في مخطوط آخر: أجمع.

إبراهيم بن عدي صنويحي^(١)

كان أخص خواص «أبي نصر الفارابي»، وملازمًا له، وله مصنفات كثيرة. قال في بعضها: التقسيم هبوط، والتحليل صعود، والتقسيم والتحليل خادمان للحدِّ والبرهان.

فخدمة التقسيم: تبكيث الوسائط، وخدمة التحليل بالانتقاد.

كما أن حد الإنسان يحلل إلى حيوان وناطق.

وقال: كل محدود متصور، وليس كل متصور محدودًا.

(١) هو إبراهيم بن عدي الحكيم، من ندماء أبي نصر الفارابي وخواصه، له تصانيف كثيرة في النفس وسائر العلوم.

أبو الحسن علي بن أحمد الجوشي^(١)

من قدماء الحكماء.

قال: القلم: العقل، واللوح: النفس، والفلك، الأعظم: العرش،
والثوابت: الكرسي، والأفلاك السبعة: السموات، والأقاليم السبعة:
الأرضين، وأعلى عليين: العرش، وأسفل السافلين: المركز^(٢).

(١) لم نجد ترجمة دقيقة لتاريخ هذه الشخصية في المراجع المتوافرة لدينا.

(٢) وهنا يلاحظ أن الجوشي يستخدم التفسير الرمزي.

الصاحب أبو محمد البخاري^(١)

هو من تلامذة «أبي سليمان السجزي»، وهو أفضل من اشتدت في علوم الإسلام عُراه، وتأكدت في دقائق الحكمة قواه.

ولكن دعواه تزيد بزيادة غير محصورة على معناه.

وله حفظ قوي وثائقه، وخاطر استحکمت قواعده.

وله تصانيف حسنة مفيدة.

(١) هو عبد الكريم بن محمد بن موسى الميغي (نسبة إلى الميغ من قرى بخارا) البخاري الحنفي، (أو محمد) صوفي متفقه، من آثاره: نصائح الأبرار.

أبو البركات البغدادي^(١)

كان ابتداء تعلمه.. أنه كان يسأل «أبا الحسن السعيد بن هبة الله» أن يعلمه فلم يقبل؛ لأنه لم يقرئ اليهود فصادق بوابه، وكان يأتي ويجلس في دهليزه، ويستمع إلى البحث مدة:

فاتفق أنه حضر عنده يوماً وتلامذته يبحثون في مسألة، فوقفوا.

فقال أبو البركات: العبد يستأذن الشيخ أن يقول ما عنده.

فأذن له: فأجاد في الجواب.

فسأل عن القصة؟ فأخبره الحال.

فقال: من كانت هذه حاله لا يجوز منعه، وصار من خواص تلامذته،

ومن شعره:

تنقل عن دين آبائه	ودينهم مذهب الشافعي
فأضحى بالمال في المعاش	وعند المعاد بلا شافع

(من بحر المتقارب)

(١) هو هبة الله بن علي بن ملكا البلدي، أبو البركات البغدادي، المعروف بأرحد الزمان، وهو طبيب وفيلسوف مشهور، كان يهودياً وأسلم في آخر عمره، ترك العديد من المؤلفات منها: «المعتبر في الحكمة»، ومقالة في سبب ظهور الكواكب ليلاً واختفائها نهاراً، ومقالة الأدوية، توفي حوالي سنة ٥٦٠ هـ بهمدان وحمل تابوته إلى بغداد.

وهو فيلسوف العراقيين، وله خاطر وقاد، وعاش تسعين سنة شمسية، وأصابه الجزام، فعالج نفسه فصيح، وعمي، وبقي أعمى مدة.

وقد اتهم السلطان «محمد بن ملكشاه» بسوء علاج وتدبير، فحبسه مدة.

وفي شهور سنة وأربعين وخمسمائة أصاب السلطان «مسعود بن محمد بن ملكشاه» قولنج بعد ما افترسه أسد، فحُمِلَ من (بغداد) إلى (همدان) أبي البركات.

فلما أيس الناس من حياة السلطان خاف «أبو البركات» على نفسه، ومات ضحوة، ومات السلطان بعد العصر.

وحمل تابوته أبي البركات إلى بغداد مع الحجاج.

ولما أخذ «أبو البركات» في مصاف المسترشد، والسلطان «مسعود» وقُرب حينه.. أسلم في الحال، وحسن إسلامه.

وقيل: إنه دخل على الخليفة، فقام جميع من حضر إلا قاضي القضاة، فقال للخليفة: إنه لم يقم لكوني ذميًا، فأنا أسلم؛ لئلا يستنقصني.

بهاء الدين أبو محمد الخرقى^(١)

كان من حكماء مرو، وله تصانيف في الهيئة والمعقولات، وحمله خوارزم شاه إلى خوارزم للاستفادة منه، وله تصانيف في التاريخ، وكان حسن الأخلاق.

ومن كلامه: الرياضيات تسمى التعاليم الأربعة، وإنما كانت أربعة؛ لأن موضوعها: الكمية.

وهي إما أن تكون متصلة، أو منفصلة.

والمتصلة إما أن تكون متحركة، أو ساكنة.

المتحركة هي الهيئة، وغير المتحركة هي الهندسة.

والمنفصلة إما أن يكون لها نسبة تأليفية وهي الموسيقى، أو لا تكون وهي الأعداد.

وقال: «كمال النفس: إدراك المعقولات، وجعلها الهندسة، والهيئة والموسيقى، والهندسة صقال النفس».

(١) لم نجد ترجمته صريحة بهذا الاسم، ولعل المقصود به هو محمد بن أحمد بن أبي بشر المرزوي، والمعروف بالخرقي (شمس الدين أبو بكر المتوفى ٥٣٣هـ)، وهو فلكي ورياضي كان بمرور من أعمال خراسان.

ومن آثاره: التبصرة في الهيئة، الرسالة الشاملة في الحساب، منتهى الإدراك في تقسيم الأفلاك.

محمد بن الحارثان السرخسي^(١)

طاف وساح، ومسح أكثر الأقاليم بأقدامه طلباً للحكمة البالغة، وكان في الأدب تلو «الجوهري».

وقال الظهير: وقد جرى بيني وبينه كلام في أنه يجب أن يتقدم على التصديق تصوران، أو ثلاثة.

وقال: وقد ذكرت ذلك في كتاب «شرح النجاة» من تصنيفي.

ومن كلامه: الملك الحي القيوم: أول فكر العارفين وآخره.

لا سفر أحسن من سفر العقل في الملكوت الأعلى.

ومن انطبع في فص خاتم استعدادة نقوش الحقائق فقد ذاق اللذة القصوى^(٢).

(١) هو أبو علي محمد بن علي بن الحارثان السرخسي، كثير الترحال والسياسة، له مشاركة طيبة في اللغة والأدب، وأقام مدة في المدرسة النظامية، وعاد إلى سرخس، ويقال: إن له مؤلفات كثيرة في الحكمة والمساحة والحساب، توفي سنة ٥٤٥هـ.

(٢) وهي تعني هنا: أن كل من كتب له أن يسلك طريق الإلهام، وتتفش نفسه بأسرار الحقائق، فإنه يحصل على اللذة القصوى، وهذا المتصوف المدرك للحقائق عن طريق الكشف، أو الذوق هو الذي يحصل على أقصى اللذات العقلية والروحية.

محمود السرخسي^(١)

كان والده وزير قيصر، وهو تركي استولى على خوارزم، وكان «محمود» حكيمًا أديبًا فاضلاً من تلامذة «أبي البركات» اليهودي^(٢)، واستولى عليه نوع من السوداء فذبح نفسه في بعض ليالي الشتاء بسكين القلم.

ومن كلامه قبل موته: من أراد من الوهم مطابقة العقل في جميع الأحوال، كان كسميع استخبر من أصم، أو سميع أراد أن يُسمع الأصم جميع ما يقوله السميع.

(١) هو محمود بن عبيد الله بن صاعد الحارثي الحنفي (أبو القاسم): فقيه، ولد ونشأ بسرخس، ومر ببغداد حاجًا، وتوفي بمرو، ومن تصانيفه: شرح نظم الجامع الكبير، خلاصة النهاية في فوائد الهداية، العدة، الفتاوى، وكلها في فروع الفقه الحنفي.

(٢) يلاحظ هنا أن الشهرزوري ذكر قبل ذلك بقليل أن أبا البركات أسلم وحسن إسلامه، ولقب «اليهودي» هو ما اشتهر به أبو البركات قبل إسلامه.

أبو الفتح عبد الرحمن الخازن^(١)

كان غلامًا محبوبًا رومياً «علي الخازن الروزي»، وحصل علوم الهندسة وكَمَّلَ فيها، والمعقولات ما وافقت طبعه مع جهده في تحصيلها.

وهو الذي صنَّف «الزيج المعتبر السنجري»، وجميع ما فيه من الأوساط والتعديلات فيه بحث، إلا في تقويم عطارد في حال رجوعه، فإنه موافق للرؤية والامتحان.

وكان نقي الحسب عن الأطماع الخسيسة.

وبعث إليه السلطان «سنجر» ألف دينار، فردّها، وقال: لا أحتاج إليه، وكفى لي عشرة دنائير، ويكفيني كل سنة ثلاثة دنائير، وكيف وليس يبقى في تلك الدار سنور؟^(٢).

وكان يأكل اللحم في كل أسبوع ثلاث مرات، ويتغدى في كل يوم بخردقين^(٣).

وبعثت إليه زوجة الأمير «لاحي أخريك»: ألف دينار فردّها أيضًا.

(١) هو أبو الفتح عبد الرحمن الخازن أو الخازني، له إسهامات كثيرة في الفلك والهندسة، ومن مؤلفاته: ميزان الحكمة، الزيج، المسمى بالمعتبر السنجري، وكان متقشفاً يلبس لباس الزهاد، توفي حوالي سنة ٥٥٠هـ.

(٢) مبلغ قليل من المال.

(٣) هذه الكلمة مشتقة من كلمة خرديق، بمعنى: المرق، وهي كلمة فارسية معربة أصلها خرديق، وراجع: لسان العرب مادة خرديق.

وكان يلبس لباس الزهاد، ولا يأكل إلا طعام الأبرار، و«الحكيم الحسن السمرقندي»^(١) من جملة تلامذته.

(١) هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد بن القاسم بن جعفر القاسمي السمرقندي، محدث وفقيه، ولد سنة ٤٠٩ هـ من تصانيفه: «بحر الأسانيد» في ثمانية أجزاء توفي سنة ٤٩١ هـ.

محمد بن أحمد المعموري البيهقي^(١)

كان تلو «بني موسى»^(٢)، في الرياضيات، وكتب في المخروطات كتاباً ما سبقه أحد إليه.

وعمر الخيام يعترف بتبرزه في تلك العلوم.

واتفق أنه ارتحل إلى أصفهان بسبب الرصد الذي أمره «ملكشاه»، فبقي هناك إلى أيام السلطان «محمد».

ولما اتفق إحراق أصحاب الجبال والقلاع من الباطنية، وأقبل السلطان «محمد» على ذلك..

رأى «المعموري» تسير درجة طالعه متصلة بنحسٍ وشعاع نحس، فخاف ذلك الاتصال، فخرج من دار السلطان، ودخل دار بعض أصدقائه.. وانزوى في زاوية بيته.

(١) هو محمد بن أحمد المعموري البيهقي الأديب الفيلسوف، كان من عليّة الحكماء، قتل وأُحرق على سبيل الغلط سنة ٤٨٥ هـ وله كتاب في التصريف مجدول، كتاب في النحو، كتاب في المخروطات والهندسة.

(٢) وهم: محمد وأحمد والحسن بن موسى بن شاكر، وقد بذلوا جهدهم في تحصيل علوم الأوائل، وكان الغالب عليهم من العلوم: الهندسة، والحيل والحركات والموسيقى والنجوم، ولبنى موسى: كتاب بني موسى في الفرستون، كتاب الحيل لأحمد بن موسى، كتاب الشكل المدور المستطيل للحسن بن موسى، كتاب حركة الفلك الأولى مقالة لمحمد، كتاب المخروطات.

فلما أخذوا باطنياً وحرزوه إلى موضع الإحراق، وعلت النسوان والصبيان السطوح للفرجة.

فعثرت امرأة على سطح ذلك البيت الذي فيه «المعموري» ففضحت أمره، وصاحت: «معاشر الناس: في هذا البيت قرمطي».

فدخلوا للدار.. وأخذوه وقتلوه، فلما أخرجوه مقتولاً.. عرفه أولياء السلطان فلاموا العامة.

وما نفع اللوم، ولا الحذر من القضاء المحتوم، ولا تأجيل الأجل المسمى، ولا المفر من العواقب^(١).

(١) يلاحظ أن الشهرزوري كان شديد المبالاة والعطف على الحركات الباطنية (القرمطية) التي ينطوي عليها المذهب الإسماعيلي، ولذلك نراه هنا يدافع عن مواقفهم، ولعل ذلك يوضح اعتناقه للمذهب الإسماعيلي.

ظهر الدين عبد الجليل بن عبد الجبار المفتي^(١)

أبوه وعمه: إمامان من فحول الأئمة.. واشتغل بتحصيل الحكمة طول عمره.

وساعدته العلوم الرياضية مساعدة جميلة مع أنه فاز من المعقولات بحظٍ وافر.

وله أخلاق مهذبة، وزمان موقوف على الإفادة والاستفادة، والعمل الصالح والرياضة، وتلاوة القرآن.

(١) لم نقف على ترجمة واضحة ووافية لظهر الدين المغني في المراجع المتوافرة لدينا.

علي بن شاهك القصاري الضرير البيهقي^(١)

أصابه الجدري وهو ابن تسع سنين فعمي.
وتعلم القرآن وأصول الأدب وفروعه، وحفظ الأدعية الكثيرة والأخبار.
ثم اشتغل بتحصيل الحكمة بلا مرشد، ولا أستاذ.
وكان يقرأ عليه واحد فصلاً من المنطق (وهو يحفظه ويكرره، ويتفكر فيه حتى وقف على حقائقه فحصل المنطق) والطبيعي، والإلهي.
ثم اشتغل بالرياضيات، «وكان» يقرأ عليه واحد شكلاً، وهو يحفظه ويتخيله، حتى حصل له المقصود.
وكذلك حصل الأعمال النجومية حتى كان يستخرج الطوالع، ويُقَوِّم الكواكب.
وكان يهدي تقاويمه إلى الأركان، وهذا من العجائب ومن لم يره لا يقبل خيره.

(١) هو علي بن شاهك القصاري البيهقي، فيلسوف حكيم له اهتمامات كثيرة بالفلك، واستخراج طوالع النجوم، والتقاويم، كما اشتغل بالرياضيات.

أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني^(١)

وبيرون مدينة في السند، (وقيل: كان أسمر اللون، قصير القامة، كث اللحية أبيضها، شيخ متوغل في السن).

وكان من أجلاء المهندسين، وقد سافر في طلب العلم في بلاد الهند أربعين سنة.

وصنّف كتبًا كثيرة، وله مناظرات مع أبي علي^(٢)، ولم يكن الخوض في بحار المعقولات من شأنه؛ فكلّ ميسر لما خُلِقَ له.

وزادت تصانيفه على حمل بعير، وكان موفقًا في هذا المسعى المشكور.

وبيرون التي هي منشؤه ومولده، بلدة طيبة فيها غرائب وعجائب، ولا غور فإن الدّر ساكن الصّدق.

ومن كلامه: «سهولة الشيء وصعوبته قلما يُطلق، وإنما يُضافان إليه بحسب اختلاف الأحوال، فيسهل لها من جهة، ويتعذر من جهة أخرى».

وقال: «مدرسة أخلاق الحكماء والعلماء تُحيي السُّنَّة الحسنة وتُميت البدعة».

(١) هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، ولد عام ٣٩٢هـ بضاحية من ضواحي خوارزم، وهو مؤلف عربي شهير، وفيلسوف، ورياضي، وفلكي، وواحد من أعظم مفكري الإسلام، وقد ترك لنا البيروني العديد من المؤلفات أشهرها «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة» ويقال: إن وفاته كانت بعد سنة ٤٤٠هـ.

(٢) المقصود: أبو علي بن سينا، وقد كان البيروني بالفعل معاصرًا له.

والسنن الصالحة علامات الخير والحق.

لكل يوم أمر حاضر، ولكل غدا ما^(١) فيه يحدث.

والأستاذ «أبو الريحان البيروني» له في الرياضيات السبق الذي لم يَشُق المحصرون غباره، ولم يلحق المضمررون المجيدون مضماره.

وقال: قد جعل الله تعالى الأقسام الأربعة أرضًا خاشعة، سبحت له لواقع مزنها، واهتزت له مواقع نبتها، كم مجموع له رفر على روض النجوم طُلُّه، وترفر على كبد السماء ظُلُّه.

وبلغني أنه لما صَنَّف القانون للمسعودي، أجازته السلطان الشهيد بحميل فيل من النقرة فردَّه إلى الخزانة، فقد الاستغناء عنه، ورفض العادة في الاستغناء به.

وكان من المشيخة في التعمير، وجلالة الحال في عامة الأمور، مُكَبًّا على تحصيل العلوم، مُتَّصِبًا إلى تصنيف الكتب بفتح أبوابها، ونحط شواكلها وإقرائها.

ولا يكاد يفارق يده القلم، وعينه النظر، وقلبه الفكر، إلا في يومي النوروز^(٢) والمهرجان من السنة، لإعداد ما تمس إليه الحاجة في المعاش من بلغة الطعام، وعلاقة الرياض.

(١) في نسخة مخطوطة أخرى: لما.

(٢) يوم النيروز عند الفرس هو أول يوم من أيام السنة الشمسية، وهو يوم الفرس عمومًا وهذا العيد، تحتفل به البهائية الآن يوم ١٩ مارس من كل عام، وعند الأقباط هو بداية السنة القبطية، وقد أَرَّخوه بمناسبة الاستشهاد على يد الإمبراطور دقلديانوس.

ثم هجراه في سائر أيام السنة إلى علم يُسفر عن وجهه قناع الأمكال^(١)،
ويحسر عن ذراعه كمام الأعذاق^(٢).

وحكى «القاضي كثير بن يعقوب البوراري النحوي» في «الدستور» عن
الفقيه «أبي الحسن علي بن عيسى اللوكرانجي» قال: دخلت على «أبي الريحان»
وهو يجود بِنَفْسِهِ، وقد شرح نفسه وضاف به صدره، فقال لي في الحال: كيف
قُلْتَ لي يومًا حساب الجدرات الفاسدة^(٣)؟

فقلت: تعفيني عن ذلك؟

فقال: أعدْ ذلك؛ حتى أعلمك الجذر الأصم المنطقي.

فقلت له إشفافًا عليه: أفي هذه الحالة؟

فقال لي: يا هذا.. أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون ذلك خيرًا
من أخليها وأنا جاهل بها!!

فأعدت ذلك عليه، فحفظه، وعلمني ما وعد، وخرجت من عنده، وأنا
في الطريق إذ سمعت الصراخ.

(١) الأمكال من المكول، وهي البثر التي يقلُّ ماؤها بفصل الرواسب التي تغطي قاعه (راجع:
لسان العرب مادة: مكل) المقصود هنا: أن العلم يزيل عن الوجه قناع الجهل..

(٢) كمام الأعذاق: كم الطلع، وهو برعومة الشجرة المثمرة، والكم بصفة عامة هو ما يغطي
الشيء أو يغلفه، ومنها قيل للقلنسوة: «كمة»؛ لأنها تغطي الرأس، والأعذاق بمعنى النخيل،
والمقصود هنا أن العلم يجعل ذراع المرء تطول قمم النخيل، وبالتالي فإن المقصود من العبارة أن
العلم يكشف للإنسان ما خفي من الأمور، ويجعل ما بَعُدَ منها في متناول يده.

(٣) المقصود حساب الجذور.

وأما نباهة قدره، وجلالة خطره عند الملوك، فقد بلغني من حظوته لديهم أن شمس المعالي «قابوس بن شمكير»^(١) أراد أن يستخلصه لصحبته، ويرتبطه في دار، على أن يكون له الأمر والطاعة في جميع ما يحويه ملكه، ويشتمل عليه ملك، فأبى عليه ولم يطاوعه.

ولما سمحت نفسه بذلك «خوارزم شاه» آواه في داره، وأنزله معه في قصره.

ودخل يوماً «خوارزم شاه» وهو يشرب على ظهر الدابة، فأمر باستدعائه من الحجرة، فأبطأ قليلاً، فتصور الأمير على غير صورته، ورام بالنزول. فسبقه «أبو الريحان» إلى البروز، وناشده الله تعالى ألا يفعل، فتمثل «خوارزم شاه» بقول القائل:

العلمُ مَنْ أَشْرَفِ الْوَلَاةِ يَأْتِيهِ كُلُّ الْوَرَى وَلَا يَبَالِي

(من بحر البسيط)

ثم قال: لولا الرسوم الدنياوية لما استدعيتك، فالعلم يعلو لا يُعلى عليه، كأنه سمع هذا من أخبار «المعتضد» لما طاف في البستان، وكان قد جعل يده بيد «ثابت بن قرة الحراني» إذا جذبها دفعة وخلاها.

(١) هو حاكم جرجان قُتِلَ سنة ٤٠٣هـ، وكان سبب قتله أنه كان مع كثرة فضائله ومناقبه عظيم السياسة، شديد الأخذ، قليل العفو، يقتل مع الذنب اليسير، فضجر أصحابه منه، ومضوا إليه، أي: على الدار الذي هو فيها، وقد دخل إلى الطهارة متخففاً فأخذوا ما عليه من الثياب وكان الزمان شتاء.. فمات من شدة البرد.

فقال ثابت: ما بدا يا أمير المؤمنين؟

فقال: كانت يدي فوق يدك، والعلم يعلو ولا يُعلَى.

ولما استبقاه السلطان الماضي لخاصة أمره، كان مفاوضه فيما يسنح بخاطره من أمر السماء والنجوم.

فيحكى أنه ورد عليه رسول من أقصى بلاد الترك، وحدث بين يديه بما شاهد فيها وراء البحر نحو القطب الجنوبي من دور الشمس عليه ظاهرة في كل دورها فوق الأرض بحيث يبطل الليل فيسارع على عادته في التشدد في الدين - إلى نسبة الرجل إلى الإلحاد، القرمطة على برأة أولئك القوم من هذه الآفات^(١)، حتى قال «أبو نصر بن مشكان»: إن هذا لا يذكر ذلك على رأي يراه، ولكنه عن مشاهدة يحكيها.

وتلا قوله تعالى: {وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا} [الكهف: ٩٠].

فسأل «أبو الريحان» عنه؟ فأخذ يصنّف له ذلك على وجه الاختصار، ويقرره عن طريق الإقناع.

وكان السلطان «محمود» في بعض الأوقات يُحسن الإصغاء، ويبذل الإنصاف، فقبل ذلك.

وانقطع الحديث بينه وبين السلطان.

(١) وهنا نلاحظ أيضًا مدى دفاع الشهرزوي عن القرامطة، وغيرها من الاتجاهات الباطنة التي عُرفت بفكرها عن أصول وقواعد الدين الإسلامي.

فأما ابنه السلطان «مسعود» فقد كان له إقبال على علوم النجوم، ومحبة بحقائق العلوم، فخاوضه^(١) يومًا في هذه المسألة، وهو سبب اختلاف الليل والنهار في الأرض، وأحب أن يتضح له برهان ما لم يتضح له من ذلك بعيان.

فقال له «أبو الريحان»: أنت المتفرد اليوم بامتلاك الخافقين، والمستحق بالحقيقة اسم ملك الأرض، فأخلق بهذه المرتبة إشار الإطلاق على مجاري الأمور، وتصاريف أحوال الليل والنهار، ومقدارها في عامرها.

وصنّف له عند ذلك كتابًا في اعتبار الليل والنهار بطرق تبعد عن موضوعات المنجمين، وتقرب بصورة من فهم من لم يرّض بها، ولم يعتد بها ولم يعتدها.

وكان السلطان الشهيد قد مهر في العربية.. فسهل وقوفه عليه، وأجزل إحسانه إليه.

ولذلك فقد صنّف كتابًا في «لوازم الحركتين» بأمره، وهو كتاب جليل لا يزيد عليه مقتبس، أكثر كلماته عن كتاب الله تعالى.

وكتابه المترجم «بالقانون المسعودي» يغني عن أثر كل كتاب في صنعة تنجيم أو حساب.

وكتابه الآخر المنعوت «بالدستور» الذي صنّفه باسم شهاب الدولة «أبي الفتح مودود بن السلطان الشهيد» مستوفي المحاسن.

(١) المقصود: فخاوض معه.

أبو علي عيسى بن أحمد بن زرعة الفيلسوف^(١)

كان حكيماً منطقياً كاملاً، وكان على دين «المسيح»، وهو آخر من يُرتضى نقله لكتب الحكيم «أرسطاطاليس» «البسائط والجوامع».

وقد أثار الوهج فيما نقله من جوامع «نيقولاولوس»، وكتاب «جالينوس» في منافع الأعضاء، وغيره (من الكتب)، ومما ترجمه من كلام «أرسطو» قوله:

- «الإنسانية: أفق، والإنسان: متحرك إلى أفقه بالطبع، ودائر على مركزه، إلا أن يكون مثوقاً^(٢) بطبيعته، مخلوطاً بأخلاق بهيمية.

ومن رفع عضاه عن نفسه، وألقى حبله على غاربه، وسيب هواه إلى مرعاه، ولم يضبط نفسه عما يدعوه إليه طبعه.

وكان لئن العريكة لاتباع الشهوات الردية فقد خرج عن أفقه (وصار أرذل من البهيمة بسوء إثارة).

وهذا آخر ما ترجمه من هذا الفصل، وهو كما ترى وعظ بحكمة، وإيقاظ برأفة، وتعليم بنصيحة، وإرشاد ببيان.. وهو كلام في غاية الحسن، وكل الأوائل والأواخر يأملون بهذا.

(١) هو أبو علي عيسى بن إسحاق بن زرعة بن مرقس بن زرعة بن يوحان النصراني المنطقي، ولد ببغداد سنة ٣٣١هـ وهو أحد النقلة المجودين، وله تصانيف كثيرة منها: كتاب اختصار كتاب أرسطاطاليس في المعمور من الأرض مقالة، كتاب في العقل مقالة ولم يخرج، ومما نقله من السريان كتاب النميعة مقالة، كتاب الحيوان لأرسطو، وتوفي ٣٩٨هـ.

(٢) من الأوف، وهو العاقبة، يقال: طاعم مثوف، أي: أصابته عاهة.

وروي هذا «للحسن البصري»، و«منصور بن عمار»^(١) فسرا بها، وما زاد على ذلك.

وقد اتفقت الأوائل والأواخر كلها على «أن» إصلاح السيرة، وتصحيح الاعتقاد، والسعي فيها: أثمر وأجدى، والإعراض عن كل ما شغل البال، وألهى، وأثار الشهوة لتبلغ النفس غايتها، وتستعد في عاقبتها.

ولا يكون لها عكس في هذا العالم، ولا تزدد على ما قد خوف من ذلك كثيرة منهم.

وله (رسالة) في أن علم الحكمة أقوى الدواعي إلى متابعة الشرعة، منها: من زعم أن الحكمة تخالف الشرعية فهي مفسدة لها مقدمة غير كلية، وتقريرها: أن الحكمة مخالفة للشرعة، وكل ما هو مخالفة للشيء مفسد له.

والكبرى غير كلية؛ فإن الخلاوة تخالف البياض ولا تفسده، والصورة تخالف المادة ولا تفسدها، وإذا كانت غير كلية فلا يستنتج القياس.

ومن قال: «إن الناظر في المنطق مستخف بالشرعة، فإن ذلك القائل طاعن في الشرعة؛ لأن كلامه في قوة قول من قال: إن الشرعة لا تثبت عند البحث والتحقيق».

ومنزلة منزلة رجل حامل الدراهم^(٢)، المبهرجة التي يهرب^(٣) معها من

(١) من المعروف أن الحسن البصري، ومنصور بن عمار كانا في وقت متقدم بكثير عن ابن زرعة الذين نسب إليهم الشهرزوي هذه الأقوال، بل وعصر ازدهار ترجمة كتب فلاسفة اليونان.

(٢) في نسخة أخرى: الدرهم: والمقصود بالدراهم المبهرجة الدراهم المزيفة.

(٣) في نسخة أخرى: تظهر.

النفاذ^(١)، ويأنس بمن ليس من أهل المعرفة.

فمن قال: إن الحكمة تفسد الشريعة.. فهو الطاعن في الشريعة، لا المنطقي الذي يميز بين الصدق والكذب.

وقال: قرأت لفيلسوف قبل سقراط قولاً له: ارتفاع موضع العقل على سائر الحسنات التي هو المدبر لها، كارتفاع موضع العينين على سائر الأوصال التي يسير بها، ويهتدي بهدايتها.

وقال أبو علي: قال سقراطيس لتلميذه له: أقبل على إصلاح ما فيك من الفساد بمعونة ما فيك من الصلاح.

وقال أبو علي: إيماء هذا إلى تقسيم الإنسان بين الطبيعة والنفس: فما فيه من الصلاح فمن ناحية نفسه، وما فيه من الفساد، فمن ناحية طبيعية، فحث بكلامه هذا على الاستعانة بالمنطق الذي للنفس على السفه الذي للطبيعة حتى ينمحق ويفني أثره، ويكون كأنه لم يجد.

وكما قد تكون بعض الناس لغلبة العقل وأفعاله فيه، كأنه بلا طبيعة، والرياضة موضوعة لهذه الغاية، الاجتهاد واقع من أجل هذه الآفة.

وقال أبو علي: قال «حنين»، و«ثابت بن قرة»: إن «النقطة، والآن، والوحدة» بارزة على المقولات العشر.

(١) النفاذ، أي: المنافذ الذي يحتاج صاحبه حتى يقطع حجته، والمقصود به هنا المحقق الذي يثبت من أموره، وتعني أيضًا معنى النفاذ، وهو الماضي في جميع أموره، ومن شأن من هذه صفته أن يكشف زيف تلك الدرامم.

قال: وهذا كذا؛ لأن وجود هذه الأشياء في غاية اللطف، والعلو، والشرف من أي وجه والجلالة، فلم تحط بها مقولة ولم يجد لها رسم.

فقال له البخاري: فمن أي وجه شعرنا بها؟

قال: أوما إليها العقل إيباء.. والآن هو نقطة، ولكن في الزمان، والوحدة نقطة، ولكن في العدد النقطة والآن، ولكن لا في موضع ولا تحت شيء معروف.

وذكر ذلك الحكيم في بعض تصانيفه عن «أرسطو» أنه قال: إني ربما خلوت بنفسي كثيرًا، وخلعت بدني، فصرت كأني جوهر مجرد بلا بدن، فأكون داخلًا في ذاتي وخارجًا عن سائر الأشياء سواي، فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعًا، فأرى في ذاتي من الحسن وإليها، والنساء، وأبقى متعجبًا باهتًا.

فاعلم ند ذلك أني جزء صغير من أجزاء العالم الأعلى الشريف، وأنني ذو حياة فعالة.

فلما بقيت كذلك ترقيت بذهني من ذلك العالم إلى العوالم العلية الإلهية، فصرت كأني موضوع فيها معلق بها، فأكون فوق العالم العقلي.

فعند ذلك يلمح لي من النور والبهاء.. فأرى كأني وقفت في ذلك الموقف الشريف، وأرى هناك من البهاء والنور ما لا تقدر الألسن على وصفه، والأسماع على قبول نعته، فإذا استغرقني الشأن، وبلغت طاقتي، وغلبني ذلك النور والبهاء، ولم أقدر على احتماله، هبطت من العقل إلى عالم الفكرة، وحجبت الفكرة عني ذلك النور فأقضي عجبًا، أي كيف انحدرت من هذا العالم.

وعجبتُ أني كيف رأيت نفسي ممتلئة نورًا، وهي مع البدن كهيتها.
 فعند ذلك تذكرت قول أخي «هيراقليطس»^(١) حيث أمر بالطب،
 والبحث عن جوهر النفس الشريف بالصعود إلى عالم القدس^(٢).
 وهذا الكلام له طويل، وهو يروم أن يكتب هذه المقالة اللطيفة، فيمنعه
 العجز الكتابي عن إدراك ما عنده منها^(٣).
 ومن شعره:

فعلام أكثر حسرتي ووسواسي الجوع يدفع بالرغيف اليابس
 بين الخليقة والفقير البائس الموت أنصف حين سأرى حكمه

(من بحر الكامل)

(١) أرقليطوس.

(٢) في نسخة أخرى: العقل.

(٣) هذا النص مقتطف من كتاب التفاحة، الذي نسبه المسلمون خطأ إلى أرسطو، ثم اتضح أنه جزء من تاسوعات أفلوطين (التساعية الرابعة في النفس).

أبو الحسن بن زهرون الحراني^(١)

طبيب ماهر، وحكيم متفلسف، الغالب عليه علم الرياضة والطب.

وقال: عليك في مشورتك بالخير العالم غير الحسود.

فإن الجبان يضيّق الأمور.

والبخيل يُقصر في طلب الغايات.

والحريص يطلب الأمور من غير استكمال الآلات^(٢) والأسباب.

(١) هو أبو الحسن ثابت إبراهيم بن زهرون الحراني، طبيب بارع، كثير الدراية وافر العلم بارعاً

في الصناعة موقفاً في المعالجات، وله من الكتب: إصلاح مقالات من كناش يوحنا بن سراييون،

وجوبات مسائل سئل عنها.. إلخ، ت، ببغداد سنة ٣٦٥هـ.

(٢) في مخطوط آخر: الآيات.

ابن سيار الطبيب^(١)

كان حكيماً طبيياً، وكان يعالج أصحاب الحميات معالجة شافية.
وله تصانيف في الحكمة والطب، وكان في صناعة المنطق من الظاهرين.
ومن كلماته: لا يرجى نيل معالي الأمور بكثرة الأعوان، لكن بِصُلحاء
الأعوان.

(١) هو أبو طاهر موسى بن يوسف بن سيار، من الأطباء المشهورين بالحدق، وبجودة المعرفة بصناعة الطب، ومن آثاره، مقاله في القصد الزيادة التي زادها في كناش الخف لإسحاق بن حنين.

أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني^(١)

مصنف كتاب «صیوان الحكمة»^(٢)، كان حكيماً له تصانيف كثيرة، أكثرها في المعقولات.

منها رسالة في «اقتصاص طرق الفضائل».

ورسالة في «المحرك» الأول.

ولما قدم «ابن العميد»^(٣) إلى بغداد وجّه من يحركه لزيارته فأبى^(٤).

وقال: إن فيلسوفاً من يونان دعاه ملك إلى مثل ذلك. فاستعفى من الحضور.

فقليل له: في ذلك؟

(١) هو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني المنطقي، نزيل بغداد، كان فاضلاً في العلوم الحكيمة، متقناً لها، وله أيضاً نظر في الأدب والشعر، ومن مؤلفاته، رسالة في مراتب قوى الإنسان، رسالة إلى عضد الدولة.. إلخ، راجع الفهرست: ص ٣٦٩ الأخبار، ص ١٨٥، عيون الأنباء ص ٤٢٧.

(٢) ح: ديوان الحكمة لقد فقد هذا الكتاب، ولم يبق منه إلا متخبات لمؤلف مجهول، كذلك تنمة صوان الحكمة لظهير الدين البيهقي العالم الفارسي (المتوفى ٧٥٠هـ - ١١٧٥م) ومنها نسخ بمكتبات استانبول واكسفورد وبرلين، وتوجد بدار الكتب المصرية نسخة مصورة بالفوستات برقم ٢٦٦٣، ونسخة مكتبة كوبريلي برقم ٩٠٢.

(٣) المقصود هو أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة البويهبي (وردت ترجمته فيما سبق).

(٤) في مخطوط آخر: فمال.

فقال: إن الملوك يعرض لهم ما يعرض لمن بُصِّر بصورة، فإنه ما دام يراها من بعيد فهو يعجب بها، فإذا هو دنا منها لم ير موضع تعجب.

ثم قال: إن السامع بحديث من يذكر، يقتني بعقله صورة عقلية نقية شريفة بهية.

فإذا تبدل البصر ذلك المذكور حطه^(١) إلى الصورة الطبيعية والصورة الطبيعية في المشايخ^(٢)، وأهل الفضل مخطوطة^(٣) عن الصورة العقلية، فيعرض للناظر إلى من يسمع به مما تحدث فيه زاوية^(٤).

إلا أن يكون السامع عارفاً بذلك الأمر، بحيث إذا رأى تلك الصورة لا تنحط عن العقلية إلى الصورة الحسية^(٥).

وهذا^(٦) رجل فاضل متأله غزير العلم، تام الحكمة، أخذ عن «يحيى بن عدي»، وله نظر في الأدب والشعر.

(١) في مخطوط آخر: حطة.

(٢) في نسخة أخرى: المشايخ.

(٣) في نسخة أخرى: مخطوطة والمقصود أن الصورة الطبيعية أقل شرفاً من الصورة العقلية.

(٤) في نسخة أخرى: ما بين القوسين.

(٥) من المحتمل أن يكون السجستاني في بيانه بازدرء عوام الناس للصورة الحسية قياساً بما يكون قد ثبت في مخيلتهم من الصورة العقلية، قد تأثر بها كان هو شخصياً يعانيه، فقد كان على ما أورد «الفطحي» أعور وبه برص، ولذلك انقطع عن الناس ولزم منزله، فلم يكن يأتيه إلا طالب علم أو مستفيد، ولم يكن يغادر منزله إلا قليلاً، وكان «أبو حيان التوحيدي» هو الذي ينقل إليه أخبار ما يحدث في المجتمع، وما يدور في مجالس الرؤساء.

(٦) يقصد السجستاني.

ومن شعره:

لا تحسدن على تظاهر نعمة شخصاً تبيتُ له المنونُ بمرصدٍ
أوليس بعد بلوغه آماله يفضي إلى عدم كأن لم يوجد
لو كنت أحسد ما تجاوز خاطري حد النجوم على بقاء السرميد

(من بحر الدوييت)

ومن كلامه: الحسود لا يُرجى الاستمتاع به، وكيف يُرجى الاستمتاع بمن
مضرته تنال القريب فضلاً عن الغريب؟

و«أبو سليمان» المصنّف «لصوان الحكمة» كان في أيام شبته يتعاني الفقه،
متمسكاً بطريقة العفاف والسداد.

وكان يتناول من الشراب المختلف على مذهب «أبي حنيفة» لكونه حنيفياً،
صحب «أبا جعفر بن بابويه»: ملك سجستان.

وذكر «أبو حيان» أنني رأيت «أبا سليمان» هذا في المنام، كأنه غائض في
نور على غير الهيئة التي كنت أراه عليها في الحياة.

فقلت: يا سيدي.. إذا كنت من الهيولي والصورة، كيف أصبر مع
أحديهما، وأترك الأخرى، وأنا بهما ومنهما!!

فقال لي: كما تصبرُ مع أهلك وتهرب من أمك؛ لعلمك أن أباك أهدي إلى
مصلحتك، وأعرف بوصول الفائدة إليك، وأنظر لك في جميع أحوالك.

قلت: صدقت يا سيدي، إلا أنني بالهيولي أكثر.

فقال: أنت بالهيوالي أكثر طيناً، وبالصورة أكثر عقلاً، وقليل القوى أكثر وأجدى في كثير الضعف، فكيف كثير القوى مع قليل الضعف؟!

حكى «أبو سليمان» ببغداد سنة سبعين وثلاثمائة «للهجرة»، أنه رأى «يحيى بن عدي» في المنام، فقال: شهدت يا «أبا سليمان» أني رأيت «أرسطو» في المنام.

فقلت له: أيا حكيم العالم، بِمَ نلت هذا؟

فقال: بمعرفة الإله تعالى الذي هو سبب كل خير، وكنت في العلة التي ذكرتها أسمع أشياء، في نعت الإله تعالى، وكانت تروقني، ويشتد بها إعجابي، وكنت أرى أني قد فهمتها^(١).

ووعيتها وأردت أن أكتبها، فأقول: كيف أكتب ويدي لا تطاوعني ضعفاً، ثم لا حاجة لي إلى كتابتها وقد عرفتُها (وكنت أنمق ذلك بإعادتي في تلك الحال التي كانت تعاقب ذلك الذهول والعرق بشرارة العلة واحتدادها).

فلما أملت فقدت ذلك كله، وبقي معي شيء واحد وهو أنه قيل لي: لن يذوق أحد حلاوة الفلسفة الأولى - وإن كان راضياً عن نفسه - بفضله، رضىً عند إخوانه بأدبه حتى يسمع باللفظ ما له حدٌ، ويحدُّ بالعقل ما لا حد له^(٢).

(١) في نسخة أخرى: ثقفتها.

(٢) تردد هذا الحلم على لسان الخليفة المأمون، وكان في نظره هو سبب طلبه كتب الفلسفة بعد أن أمره أرسطو بذلك في منامه، والحق أن هذا الحلم مأخوذ من التامسوعات، ويوجد نصه في

وكنْتُ أرى أن الذي سمعتهُ كان أبسط من هذا وأشد تفتُّحاً إلا أني حصلت ما كتبه لك.

وسمعتُ قائلًا يقول: طيب يا هذا بيتك الذي أنت فيه ساكن حتى تنعم، ولا يجاوزنَّك فيه من لا تأمن غائلته حتى تسلم.

وسمعتُ أيضًا: ما أسهاك^(١) عن مبادئك وأغفلك عن آخر حالك!! وما أجبلك^(٢) للفساد بين هذا وذاك!!

وخرج «أبو سليمان» يومًا ببغداد إلى الصحراء في الربيع للتفرُّج والمؤانسة مع أصحابه، ومعهم صبي دون البلوغ، جهم الوجه بغيض الحياء، إلا أن صوته كان في غاية الحُسن وأطرافه حلوة، ومعه جماعة شتَّى من^(٣) فتيان المحلة كلهم أدبًا.

فلما تنفس الوقت أخذ الصبي في قته، وبلغ أقصى ما عنده فترنح أصحابه وطربوا.

فقال أبو زكريا الضُّميري: قلت لصاحب لي: أمَّا ترى ما يعمل شجا هذا الصوت، وندى هذا الحلق، وطيب هذا اللحن، وتفنَّن هذا النغم؟

فقال: لو كان لهذا من يخرج به ويعني به، ويأخذه بالطرائف المؤلفة،

أنولوجيا أرسطاليس، وأول النص كما يذكر «بول كراوس»: إني إذا خلعت قميصي رأيت أفلاكًا علوية.

(١) في مخطوط آخر: أنهاك.

(٢) في مخطوطة: أحلمك.

(٣) في نسخة أخرى: واستدركها بالهامش.

والألحان المختلفة، لكان يظهر آية، ويصير فتنة، فإنه عجيب الطبع، بديع الفن.

فقال «أبو سليمان»: حدثوني عن الطبيعة لِمَا احتاجت إلى الصناعة، والصناعة محاكية للطبيعة، وهي تروم اللحاقُ بها والقربُ منها وهي دونها. وهذا رأي صحيح، والصناعة إنما حاكت الطبيعة، وتبعت رسمها، وقفت أثرها لانحطاط رتبها عنها.

وقد زعمت أن هذا الصبي لم تكفه الطبيعة، بل احتاجت إلى الصناعة؛ ليكون الكمال مُستفادًا بها، ومأخوذًا من جهتها، والغاية عن بلوغه بمعونتها. وقلنا له يومًا: ما ندري، وإنها لمسألة؟

قال: ففكروا.

فقلنا له: لو مننت بالبيان، ونشطت لنشر الفائدة، كان ذلك محسوبًا في بعض أياديك، وعوّد فضائلك.

فقال: إن الطبيعة إنما احتاجت إلى الصناعة في هذا المكان؛ لأن الصناعة هنا تستملي من النفس والعقل، وتُملي على الطبيعة.

وقد صَحَّ أن الطبيعة مرتبتها دون مرتبة النفس والعقل، وإنها تعشق النفس، وتقبل آثارها، تمثل أمرها، وتكتب ياملائها، والموسيقى حاصل للنفس وموجود فيها على نوع لطيف، وصنف شريف.

فالموسيقار.. إذا صادف طبيعة قابلة، ومادة مستجيبة، وقرينة مواتية، وآلة منقادة، أفرغ عليها بتأييد العقل والنفس لبوسًا مؤنقًا، وتأليفًا معجبًا،

وأعطاهما صورة معشوقة، وحلية مرموقة.

وقوته في ذلك تكون بمواصلة النفس الناطقة، فمن ها هنا احتاجت الطبيعة إلى الصناعة؛ لأنها وصلت إلى كما لها من جهة النفس الناطقة بواسطة الصناعة الحاذقة التي من شأنها استعلاء ما ليس لها، وإملاء ما يحصل فيها استكمالاً بما تأخذ وإكمالاً لما يُعطى.

فحينئذ شكره «البخاري» وأثنى عليه، فقال:

«هدايتكم اقتبست» وبحجركم قدحت، وإلى ضوء ناركم عشوت، وإذا صفى ضمير الصديق للصديق، أضاء الحق بينهما، واشتمل الخير عليهما، وصار كل واحد منهما رداء لصاحبه وعوناً على قصده وسبباً قوياً في بُل إرادته، ودرك بغيته، ولا عجب من هذا؛ فإن النفوس تتقادح، والعقول تتلاقح، والألسنة تتفتاح، وأسرار هذا الإنسان الذي هو العالم الصغير في هذا العالم الكبير كثيرة جمة، وبهذه الأشياء تصل إلى تلك الغايات وتجنّي تلك الثمرات.

وأول هذا الأمر وآخره بالله، وفوائد هذا الاجتماع كثيرة ظاهرة الشرف واسعة مبينة.

لكن يحتاج الناظر في هذا النمط إلى عنايته بنفسه في طلب سعادته، ودعائه لحاله في السلوك إلى غايته من غير تلفت إلى الحسن.

عيسى بن علي بن عيسى بن الجراح^(١)

كان هذا الشيخ كبيراً في علم الأوائل، جامعاً لفنون الفضائل، وهو ابن «علي بن عيسى الوزير»، وكان مع توجهه في هذه العلوم، له رأس مال في علم الحديث، وعلوم الإسناد والمعرفة بالقرآن، وسائر الآداب والمحاسن.

وكان ملازماً لبيته، صائناً لنفسه.. إلى أن مات مشغلاً بالإفادة والتدريس على رثائه حاله، وكبر سنه.

قال: ترجمت من كلامهم -يعني: الفلاسفة- أشياء منها قول بعضهم: لأن تستغن عن الشيء وتكفاه، خير من أن تحتاج إليه وتُعْطاه، ومنها قول آخر: العاقل بخشونة العقل، أنسُ منه بلين العيش مع السفاهة.

ومنها: إذا كان الصياد يحتال للطير؛ حتى يستنزله من جو السماء، والسمك حتى يستخرجه من جو الماء، والسباع والطير حتى يألفه.

فلم لا يحتال العاقل للإنسان حتى يؤاخيه ويصافيه؟

وقال فيلسوف: لذات الدنيا ست.

ثلاثة تُمَلُّ، وهي: «الأكل، والشرب، والنكاح».

وثلاثة لا تُمَلُّ، وهي: «الطيب، واللباس، والسباع».

(١) هو عيسى بن علي بن عيسى بن داود بن الجراح، مطلعاً بعلوم الأوائل، وخاصة المنطق، وهو حجة في النقل والترجمة والتصرف في فنون اللغات، وضروب المعاني العبارات، وخدم بعض الخلفاء، ومن مؤلفاته «الأمالي»، توفي ببغداد سنة ٣٩١هـ.

غلام زحل وابن سلس^(١)

قال غلام زحل: السماء هي الجسم الذي فيما بين نهاية كرة القمر إلى نهاية كرة العالم، وجميع أكرُ السماء على ما صح عندنا تسع أكر أقربها إلينا كرة القمر. وسمعت بعد هذا «ابن سلس» كان يقول: دون فلك القمر فلكان هما سبب المد والجزر، يقطعان الفلك في كل يوم وليلة مرتين.

وكان هذا من آرائه التي انفرد بها، ولم أجد أحدًا يوافقه على هذا. والعجب من هذا الرجل أنه كيف خالف الأوائل الذين أقاموا البرهان على خلاف دعواه:

فالصناعة برهانية، ولا برهان له على إثبات هذين الفلكين. وله أيضًا أشياء^(٢) أخرى أنشأها رأيًا من تلقاء نفسه، وأعجب لها إعجابًا شديدًا، ودعا إليها في الطبيعيات والإلهيات. وقد ذكر «أبو حيان» هذه الآراء في رسالة له إلى بعض إخوانه. ومات هذا الرجل، أعني: أبا سعيد صاحب هذه الأقوال لتسع خلون من ذي القعدة سنة ست وثمانين وثلاثمائة.

(١) هو أبو القاسم عبد الله بن الحسن المعروف بغلام زحل، مقيم ببغداد، من أفاضل الحسّاب والمنجمين أصحاب الحجج والبراهين، وكان صديقًا لأبي سليمان المنطقي، وله من الكتب: كتاب التيسيرات مقالة كتاب الشعاعات مقالة، كتاب أحكام النجوم... إلخ.

(٢) في مخطوط آخر: آراء.

أبو تمام النيسابوري^(١)

هو من فحول الحكماء والمبرزين في هذه الصناعة، وتصانيفه كثيرة، منها: رسالة في الحدود، ما صنف أحد مثلها، ومن كلماته: قال بعض الحكماء الحركات الطبيعية: (ست: حركة الكون، وحركة الفساد، وحركة الذبول، وحركة الاضمحلال، وحركة الانتقال، وحركة الاستحالة...

ولكل حركة فعل خاص من الأفعال الطبيعية).

وكذلك لكل حد من الحدود الستة شرف، وفضل، وعلم، وأدب، وعمل يدل على قوتها وكمالها.

قال الأستاذ برهان الحق: «فخر الدين الغضنفر»: أفاض الله على نفسه تقديسًا.

ليس قول القائل: إن للأوائل برهانا على خلاف دعوى الرجل بحق، ولا مطابق لما اعتقده المبرزون.

ولا موافق لقول الحكيم «أرسطو» عند تجويزه كون الأكر أكثر من السبعة.

(١) لم نجد ترجمة دقيقة لأبي تمام هذا، وخصوصًا أن تلك الترجمة التي أوردها الشهرزوري ليس بها ما يساعد على التحقق بدقة من تلك الشخصية، وعمومًا فقد يكون المقصود هو تاج العلماء النيسابوري المتوفى ٣٣٥هـ - ٩٤٦م، وقد كان فقيهاً متكلمًا يتحلل مذهب الإمامية، ويقول بالرجعة.

ولا «أفلاطون»، و«بطليموس» عند إنسابهم الحركة إلى الميسورات.
ثم إن الرجل وهو صاحب الجامع الأكبر وغيره، هو أعظم قدرًا، وأجلُّ
خطرًا في أن يُظنَّ به أن يجازف، أو يغلط.

بل.. هو في الطبقة العليا من الحكمة، وخاصة في الأقسام الرياضية
التعليمية^(١).

وله رتبة الاستقلال والتفرد^(٢)، في النظر والمقال، ومن له فطنة وقوة تميز
بعد إحاطة بعلوم الأوائل والمحدثين، يتحقق عنده أن الرجل أعظم قدرًا من
أن يبطل قوله بقوله غيره من غير عكس.

قال كاتبه: نقلته من خطة قدّس الله تعالى سره، وأما البديهي فإنه صحب
«يحيى بن عدي» دهرًا طويلاً.

وقال: الوجود وجودان (حسي، وعقلي)، ولكل واحد من هذين
الوجودين وجود بحسب ما هو به موجود: إما حسي، وإما عقلي.

فعلى هذا النفس لها عدم في أحد الوجودين وهو الحسي، ولها وجود في
القسم الآخر، فتستنبط وتعقل وتستبطن وتنظم المقدمات.

وتدل على ما يتبع المعلومات، ويعلو إلى غاية الغايات، وليس للحس
معها شركة ولا له عندها معونة.

ثما قال: وكيف لا تكون النفس كذلك، وجوهرها أعلى، وخاصيتها

(١) في مخطوط آخر: العلمية.

(٢) في نسخة أخرى: الفرد.

أسنى، وهذه الأشياء عنها أبعد وعن شرفها أهبط.

ثم قال: ولطائف الحكمة لا يصل إليها الحسي الجافي والغليظ الجلف، وإنما يصل إليها من صح ذهنه واتسع فكره، ودقّ بحثه ورقّ تصفّحه واستقامت عادته، واستثار عقله، وعذبَ بيانه، وقرب إتقانه..

وقيل له: هذا عزيز جد.

فقال: كما أن المتشبه في هذا عزيز جدًّا.

الهوشجائي

قال يوماً وعنده جماعة من أصحابه: قد وضح بالعبارة الصحيحة، والتصفيح الشافي، والنظر البليغ، أن الفاعل الأول هو علة كل ما يُرى ويوجد ويعقل ويحس، لا قصد له في أفعاله، ولا مزاوله، ولا محاولة.

فقال له بعض الحاضرين: لو أيدت هذا ببرهان ساطع، أو بديل مقنع.. كنت قد شيدت ما أسست.

فقال: لأجل كل هذه دخلت أفعالنا لعجزنا، وفشلنا، وانحطاطنا، وضعف وسائلنا، وبطلاننا، فانجبرت مكاسراتها، وتمت مناقصتنا بمواصلتها، وانسدت معاقرنا باستعمالها.

فأما «البارئ الحق» الذي هو واهب كل كامل كماله، وجابر كل ناقص نقصه، فهو على غير هذه الأغراض والعلل.

فقال له السائل: فكيف اتفقنا على أنه منعوت بالحكمة، وأفعاله على ما زعمت؟ فكيف التخلص من هذا؟

فقال: لعمرى.. إن إيضاحه لصعب.

ثم صَنَّفَ في ذلك رسالة طويلة لا يليق ذكرها هنا.

أبو القسم الأنطاكي المسمى المجتبى^(١)

قال: الموت الطبيعي لا محيص عنه، وقد قامت الشهادة عليه من الكفاءة،
والحياة الطبيعية.

فحياة العقل بالعقل، والموت العرضي «هو» الجهل الشائع في الإنسان،
والحياة العرضية.

فحس الإنسان وحركته، بسلامة بدنه، وسكون أخلاطه، وقوة طبيعته،
وتصرف سائر ما هو مركب من جهله.

ثم قال: ومن فتح الله «عليه» نصر عقله، ولحظ هذه الخلائق، فترقى في
درجات المعارف، وسلام الفضائل، وانتهى إلى أفق الروح والراحة، ونجا من
هذه المعادن التي هي معادن العطب والتلف ومساكن الآفات والإهلاك.

وتفخر في هذا العالم بكل كلام شريف، وكل موعظة حسنة.

وكان من القادرين على أمثال ذلك، ومن أيده الله بتوقيقه ومعونته.

(١) هو علي بن أحمد الأنطاكي أبو القاسم المجتبى، من أهل أنطاكية، واستوطن بغداد إلى أن
توفي بها، وكان من أصحاب عضد الدولة بن بويه، وله اهتمامات كثيرة بعلم العدد والهندسة،
وكان مُشاركًا في علوم الأوائل، ومن مصنفاته: كتاب التخت الكبير في الحساب الهندي، كتاب
الحساب على التخت بلا محو، كتاب الموازين العددية، توفي سنة ٣٧٦هـ.

الحكيم أبو الحسن بن رامناس العوفي

وهو من أصحاب (إخوان الصفا)، له رسالة لطيفة في أقسام الموجودات، وله تصانيف أخرى.

قال: البيضة صارت رطبة لغلبة الماء والهواء والنار عليها، ونقصان طبيعة الأرض، فصفرة البعض تشبه طبيعة الهواء، وبياضها يُشبه طبيعة الماء، ولذلك يطير الطائر، والمادة الترابية فيه أقل.

ولذلك ... لم يُخلق له الإنسان، والأطواس، والفرخ من البياض، والصفرة غذاؤه، والحضانة في الطير معينة للقوة المولدة.

وقال: من لم يكن خيراً متخلقاً بأخلاق الحكماء، فلا خير لأحد في علمه.

وقال: اجعل من حسن الظن بالله نصيباً مفروضاً.

وقال: الفضائل مبدأ الخيرات، والردائل أساس الشرور.

وقال: الرجوع عن الصمت خير من الرجوع عن الكلام، والإقدام على العمل خير من بعد التأني.

احذر من الإمساك بعد الإقدام عليه.

وقال: بالمشورة تضاف العقول إلى عقل واحد.

و «أبو القسم الأنطاكي»، وهو المجتبى، و «أبو زكريا الضميري»، و «طلحة النسفي»، و «وهب بن يعقوب الرقي»، و «نظيف الرومي»، و «أبو محمد العروضي».

فكانوا حكماء أفاضل لم نظفر بتواريخهم على ما ينبغي، وكانت أزمانهم متقاربة.

أبو إسحاق الصابئ، وابن عمه أبو الخطاب الصابئ^(١)

وأما أبو إسحاق الصابئ، وابن عمه أبو الخطاب الصابئ، فكانا من الحكماء والفضلاء.

وأما في الأدب فمن المشاهير، قال «أبو حيان»: سمعت أبا «إسحاق الصابئ» الكاتب يقول «لأبي الخطاب»: اعلم أن المذاهب والمقالات والنحل والآراء، وجميع ما اختلفت الناس فيه وعليه كدائرة في العقل.

فمتى فَرَضَ فيها قول، وجُعل مبدأ الأقوال انتهى منه إلى آخر ما يمكن أن يقال.

فليس من قولٍ إلا وقد قيل أو يقال، وليس من فعلٍ إلا وقد فُعل، أو سيفعل، وليس من شيء يُعلم إلا وقد عَلِمَ أو يعلم.

وهكذا في الظنِّ والرأي وغير ذلك، وهذا عام في كل شيء، وذلك أنك لا تشير إلى رأي وتتحيله، إلا أمكنك أن تَظُنَّ به كل ما ظنَّ وَيُظَنُّ، وتقول كل ما قيل ويقال.

وإنما يضيق فهم أحدنا يتفسح مشرب الآخر؛ لأن الخاطر يسنح مرة، ولا يسنح مرة.

والقلب يتسع مرة ولا يتسع مرة، واللسان ينطلق مرة، ولا ينطلق أخرى.

(١) محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق أبو الحسين بن الصابئ «توفي عام ٦١٩هـ» صاحب ديوان الإنشاء.

فقال أبو الخطاب: هل للخواطر والألفاظ، والخيالات والآراء، والمقالات نسبة إلى المزاج، والطبيعة والهواء إلى العناصر بالجملة.

فقال: نعم لها نسبة قوية، وعلاقة شديدة، ورباط متين إلى هذه الأمور التي تبطن فيه، أو تطيف به، أو تطل عليه (ولا سبيل مع ذلك إلى اتفاق الناس في حال من الأحوال)، ولا سبيل من السبل، ولو أمكن ذلك لوجد.

ألا ترى أنه لا سبيل إلى أن يكون الناس كُلُّهُمْ طوال القدود أو قصارها، أو ضخامُ الرءوس أو صغارها، وفُصحاء الألسن أو لُكنها، وعلى مذهب واحد، ومقالة واحدة، كيف يكون هذا، أو يُظن؟!

والطبيعة إنما تعطي صورتها لكل شيء بحسب قبوله وتهيته ومواتاته. فليس الزائد من عطية الطبيعة، ولكن على قدر قبوله، وصلابة الحجر من عطية الطبيعة، ولكن على قدره.

فاختلاف الصور إنما نشأ من جهة اختلاف المواد، وهذا أصل لا أصل له، وعلة لا علة لها؛ لأنه لم يفعله فاعل على ذلك.

بل الصورة من شأنها هذا، والمادة من شأنها ذاك، والأمر مثبت على سنن ما نرى.

فعلى هذا كل أحدٍ ينتحل ما شاء له مزاجه، ونبض عليه عرقه، وعُجِنَ به طبيته، وجرى بعد ذلك دينه ودأبه.

أبو الفتح البستي^(١)

كان حكيماً شاعراً من خدم الملوك السامانية، وتُدعى الأمير «خلف بن محمد».

واستخدمه الأمير «ناصر الدين سبكتكين»، فقال له أبو الفتح: لا تشق بي إلا بعد أن تجربني، فإن التجربة نزيل الشبهة.

وعاش إلى أيام السلطان «محمد بن محمود»، وخلع عليه هذا السلطان مراراً.

وقيل: هو كاتب «بانطور صاحب بست» فاستحضره الأمير «سبكتكين». وكان كاتب السلطان «محمود» مدة، ثم اتفق له مفارقة «خراسان» مع الخاقانية.

وتوفي وراء النهر.

ومن كلام «أبي الفتح» في أشعاره قوله:

وللأمور مواقف مقدرة	وكل أمر له حد وميزان
فلا تكن عجلاً في الأمر تطلبه	فليس يحصل قبل النصح بجران
يا أيها العالم المرصّي سيرته	أبشر فأنت بغير الماء ريان

(١) هو أبو الفتح علي بن محمد البستي، الشاعر المشهور، قال عنه ابن خلكان: إنه صاحب الطريقة الأنيقة، والتجنيس الأنيس البديع التأسيس، توفي ببخارا سنة ٤٠٠هـ وقيل: سنة ٤٠١هـ.

يا خادماً الجسم كم تسعى بخدمته أطلب الربح فيما فيه خسرانُ
عليك بالنفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ

(من بحر الوسيط)

الأمير السيد زين الدين إسماعيل أبو الحسن الجرجاني^(١)

أحيا الطب، وسائر العلوم بتصانيفه اللطيفة، وكان مرتبطاً بخوارزم شاه
«إتزن بن محمد بخوارزم» مدة، وكتبه مباركة.

وكان لطيف المعاشرة، حسن الأخلاق، وهذه الرسالة له:

مالي أراك يا أخي -أيديك الله، وإياي بتوفيق- شديد السكون إلى هذه
الدنيا الزائلة والدار الفانية^(٢)، كثير الميل إلى تربية هذا الجسد المظلم الكثيف
الذي هو أجمع مركب، وأخبت مسكن للنفس.

سهل الانقياد لقوتيك الغضبية والشهوانية اللتين يحرك إحداهما إلى
السبعية، والأخرى إلى البهيمية، صعب القيادة، عسير الإجابة لقوتك العاقل
التي تؤويك جنة المأوى وترقيك الدرجة العليا، لعلك قد انخدعت.

بل.. اغتررت بمباشرة هذه اللذات كلها في الحقيقة آلام، وأي آلام؟!

(١) هو إسماعيل بن حسين زين الدين الجرجاني، من أهل جرجان، له مصنفات في الطب
والفلسفة منها: «الطب الملوكي»، و«زبدة الطب»، و«الرد على الفلاسفة».. إلخ.. توفي سنة
٥٣١هـ.

(٢) في نسخة أخرى: الناهية.

أما علمت أن اللذات الدنيوية كلها في الحقيقة: أكل الطيب، وشرب العذب، ولبس اللين، وركوب الهملج^(١)، وقهر العدو، والتمتع بالحسنة، وهذه كلها في الحقيقة حاجات متعبة وخصوصاً للعقلاء، وضرورات مزعجة للمتيقظين من العلماء.

لأن الأكل والشرب إنما هو لدفع ألم الجوع والعطش، واللبس لدفع ألم الحر والبرد، والركوب لدفع ألم المشي، وقهر العدو لطلب التشفي من ألم الغيظ، والنكاح إنما هو طلب لذة بدنية بمباشرة عضو، حقها أن تستتر وتستحي عن كشفه.

وخصوصاً من الرجال العقلاء الذين يكرهون أن يكشفوا عن سواعدهم مثلاً.

ثم في تلك الحال يحتاج إلى كشف عضوه المستتر، ويضطر إلى كشف مثله من المفعول، فما أحسن هذه اللذة عند العاقل الميقظ! وما أهونها عليه! وما أقبحها عنده! وما أفضحها لديه! ثم الحاجة غير طيبة ولذيدة في ذاتها.

وهذه الأحوال كما ترى حاجات، والحاجات آلام، ولو كانت فيها فضيلة لما استغنت الملائكة المكرمون المقربون عنها، ولا ترهب منها، وكل اللذة في أن لا يؤلم جوع (ولا يؤدي عطش، ولا يتعب مشي)، ولا يؤدي حرٌّ ولا برد، ولا ينغص العيش حرٌّ^(٢) ولا غضب.

(١) الهملج كلمة فارسية معربة بمعنى: الدابة ذات السير الحسن والسرعة.

(٢) المقصود بالحر هنا: هو الغيظ والغضب، وأيضاً المنع أو الحرمان.

ولقد صبحتُ من إذا جاع صَبَرَ طويلاً، ثم إذا قُدِّمَ إليه الطعام بكى، ثم أكل.

وكان يقول: اللهم أنت خلقتني، وأنت أحوجتني، وبالخطاب أكرمتني فهب لي ما وعدتني.

وكان هذا الكلام شكاية من هذا الصديق من ألم الحاجة، نعم من عَرِفَ كنه ألم الشيء، فإن تألمه به يكون أشد وأكثر وأتم وأبلغ، وأنا منذ زمان استعمل هذا الدعاء، أقول:

«اللهم إني أسألك غير محتكم عليك.. أن تكفيني مؤنة هذا الجسد الذي هو سبب كل مذلة، وأصل كل حاجة، والجاذب لكل بلية، والطالب لكل خطيئة، وأن تيسر الخلاص منه على أسهل وجه، وأفضل حال إلى خير معاد، وأحسن بال، بمنك وفضلك يا ذا المنِّ والأفضال».

فإن رأيت أن توافقني في استعماله، فخفف رجلك وشعر ذيلك، وأرخِ علتك وقصّر أملك، وطهر خلقك، نَقَّ طرفك.. تكتفٍ وتسلم، وتذق ولا تندم، والسلام.

أبو الحسن محمد بن يوسف العامري^(١)

تفلسف بخراسان، وقرأ على «أبي زين البلخي»، وقصد بغداد وتصدر بها، ولم يرض أخلاق أهلها، وعاد وهو فيلسوف تام.

شرح كتب «أرسطو»، وشاخ فيها.

وله كتاب: «الأمد على الأبد»:

وقال: الفطن من استفرغ أيامه لأداء ما خُلِقَ له، والمغبوط من كُفي الاهتمام بما يشغله عن الخير المطلق.

والحمية أن يدع أبداً في الشهوة بقية.

ومن استعمل الصلف والاعتزاز فقد فسد خلقه.

وقال في صفة «الباري» تعالى: ظهوره منعه من إدراكه، لإخفائه، انظر إلى الشمس هل منعك من مقابلة قرصها إلا شدة شعاعها، وانتشار نورها.

وهكذا.. العقل والنفس ظاهران غير خفيان، ومكشوفان لا مستوران.

(١) هو أبو الحسن محمد بن يوسف العامري النيسابروي، حكيم منطقي من أهل خراسان، أقام بالري، واتصل بابن العميد الوزير الكاتب، وأقام ببغداد مدة، وعاد إلى بلده، من آثاره: شرح على كتب أرسطو، النسك العقلي وشرحه، الإبصار والمبصر، مجموعة تشتمل على إنقاذ البشر من الجبر والقدر، والتقرير لأوجه التقدير.

شرف الملك أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري^(١)

كان أبوه رجلاً من أهل بلخ من الكفاة والعمال، وانتقل إلى بخارى في أيام الأمير الحميد ملك المشرق «نوح بن منصور».

واشتغل بالتصرف، وتولى العمل بقرية يقال لها: «حرمين» من قرى بخارى، وهي من أمهات القرى، ويقربها قرية يقال لها: «أفشنة».

وتزوج أبوه منها امرأة اسمها «ستارة».. وولد «أبو علي» بهذه القرية في صفر من سنة سبعين وثلاثمائة، الطالع السرطان درجة شرف المشتري، والقمر على درجة شرفه، والشمس على درجة شرفها، والزهرة على درجة شرفها، وسهم السعادة في وسط من السرطان، وسهم الغيب في أول السرطان مع سهيل والشعري اليمانية.

أخوه «محمود» بعده بخمس سنين، ثم انتقلوا إلى بخارى، وحضر ثم ولد ومعلم الأدب. القرآن»، «أبو علي» معلم

فلما بلغ عشر سنين حفظ أشياء من أصول الأدب.

(١) وهو من أبرز الفلاسفة والأطباء العرب، ولذلك فقد كُني بالشيخ الرئيس، وقد عاصر ابن سينا الكثير من العلماء والفلاسفة، وله تصانيف متعددة في مجالات شتى، وكانت حياته موزعة بين الدرس واللاهوت والسياسة إلى أن كثرت عليه الأمراض حتى أدركته المنية سنة ٤٢٨ هـ - ١٠٣٦ م. بهمدان.

المطالعة، وجمع بين يديه ظهورًا من القراطيس، وكل حُجة ينظر فيها يُثبت مقدماتها القياسية، ويكتبها في تلك الظهور.

وراعى شرائط المقدمات، وفضل ما هو منتج عقيم، وإذا تَحَيَّر في مسألة ما ظفر فيها بالحد بالأوسط.. تردد إلى الجامع، وصلى، وابتهل إلى الله تعالى.. حتى فتح الله عزَّ وجلَّ له ذلك.

وكان يعودُ كل ليلة إلى داره، ويضع السراجة، ويشغل بالقراءة والكتابة، فإذا غلبه النوم، أو أُنذره ضعف مزاج، شرب قدحًا من النبيذ.

وكان الحكماء المتقدمون مثل: «أرسطو»، و«أفلاطون» وغيرهما زُهَّادًا، و«أبو علي» على غير سنتهم وشعارهم.

وكان شغوفًا بشرب الخمر، واستفراغ القوى الشهوانية، ثم اقتدى به في الفسق والانهاك من جاء بعده^(١)، فأحكم جميع العلوم، ووقف عليها بحسب الإمكان الإنساني.

وكل ما علمه في ذلك الوقت، فهو كما علمه لم يزد إلى آخر عمره.. حتى فرغ من المنطق والرياضيات.

ولم يُبالغ في علم الرياضيات؛ لأن من ذاق طعم حلاوة المعقولات يصون

(١) لقد استند بعض المؤرخين، ومنهم الشرزوري في هذا الموضوع إلى ما ذكره ابن سينا سيرته التي أملاها على تلميذه الجوزجاني من استعائته أحيانًا بقدر من الشراب لاستنهاض قوى جسمه عندما ترهقه كثرة السهر، واستندوا إلى ذلك في نفي أن يكون للشيخ الرئيس أية صلة بالجانب الصوفي، ولهذا قال عنه السهروردي: إنه لو كان قد عرف فلسفة الإشراق لتضوع ريحها عليه.

تصرف فكره في الرياضيات، إلا فيما يتصوره مرة واحدة ويتركه.

ثم أقبل على العلم الإلهي، وقراءة «ما بعد الطبيعة»، وأعاد قراءته أربعين مرة.. وصار له محفوظًا.

ماذا يبلغ الوصف فيمن قد أشرف على الأشياء بمعرفتها، وتفتن حقائق حقيقتها.

وصارت الحكمة في قبضته يحطمها كالذلول المقيد على حبل ذراعه كيف شاء آخذًا باليد.

وبالجملة: الإطناب في مدحه يُغالب صفحة الشمس ظهورًا، ويكاثُر عدد القطر وفورًا، على أن الغالي آمن من تجنب الإفراط، خائف من التفريط، قريب من التقصير والتعذير، وبمعزل من الإطالة والتكثير، ومع ذلك لا يفهمه ولا المقصود منه، وآيس من نفسه، وقال: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. فاتفق أنه كان يومًا في سوق الورّاقين، فعرض عليه دلال كتابًا، فنادى عليه.

فردّه «أبر علي» عليه رد متبرم، معتقدًا أن لا فائدة في هذا العلم.

فقال له الدلال: اشتريه فإنه رخيص بثلاثة دراهم، وصاحبه محتاج إلى ثمنه.

فاستراه، فإذا هو كتاب «لأبي نصر الفارابي» في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة.

قال: فرجعت إلى بيتي وقرأته، فأنحل لي غرض ذلك الكتاب بسبب أنه

كان لي محفوظاً، ففرحت بذلك وتصدقت بشيء كثير على الفقراء شكراً لله عز وجل.

وكان ملك المشرق وخراسان في زمانه: «نوح بن منصور»^(١) فعرض له مرض أعجز الأطباء، وكان قد اشتهر بينهم في التوفر على العلم والقراءة، فسألوا «نوحاً» إحضار «أبي علي».

فحضر، وشاركهم في معالجته، فتوسم بخدمته، فصار أول حكيم توسم بخدمة الملوك.

وكان الحكماء قبل ذلك يتزهون عن ذلك، ولا يقربون أبواب السلاطين^(٢).

وقال: فسأل «أبو علي» «نوح بن منصور» في الإذن في الدخول إلى دار كتبه، فأجيب إلى ذلك، فرأى من الكتب ما لم يقرع أسجاع الناس اسمه، فقرأها، وأخذ فوائدها، وعرف مرتبة كل رجل في علمه من المتقدمين.

فاتفق إحراق تلك الدار، واحترقت الكتب بأسرها.

وقال بعض خصماء «أبي علي»: إنه أحرق تلك الكتب؛ ليظفر بتلك العلوم والنفائس، وينسبها إلى نفسه، ويقطع أنساب تلك الفوائد على أربابها، والله أعلم بذلك.

(١) هو الأمير نوح بن منصور الساماني، توفي سنة ٣٨٧هـ وقد اختل بموته ملك آل سامان، وضعف أمرهم، وطمع فيهم أصحاب الأطراف، فزال ملكهم بعد مدة يسيرة.

(٢) في هذا القول مبالغة بعض الشيء، فإن المعروف أن هناك العديد من الأطباء الحكماء الذين توسموا بخدمة الملوك ومعالجتهم.

فلما بلغ «أبو علي» ثمانين سنة من عمره فرغ من العلوم كلها، ولم يتجدد بعدها شيء.

وكان بجواره رجل يقال له: «أبو الحسن العروضي»، فسأله أن يُصنّف له كتابًا جامعًا في هذا العلم.

فصنّف له «المجموع»، وذكر اسمه فيه، وأثبت فيه سائر العلوم سوى الرياضي، فإنه ليس فيه زيادة مرتبة ولا سعادة في العقبى.

وفي جواره رجل يقال له: «أبو بكر التركي الخوارزمي» فقيه زاهد مائل إلى هذه العلوم، فسأله شرح الكتب له.

فصنّف له كتاب «الحاصل والمحصل»، وتم في عشرين مجلدة، وصنّف كتابًا في الأخلاق، وسماه «البر والإثم».

ولما اضطربت أمور السامانية، ودعته الضرورة إلى الخروج من (بخارى) بعد موت أبيه، والانتقال إلى «كركانج»، والاختلاف إلى «خوارزم شاه علي بن مأمون».

وكان «أبو الحسن السهيلي» المحب لهذا العلم بها وزيرًا.

وكان «أبو علي» في زي الفقهاء مع الطيلسان، وتحت الحنك، فأثبتوا له مشاهرة تقوم بكفاءة مثله.

ثم الضرورة إلى الانتقال إلى نيسابور، ثم إلى طوس، ثم إلى «سملقان»^(١)

(١) والمقصود بلدة سمنقان، وهي توجد بقرب جاجرم من أعمال نيسابور.

ولم يدخل نيسابور، ثم إلى جاجرم^(١)، ثم إلى جرجان.

وكان يقصد الأمير «شمس المعالي قابوس»، فاتفق أخذ قابوس، وحبسه في بعض القلاع وموته هناك.

ثم مضى «ابن سينا» إلى دهستان، ومرض بها مرضاً صعباً، وعاد إلى «جرجان»، واتصل به «الجوزجاني»، وعمل هناك «الأوسط الجرجاني» لرجل ارتبطه وأحسن إليه.

وصنّف «لأبي محمد الشيرازي» كتاب «المبدأ والمعاد».

وصنّف بجرجان كتباً كثيرة.. ثم انتقل إلى الري، واتصل بخدمة السيدة وابنها الملك «مجد الدولة»، و«أبي طالب رستم بن فخر الدولة علي»، وعرفوه بسبب كتب وصلت معه تضمنت تعريف قدره.

وقد استولت على «مجد الدولة» علة المالىخوليا، فاشتغل الشيخ بمداواته.

وصنّف هناك كتاب «المعاد»، وأقام هناك إلى أن قصد «شمس الدولة» قبل هلاك «بدر بن حسنويه»، وهزيمة عسكر بغداد.

ثم اتفقت أسباب دعت لضرورة خروجه إلى «قزوین»، ومنها إلى (همدان)، واتصل بخدمة «كدبانويه»، والنظر في أسبابها.

ثم اتفقت له معرفة مع «شمس الدولة»، فأمر بإحضار مجلسه بسبب قولنج أصابه، فعالجه حتى شفاه الله تعالى.

(١) وهي بلدة مشهورة لها ميناء واسع، تقع بين نيسابور وجوين وجرجان، وينسب إليها جماعة من أهل العلم في كل فن.

وفاز بخلع كثيرة، ورجع إلى داره بعد ما أقام هناك أربعين يومًا بلباليها، وصار من ندماء الأمير.

ثم اتفق له نهوض إلى «قوس» لحرب غار، وخرج الشيخ منخرطًا في سلك خدمة، ثم توجه تلقاء همذان منهزمًا، ثم تقلد الوزارة.

ثم اتفق تشويش العسكر بسببه، وإشفاقهم منه على أنفسهم فأغاروا على داره، وأخذوه وحبسوه، وسألوا الأمير قتله.

فامتنع منه الأمير، ثم أطلق الشيخ، فتواري في دار الشيخ «أبي سعيد»، ثم عاود «شمس الدولة» القولنج، فطلب الشيخ فحضر مجلسه، فاعتذر إليه وأعاد الوزارة إليه وعالجه.

ثم سأل «أبو عبيد» شرح كتب «أرسطو»، فذكر أنه لا فراغ له، ولكن إن رضيت بتصنيف كتاب أورد فيه ما صح عندي من هذه العلوم فعلت ذلك.

فرضي بذلك، فابتدأ من الطبيعيات من الشفاء، وكان قد صنف الأول من القانون.

وكان يجمع كل ليلة في داره طلبة العلم، «وأبو عبيد» يقرأ من الشفاء نوبة، «والمعصومي» من القانون نوبة، «وابن زيلة» من الإشارات نوبة، «وبهمنيار» من «الحاصل والمحصل» نوبة.

فإذا فرغوا.. حضر المطربون، واشتغلوا بالشرب، وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار.

ثم توجه «شمس الدولة» تلقاء «طارم» لحرب الأمير بها، وعاوده

القولنج قرب ذلك الموضع، واشتد عليه وانضاف إليه أمراض أخرى جلبها سوء تدبيره، وقلة القبول من الشيخ، فخاف العسكر موته.. فرجعوا منهزمين إلى همدان.

فتوفي «شمس الدولة» في الطريق، ثم بُويع «ابن شمس الدولة»، وطلب استوزار الشيخ... فأبى.

وكان «علاء الدولة» قد سأل الشيخ المسير إليه، فأقام دار «أبي غالب العطار» متوارياً، وصنّف فيها بلا مطالعة كتب جميع الطبيعيات والإلهيات من الشفاء، وابتدأ بالمنطق، وكتب منه جزءاً.

ثم اتهمه تاج بمكاتبة «علاء الدولة»، فأخذه وحبسه في قلعة «برودان»، وبقي فيها أربعة أشهر.

ثم قصد «علاء الدولة» «أبو جعفر» إلى همدان، واستولى عليها، ثم رجع علاء الدولة، وعاد تاج الملك وابن شمس الدولة من القلعة إلى همدان، وهما معها الشيخ.

فنزل في دار علوي، واشتغل بتصنيف المنطق، من كتاب «الشفاء»، وصنّف في القلعة^(١) كتاب «الهداية» ورسالة «حي بن يقظان»، ورسالة «الطير»، وكتاب «القولنج».

ثم توجه الشيخ تلقاء أصفهان مُتَنَكِّراً، ومعه أخوه محمود، وأبو عبد الله وغلماؤه في زي الصوفية.

(١) في نسخة أخرى: وصنف في الفلسفة.

فلما بلغوا باب أصفهان استقبله خواص الأمير علاء الدولة بالمرائب
والثياب، وأنزل وكرّم.

وكان الشيخ في ليالي الجُمُعات يحضر مجلس «علاء الدولة» مع علماء
البلدة.

وإذا تكلم الشيخ استفاد منه كل من هناك، واشتغل بتميم كتاب الشفاء.
أما «المجسطي» فأورد عليه عشرة أشكال في اختلاف المنظر، وأورد في
الهيئة أشياء لم يسبق إليها، وكذلك في «إقليدس»، و«الأرثماطقي»، وأورد في
الموسيقى مسائل غفل عنها الأوائل والأواخر.. وقد كان - رحمه الله - عظيم
القدر، جليل الشأن.

ومن غرائب تصانيفه المجموع: الحكمة القدسية، وهو غير الحكمة
المشرقية.

الاستبصار والمهجة.

رسالة في نفس الفلك، رسالة «في معرفة الأجرام السموية».
كتابان إلى «أبي سعيد».

رسالة «في الفيض الإلهي» قصائد له.

رسالة في: {واضرب لهم مثل الحياة الدنيا} [الكهف: ٤٥].

رسالة في كيفية: انشقاق القمر.

رسالة في كيفية: «أصحاب الكهف».

رسالة في: «هيج الرعاع إلى ساكن القلاع».

رسالة في: «ذم ما صنع الجراد».

«شرح لمسائل حنين».

كتاب «الحكمة العرشية»، وهي من الغرائب القليلة الوقوع.

وجرى عند «علاء الدولة» ذكر الخلل الواقع في التقاويم، فأمر الشيخ بالاشتغال بالرصد، وأطلق له من المال ما يحتاج إليه.

فابتدأ الشيخ، و«أبو عبيد» وهو المقيم بهذه الأمور حتى ظهر كثير من المسائل، وكان الخلل واقعاً في الرصد؛ لكثرة الأسفار، وتراكم العوائق.

وصنّف الشيخ بأصفهان كتاب العلائي.

ومن عجائب أحوال الشيخ أن «أبا عبيد» صحبه ثلاثين سنة، وقال: إنه ما رآه ينظر في كتاب جديد على الولاء، بل يقصد المواضع الصعبة والمسائل المشكلة، فينظر ما قاله مصنفه فيها؛ ليعرف مرتبته في العلم.

وصنّف «أبو علي» منطق النجاة بجرجان، ووقعت منه نسخة بشيراز، فنظر فيها علماءها، ووقعت لهم شُبّه، فكتبوها وأنفذوها إلى «الكرماني أبي القسم».

فدخل «الكرماني» على الشيخ عند اصفرار الشمس في الصيف، ووضع الخبر بين يديه.

فلما خرج «أبو القسم» صَلَّى الشيخ العشاء، وكتب خمسة أجزاء ربع.

ثم نام، فلما صلى الغداة بعث الأجزاء إلى الكرمانى، وقال: استعجلت في الجواب؛ حتى لا يمكث القاصد، فلما رأى الكرمانى ذلك تعجب، وكتب إلى «شيراز» بهذه القصة، واشتغل بالرصد ثمانى سنين.

ثم صَنَّف الشيخُ كتاب الإنصاف.

ووقعت محاربة بين العميد «أبى سهل الحمدونى» صاحب الري من جهة السلطان محمود، وبين علاء الدولة.

ثم قصد «مسعود بن محمود» أصفهان، وأخذ أخت علاء الدولة، فبعث «أبو على» إلى السلطان، وقال: إن تزوجت بهذه المرأة سلَّم «علاء الدولة» إليك الولاية.

فتزوجها السلطان «مسعود»، ثم استعد «علاء الدولة» بالمحاربة.

فبعث السلطان إليه رسولا، وقال له: أنا أسلم أختك إلى العسكر.

فقال علاء الدولة لأبى على: أجبه.

فقال أبو على: إن كانت أخت علاء الدولة فهي زوجتك، وإن طلقتها فهي مطلقتك، والغيرة على الأزواج لا على الإخوة.

فأنف السلطان من ذلك، ورَدَّ زوجته أخت «علاء الدولة» عليه.

ثم نهب «أبو سهل الحمدونى» أمتعة الشيخ وفيها كتبه، ولم يجد من كتاب الإنصاف إلا جزءا، ثم زعم بعضهم أنه اشترى منه نسخة بأصفهان، وحملها إلى مرو.

وأما (الحكمة المشرقية، والحكمة القدسية) فقال «إسماعيل الباخري»:

إنهما في بيوت كتب السلطان مسعود بن محمود بغزنة، حتى أحرقه ملك الجبال الحسين، وعسكر الغور.

وكان «أبو علي» قوي المزاج على المجاعة، وكان يشتغل باستفراغها، فأثر ذلك في مزاجه.

وكان لا يعالج شخصه حتى ضعف في السنة التي حارب فيها «علاء الدولة» الأمير «حسام الدولة» على باب الكرخ.

فأصاب الشيخ داء القولنج، فحقن نفسه في يوم ثمان^(١) مرات، فتقرح بعض أمعائه، وظهر له سحج، ولا بد له من المسير على «علاء الدولة»، فظهر له الصرع الذي يتبع القولنج، فأمر باتخاذ دانقين من بزر الكرفس في جملة ما يحقن، وخلطه بها طلباً لكسر ريح القولنج.

فقصد بعض من يعالجه من الأطباء، وطرح من بزر الكرفس خمسة دراهم، ولا يدري أعمداً فعله أم لا، فازداد السحج من حدة بزر الكرفس.

وكان يتناول «مشرود يطوس»^(٢) لأجل الصرع، فطرح فيه بعض غلمانته شيئاً كثيراً من الأفيون؛ لأجل أن الغلام خان في خزانته، فخاف عاقبة أمره.

ونقل الشيخ في المهد إلى أصفهان، فاشتغل بتدبير نفسه.

(١) ح: ثلاث مرات.

(٢) معجون المشروديطوس هو ترياق صنعه الملك مشروديطوس أحد ملوك مملكة نبطس (الواقعة على البحر الأسود المعروف عند العرب باسم نحر نبطس) حكم في الفترة من سنة ١٣٢-١٦٣ م، وكان الترياق المشروديطوس مكوناً من ٥٤ عنصراً وكان نافعاً في معالجة السموم، ونهش الأفاعي.

وكان من الضعف بحيث لا يقدر على القيام، وغلماؤه يتمنون هلاكه، ثم قدر الشيخ على المشي، وحضر مجلس «علاء الدولة»، لكنه مع ذلك لا يحتمى، ويكثر التخليط في الجامعة، ولم يبرأ من العلة كل البرء.

وكان يمرض أسبوعًا ويصح أسبوعًا، ثم قصد علاء الدولة همدان ومعه الشيخ، فعاود القولنج الشيخ في الطريق إلى أن وصل إلى همدان، وعَلِمَ أن قوته قد سقطت، وأنها لا تفي بدفع المرض، فأهمل مداواة نفسه.

وقال: المدبر الذي كان يُدبر عجز عن تدبير بدني، فلا تنفعني المعالجة.

ثم اغتسل، وتاب، وتصدق بها بقي معه على الفقراء، وردَّ المظالم إلى من عرفه من أربابها، وأعتق غلماؤه، وكان يحفظ «القرآن الكريم» فيختم في كل ثلاثة أيام.

ثم مات في يوم الجمعة الأول من شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، ودُفِنَ بهمدان.

وفي هذه الجمعة خطبوا للشيخ بنيسابور للسلطان «طغرلبك»، وأعرضوا عن ذكر السلطان «مسعود بن محمود»، وكان عمره ثمان وخمسين سنة مع كسر، وهذه فهرسة مصنفاته:

- ١- كتاب المجموع
- ٢- الحكمة القدسية
- ٣- الشفاء
- ٤- كتاب الحاصل والمحصول

-
- ٥- كتاب اللواحق
 - ٦- القانون
 - ٧- الإنصاف والاتصاف
 - ٨- النجاة
 - ٩- التعليقات
 - ١٠- المباحث
 - ١١- الإشارات
 - ١٢- عيون الحكمة
 - ١٣- الحكمة المشرقية
 - ١٤- مقتضيات الكبير السبعة
 - ١٥- إشارة إلى علم المنطق
 - ١٦- الأوسط الجرجاني
 - ١٧- الجدل الملحق بكتاب الأوسط
 - ١٨- الاستبصار
 - ١٩- رسالة في تعقب الموضع الجليلي
 - ٢٠- كتاب المهجة

- ٢١- رسالة في إثبات النبوة
- ٢٢- الموجز الكبير في المنطق
- ٢٣- كتاب بيان ذوات الجهة
- ٢٤- رسالة في السياسة
- ٢٥- الموجز الصغير في المنطق
- ٢٦- التحفة
- ٢٧- رسالة في تجزي الأقسام
- ٢٨- رسالة في علة قوام الأرض في حيزه
- ٢٩- الجمل من الأدلة المحققة لبقاء النفس الناطقة
- ٣٠- الرسالة الطبرية
- ٣١- زبدة القوى الحيوانية
- ٣٢- رسالة في أن علم عمر غير علم زيد
- ٣٣- رسالة في القوى الإنسانية وإدراكها
- ٣٤- مقالة في خطأ من قال: إن الكمية جوهر، ومن قال: إن شيئاً هو جوهر وعرض معاً
- ٣٥- كتاب المعاد
- ٣٦- الرسالة النيروزية

- ٣٧- ترجمة كتاب المعاد بالفارسية
- ٣٨- كتاب العلالي
- ٣٩- الأدوية القلبية
- ٤٠- رسالة في تدارك أنواع الخطأ
- ٤١- الحدود «رسالة في الهندبا»
- ٤٢- رسالة في العشق
- ٤٣- رسالة في الحدث
- ٤٤- كتاب في الشعر
- ٤٥- رسالة إلى أبي القسم الكرمانى
- ٤٦- رسالة في النفس الفلكي
- ٤٧- كتاب الهداية
- ٤٨- رسالة في معرفة الأجرام السماوية.
- ٤٩- عهد عهده لنفسه.
- ٥٠- رسالة حي بن يقظان.
- ٥١- رسالة في الأخلاق.
- ٥٢- رسالة في أقسام العلوم.
- ٥٣- رسالة في أقسام الحكمة.

-
- ٥٤- رسالة في الزاوية.
- ٥٥- رسالة العروس.
- ٥٦- أجوبة أبي الريحان.
- ٥٧- أجوبة عن مسائل.
- ٥٨- أجوبة عشرين مسألة.
- ٥٩- أجوبة عشرين مسألة أخرى.
- ٦٠- كتاب إلى أبي سعيد.
- ٦١- كتاب آخر إليه.
- ٦٢- أرجوزة في المنطق.
- ٦٣- رسالة في القوة الجسمية.
- ٦٤- رسالة إلى الفضل.
- ٦٥- رسالة في الشراب المجدول.
- ٦٦- رسالة في الشراب غير المجدول.
- ٦٧- رسالة في التفاح.
- ٦٨- رسالة في الموسيقى.
- ٦٩- رسالة في البرق.
- ٧٠- رسالة إلى أبي الحسن سهل بن محمد في أمر مستور

- ٧١- رسالة الأضحوية
- ٧٢- رسالة إلى أبي عبيد الجوزجاني في الانتفاء عما نسب إليه من معارضة القرآن الكريم
- ٧٣- جواب إلى كُتَّاب بعض المتكلمين
- ٧٤- كتاب التعبير
- ٧٥- كتاب القولنج
- ٧٦- فصول طبية جرت في مجلسه
- ٧٧- رسالة إلى أبي الفرج
- ٧٨- رسالة في الردّ على مقالة لأبي الفرج
- ٧٩- رسالة في إثبات المبدأ الأول
- ٨٠- رسالة في الفيض الإلهي
- ٨١- رسالة في النبض بالفارسية
- ٨٢- كتاب البر والإثم
- ٨٣- تفسير بعض سور كلام الله تعالى
- ٨٤- رسائل وكتب
- ٨٥- رسالة إلى أبي القسم الفضل بن محمود
- ٨٦- تعاليق في المنطق

- ٨٧- كتاب إلى أبي الفضل
- ٨٨- قصائد له
- ٨٩- المعاني في المنطق
- ٩٠- رسالة في حقيقة ما {واضرب لهم مثل الحياة الدنيا} [الكهف: ٤٥]
- ٩١- رسالة في انشقاق القمر
- ٩٢- رسالة في كيفية أصحاب الكهف
- ٩٣- رسالة في النفس
- ٩٤- رسالة هميج الرعاع إلى ساكن القلاع
- ٩٥- تكرر المنطق
- ٩٦- رسالة في ذم ما صنع الجراد
- ٩٧- تدبير المنزل
- ٩٨- تدبير المسافرين
- ٩٩- كتاب لسان العرب
- ١٠٠- دستور طبي
- ١٠١- دفع الغم عن الموت
- ١٠٢- رسالة في ماهية الحزن
- ١٠٣- رسالة في الفردوس

١٠٤ - شرح مسائل حنين بن إسحاق

١٠٥ - رسالة في الباء

١٠٦ - مقالة في السكنجيين

١٠٧ - رسالة في الفصد

١٠٨ - مسألة في القضاء والقدر

١٠٩ - رسالة إلى أبي طاهر المتطبب

١١٠ - رسالة في معنى السراج

١١١ - مقالة في حفظ الصحة

١١٢ - الحكمة العرشية

ورأيت بخط بعض المحصلين، وهو «تاج الدين الفارسي» رحمه الله تعالى:

الشيخ «أبو علي» رحمه الله تعالى كان ينشد عند موته هذه الأبيات:

وأقعد قومًا في غوايبهم هلكى

نطوق من حلت به عيشة ضنكا

وقلب قلوبًا طال إعراضها عنكا

وتشكف عما يها إذن فلمن تشكا

عليك جفوني من جواهرها سلكا

أقام رجالًا في معارفه ملكى

نعوذ بك اللهم من كل فتنة

رجعنا إليك الآن فاقبل رجوعنا

فإن أنت لم تبرأ شكايأ عقولنا

فقد آثرت نفسى رضاك وقطعت

شهاب الدين السهروردي^(١)

الحكيم الربّاني المعظّم، والفيلسوف المكرّم، الشيخ الربّاني، المتألّه الروحاني، العالم العامل، الفاضل الكامل، شهاب الملة والحق والدين، المطلع على الأسرار الإلهية، والراقي إلى العوالم النورانية «أبو الفتوح يحيى بن أميرك السهروردي» رَوَّحَ اللهُ تعالى رَمَسَهُ وَقَدَّسَ نَفْسَهُ، وحيداً الأعصار وفريد الدهور، جمع بين الحكمتين، أعني: الذوقية والبعثية.

أما الذوقية.. فيشهد له بالتبريز فيها كل من سلك سبيل الله، وراض نفسه بالأفكار المتواليّة، والمجاهدات المتتالية، رافضاً عن نفسه التشاغل بالعلم الظلماني، طالباً بهمّته العالية مشاهدة العالم الروحاني.

فإذا استقر قراره، وتهتك بالسير الحثيث إلى معاينة المجردات أستاره، حتى ظفر بمعرفة نفسه، ونظر بعقله إلى ربه.

ثم وقفَ بعد هذا على كلامه، فيعلم حيثُئذ أنه كان في المكاشفات الربّانية آية، والمشاهدات الروحانية نهاية، لا يعرف غوره إلا الأقلون، ولا ينال ثناءه إلا الراسخون.

(١) هو أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك، الملقب بشهاب الدين السهروردي، بعدُ واحداً من قمم التصوف الإسلامي ذي النزعة الفلسفية، واحداً أيضاً من أصحاب الاتجاهات الروحية الكبرى في الإسلام، وهو ما يعرف بالإشراقية، وهو كذلك أُوحد أهل زمانه في علوم الحقيقة والفلسفة، وأن علمه أكبر من عقله، وكان يعرف علم السيمياء، وأمضى بقية حياته في حلب التي كان له فيها مناظرات ومناقشات مع الفقهاء، أدت في نهاية الأمر إلى مقتله سنة.

وأما الحكمة البحثية فإنه أحكم بُيانها، وشيّد أركانها، وعبر عن المعاني الصحيحة، اللطيفة بالعبارات الرشيقة الوجيزة، وأتقنها إتقانًا لا غاية وراءها، ولا سيما في الكتاب المعروف «بالمشارع والمطارحات»، فإنه استوفى فيه بحوث المتقدمين والمتأخرين، ونقض فيه أصول مذاهب المشائين، وشيّد فيه معتقدات الحكماء الأقدمين، وأكثر تلك البحوث والمناقضات، والأسئلة، والإيرادات من تصرفات ذهنه ومكنون علمه، وذلك يدلُّك على قوته في الفن البحثي والعلم الرسمي.

واعلم أن فهم كلامه ومعرفة أسرارهِ مشكل جدًّا على من لا يسلك طريقته، ولا يتبع خلقه، وعاداته؛ لأنه بنى حكمته على أصول كشفية وعلوم ذوقية، فمن لم يحكم أصوله لا يعرف فروعه، ومن لم يتجرد عن الدنيا والآخرة لم يذق.

وبالجملة معرفة كلامه، وجُلُّ كتبه ومرموزاته متوقف على معرفة النفس، وأكثر العلماء والحكماء، لا خبر لهم بها إلا في النوادر، يأتي في كلِّ دهر واحد. ولقد سافرت كثيرًا، وتفحصت عن هذا النبا العظيم عظيمًا، فلم أجد من عنده خبر عن النفس.. فضلًا عمَّا فوقها من العوالم المجرّدة.

ولأجل هذا لما عجزوا عن فهم كلامه طعنوا فيه، حتى أن جماعة من الحكماء المعاصرين لي من المشهورين بالفضل والتدبير عند العامة، زعموا بأن حكمته طُرُقية^(١).

(١) يقصد الحكمة السوقية التي يتناولها القوم في الطرقات.

وليت شعري.. إذا كانت حكمته المبنية على الأصول (الكشفية والقواعد الذوقية طرقيه، فأحرى أن تكون حكمته المبنية على الأصول) الوهمية والمباني الخيالية أتوبية مرآتية^(١) سوقية، وهم معذورون من جهة الجهل بكلامه ووجه صعوبته ما ذكرته من قبل.

وقد كنتُ في عنفوان الشباب أوافقهم في عدم الالتفات إليه، حتى غلبني حب التجريد فسلكت، ويسر الله تعالى عليَّ معرفة نفسي، فانحلَّ إليَّ كلامه، ووقفت على جميع أسرارهِ في أيسر زمان.

ثم نظرتُ إلى أولئك الطاعنين فيه، الرادّين عليه مذهبه، بعين الحقيقة والإنصاف، فإذا ليس عندهم من الحكمة إلا الحشف، ولم يظفروا منها بالتلف، قنعوا بالقشر عن اللب، والتبن عن الحب، وحاصل ما حصّلوه معرفة الجسم وبعض أعراضه، وبعض عوارض الوجود، وفيه أيضًا أخطاء كثيرة، والجسم أيضًا لم يُحصّلوا معرفته، ولم أجد منذ قُتل^(٢) إلى وقتي هذا أحدًا فهم كلامه، أو نال مُرامه.

والعلوم المقدّسة الإلهية، والأسرار العظيمة الربّانية التي رمزت الحكماء

(١) يقصد بأتوبية، أو طوبائية بمعنى خيالية بعيدة تمامًا عن الواقع.

(٢) أي منذ قتل السهرودي، والغريب هنا أن الشهرزوري رغم متابعتة للسهروردي وإخلاصه له، يذكر أنه قُتل بينما يتمسك أتباعه وتلامذته بأنه شهيد، ولذلك لا يشيرون إلى مقتلته، بل يتحدثون دائمًا عن استخدامه رياضة الجوع حتى تأدت إلى الهلاك، ويجوز أن وضع هذا اللفظ (قتل) جاء على يد أحد النُسخ من أهل السُنّة الذين كانوا في عداء شديد للسهروردي، وعلى رأسهم الفقيهان ابنا جهيل، وهما اللذان عملاً محضراً يُكفّر السهروردي، وسيراه إلى صلاح الدين الأيوبي الذي أمر بقتله على النحو المُشار إليه، فاختر صاحب الإشراف الموت جوعاً.

عليها، وأشارت الأنبياء إليها، عَرَفَهَا هذا الرجل، وأَيَّد بقوة التعبير عنها في الكتاب العظيم المسمَّى «بحكمة الأشراف»^(١) الذي ما سبقه أحد قبله، ولا يلحقه أحد بعده، إلا من شاء الله تعالى.

ولأجل ذلك.. لُقِّبَ بالمؤيد بالملكوت، ولا يَعْرِفُ هذا الكتاب حق المعرفة إلا صديق.

واعلم أنه لم يتيسر لأحد من الحكماء والعلماء، والأولياء ما تيسر لهذا الشيخ من إتقان الحكمتين المذكورتين.

بل بعضهم تيسر له الكشف، ولم ينظر في البحث «كأبي يزيد»^(٢)، و«الحلاج»^(٣)، ونظرائهما.

وأما إتقان البحث الصحيح بحيث يكون مطابقاً للوجد من غير سلوك وذوق... فلا يمكن.

وجميع الحكماء المقتصرين على مجرد البحث الصِّرف مخطئون في عقائدهم، فإن أردت حقيقة الحكمة، وكنت مستعداً لها، فأخلص لله تعالى، وانسلخ عن الدنيا انسلاخ الحية من جلدها، عساك تظفر بها.

وكان (الشيخ عظم الله درجته) يسمى بـ «خالق البرايا» للعجائب التي

(١) نشر المستشرق هنري كوربان هذا الكتاب ضمن مجموعة دوم مصنفات باريس ١٩٥٢ م.

(٢) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشهان البسطامي بصري الأصل، من أوائل الصوفية واشتهر بشطحاته.

(٣) هو الحسين بن منصور الحلاج المكنى بأبي المغيث، نشأ بواسط بالعراق، وقيل: بتستر، وقدم بغداد لمخالطة الصوفية، وكانت شطحاته سبباً لإعدامه ببغداد عام ٣٠٩ هـ.

كان يظهرها في الحال، ورآها واحد في المنام، فقال له: لا تسموني بخالق البرايا.

وسافر في صغره في طلب العلم والحكمة إلى مراغة^(١) فاشتغل بها على «مجد الدين الجيلي».

وإلى أصفهان، وبلغني أنه قرأ هناك بصائر «ابن سهلان الساوي» على ظهير الفاسي، والله أعلم بذلك، إلا أن كتبه تدل على أنه فكّر في البصائر كثيرًا. وسافر على نواح متعددة.. وصحب الصوفية واستفاد منهم أشياء، وحصل لنفسه ملكة الاستقلال بالفكر والانفراد.

ثم اشتغل بنفسه بالرياضات والخلوات، والأفكار.. حتى وصل إلى غايات مقامات الحكماء ونهايات مكاشفات الأولياء.

فهذا خبر الشيخ في الحكمتين المذكورتين، وأما الحكمة العملية فإنه كان فيها من السابقين الأولين، مسحي الشكل، قلندري الصفة^(٢).

وكانت له رياضات عجز أبناء الزمان عنها، منها أن يفطر في كل أسبوع مرة، وطعامه لا يزيد على خمسين درهماً، وقلّ أن يوجد إذا سبرت طبقات الحكماء أزهد منه أو أفضل.

قال ابن ربيعة: كنت أتمشى مع شهاب الدين في جامع «ميافارقين» وهو لا بس جبة قصيرة مضرية زرقاء، وعلى رأسه فوطة مفتولة، وفي رجله

(١) مراغة هي إحدى مدن أذربيجان.

(٢) إشارة إلى قوم قلندرين.

زربول.

فرآني صديق لي، فأتى إلى جانبي، وقال: ما تتمشى إلا مع هذا الخربندا^(١)!! فقلت له: ويحك هذا سيد الوقت «شهاب الدين السهروردي».

فتعاضم قولي وتعجب، ومضى في حال سبيله.

وكان لا يلتفت إلى الدنيا، قليل الاهتمام بها لا يبالي بالملبس والمأكّل، ولا يصغى إلى الشرف والرياسة.

وكان في بعض الأحيان يلبس كساء وقلنسوة حمراء طويلة، وفي بعض الأحيان مرقعة وخرقة على رأسه، وفي بعض الأحيان يكون على زي الصوفية.

وكان أكثر عباداته: الجوع والسهر، والفكر في العوالم الإلهية، وكان قليل الالتفات إلى مراعاة الخلف ملازمًا للصمت والاشتغال بنفسه، مُحبًا للسمع والنغمات الموسيقية، صاحب كرامات وآيات.

سمعت من علماء العامة، ومن لا حظّ له في العلوم الحقيقية يقول: إنه كان يعرف السيمياء، وبعضهم يزعم أنه متخيل، وكل ذلك خرافات، وجهل بمقامات إخوان التجريد، بل هو وصل إلى غايات مقاماتهم.

ولإخوان التجريد مقام يقدرّون فيه على إيجاد أية صورة أرادوا، وإلى هذا المقام وصل «أبو يزيد البسطامي»، و«الحسين بن منصور الحلاج».. وغيرهما من إخوان التجريد.

(١) الخربندا: المعتوه.

وكنّت مدة مؤمناً بهذا المقام حتّى أعانني الله تعالى باليقين التام، ولولا أنه من الأسرار التي يجب كتمانها، لذكرت من حاله شيئاً.

وكان قدّس الله تعالى روحه كثير الجولان والطوفان في البلدان، شديد التشوق على تحصيل مشارك له في علومه، ولم يحصل له.

قال في آخر المطارحات: وهو ذا قد بلغ سني إلى قريب من ثلاثين سنة، وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والتفحص عن مُشارك مطلع على العلوم، ولم أجد من عنده خبرٌ عن العلوم الشريفة، ولا من يؤمن بها فانظر إلى قوله، وأكثر التعجب من ذلك.

وكان رحمه الله تعالى غاية في التجريد، نهاية في رفض الدنيا يحب المقام «بديار بكر» وفي بعض الأوقات يقيم بالشام، وفي بعضها في الروم.

وكان سبب قتله على ما بلغنا: أنه لما خرج من الروم إلى الشام دخل في حلب، وصاحبها يومئذ الملك «الظاهر بن صلاح الدين يوسف» صاحب مصر واليمن والشام.

وكان مُحباً للشيخ يعتقد فيه، وكان جَمَعَ من العلماء بحلب يجتمعون به ويسمعون كلامه.

وكان يُصرح في البحوث بعقائد الحكماء ويُناضل عنها، ويسفّه رأي مخاليفها، ويناظرهم فيقطعهم في المجالس، وانضمّ إلى ذلك ما كان يُظهره من العجائب بقوة روح القدس.

فاجتمعت كلمتهم على تكفيره وقتله حسداً، ونسبوا إليه العظام،

وقالوا: إنه قد ادّعى النبوة، وهو بريء من ذلك، فالله تعالى حسيب الحُسَّاد وحسبهم، وأخذ ولاتهم عليه بأمرٍ عظيم، وحضوا السلطان على قتله فامتنع. فكاتبوا والده صلاح الدين، وقالوا في جملة ما قالوا: إن بقي أفسد الدين. فكتب إليه يأمره بقتله ولم يقتله، ثم كتب إليه مرة أخرى يأمره بذلك، ويتهده بأخذ حلب إن لم يقتله.

ورأيتُ الناس مختلفين في قتله، فزعم بعضهم أنه سُجِنَ ومُنِعَ الطعام، وبعضهم مَنَعَ نفسه حتى مات، وبعضهم خنق بوتر، وبعضهم قُتِلَ بسيف، وقيل: إنه حُطَّ من القلعة، وأُحرق.

ورؤي «رسول الله» صلى الله عليه وسلم في النوم يجمع عظامه، ويجعله في الثقويات، وقيل: في كيس، ويقول: هذا عظام شهاب الدين.

(والذي رأى النبي صلى الله عليه وسلم هو الشيخ «جمال الدين الجيلي» رحمة الله عليه).

وبلغني أن بعض أصحابه كان يقول: أبو الفتوح «بصحبة» رسول الله، وكان بينه وبين «فخر الدين المارديني»^(١) «الساكن بهاردين» صداقة واجتماعات.

وكان الفخر يقول لأصحابه: ما أذكى هذا الشاب وأفصحه، ولم أجد

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن الأنصاري، كان علامة وقته في العلوم الحكيمة، جيد المعرفة بصناعة الطب، متقناً للغة، وكان أكثر اهتمامه في الطب بقانون ابن سينا، كما كان يميل في الفلسفة إلى مذهب ابن سينا، وله شرح على قصيدته العينية.

أحدًا مثله في زماني إلا أني أخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره، وقلة تحفظه أن يكون ذلك سببًا لهلاكه.

قال: ولما فارقتنا من المشرق، وتوجّه إلى حلب، ناظرَ بها الفقهاء، ولم يجاره أحد، وكثُر تشنيعهم عليه.

فاستحضره الملك الطاهر، واستحضر الأكابر والفقهاء والفضلاء المتفنتة، ليسمع ما يجري بينهم من مباحث، فتكلم معهم بكلام كثير، وظهر أنه له فضل عظيم وعلم باهر، وحسن موقعه عن الطاهر، وقربه وصار مكينًا عنده، مُختصًا به.

فازداد تشنيع أولئك عليه، وعملوا محاضر بكفره، وسيروها إلى دمشق إلى «صلاح الدين»، وقالوا: إن بقي أفسد اعتقاد الملك، وإن أطلق أفسد، أي: ناحية سلك، وزادوا عليه أشياء كثيرة، فبعثَ إلى «الطاهر» بخط القاضي الفاضل: أن هذا شهاب الدين لا بُدَّ من قتله، ولا سبيل إلى إطلاقه بوجه.

ولما تحقق «شهاب الدين» الحال اختار أن يترك في بيت ويمنع الطعام والشراب.. إلى أن يلقي الله عزَّ وجلَّ، وفعلَ به ذلك.

ونَقَمَ «الطاهر» عليهم بعد ذلك، والله أعلم بصحة ذلك.

والذي وجدت أن عمره نحو ست وثلاثين، وكان عمره في بعض الروايات ثمانين وثلاثين سنة، وقيل: خمسين.

وكان معتدل القامة واللحية، أحمر الوجه، يسافر كثيرًا على قدمه.

ولو حكينا ما بلغنا من كراماته لطال الكلام، وكذب به بعض الجاهلين

الغافلين، وكان مقتله في آخر سنة ست وثمانين وخمسمائة، وقيل: ثمان وثمانين وخمسمائة هجرية^(١).

وكان شافعي المذهب، عالماً بالفقه والحديث والأصول، وكان في غاية الذكاء.

وبلغني أنه سُئل عن «فخر الدين الرازي»؟ فقال: ذهنه ليس بمحمود.

وسئل «فخر الدين» عنه؟ فقال: ذهنه يتوقد ذكاء وفطنة.

وبلغني أن الشيخ سُئل: أيُّما أفضل؟ أنت.. أم أبو علي بن سينا؟

فقال: إما أن نتساوى، أو أكون أعظم منه في البحث، إلا أني أزيدُ عليه بالكشف والذوق.

وله مصنفات كثيرة، وهذه فهرسة كتبه:

- ١- المطارحات
- ٢- التلويحات
- ٣- حكمة الإشراف

(١) لقد انحصر اختلاف الرواة في تاريخ وفاة السروردي بين هاتين السنتين اللتين ذكرهما الشهرزوري، ويبدو أن التاريخ الأصح لمقتل السهروردي هو ما ذكره ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء وهو الخامس من رجب سنة ٥٨٧ هـ بحلب، وقد أيده في هذا التاريخ قديماً «الياضي» في كتابه مرآة الجنان، وابن شداد في «سيرة صلاح الدين»، وابن خلكان في وفيات الأعيان، ولذلك رجّحه معظم الباحثين المعاصرين منهم «ريتر»، وبروكلمان، وفان دن برج، وأبوريان، وكوريان، وإميل معلوف وغيرهم.

-
- ٤- اللوحات في الحقائق
 - ٥- الألواح العبادية
 - ٦- الهياكل النورية
 - ٧- المقامات
 - ٨- الرمز الموقى
 - ٩- المبدأ والمعاد (بالفارسية)
 - ١٠- بُستان القلوب
 - ١١- طوارق الأنوار
 - ١٢- التنقيحات في الأصول
 - ١٣- كتاب في التصوف يعرف بالكلمة
 - ١٤- البارقات الإلهية
 - ١٥- النفحات السماوية الإلهية
 - ١٦- لوامع الأنوار

-
- ١٧- الرقيم القدسي
١٨- اعتقاد الحكماء
١٩- كتاب الصبر
٢٠- رسالة العشق
٢١- رسالة في حالة الطفولة
٢٢- رسالة المعراج
٢٣- رسالة زوربي جماعت صوفيات بالفارسية
٢٤- رسالة عقل شرح
٢٥- رسالة أوازير جبريل
٢٦- رسالة برتو نامه
٢٧- رسالة لغة موران
٢٨- رسالة الغربية الغربية
٢٩- رسالة يزدان شناخت
٣٠- رسالة صفيير سيمورغ
٣١- رسالة الطير
٣٢- رسالة تفسير آيات من كتاب الله عزَّ وجلَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

- ٣٣- رسالة غاية المبتدئ
- ٣٤- التسييحات
- ٣٥- دعوات الكواكب
- ٣٦- تبخيرات الكواكب وتسييحها
- ٣٧- كتاب التنقيحات في الحكمة
- ٣٨- مكاتبات إلى الملوك والمشايخ
- ٣٩- كتب سيميا تنسب إليه
- ٤٠- الألواح الفارسية
- ٤١- تسييحات العقول والنفوس والعناصر
- ٤٢- الهياكل الفارسية
- ٤٣- أدعية متفرقة
- ٤٤- السراج الوهاج
- ٤٥- الدعوة الشمسية
- ٤٦- الواردات الإلهية

وقيل: له كتاب التعليقات، وكتاب في المنافيات، ولم نقف عليه.
 وشرح الإشارات بالفارسية.. وذكر لي بعض المعارف أنه عنده، ولم أقف

عليه والله أعلم بصحته.

فهذا جملة ما وصل إلينا من مصنفاته، وبلغنا من أسماء مؤلفاته، ويجوز أن يكون له أشياء أخرى لم تصل إلينا.

وله أشعار حسنة جيدة تدل على جودة طبعه في الأشعار العربية والفارسية.

ولنذكر شيئاً من أشعاره العربية، أما الفارسية فلا يليق ذكرها هاهنا، فمما قاله في العربية:

وللسر في سر المحبين أسرارُ	لأنوار نور الله في القلب أنوارُ
وحف بنا من عالم الغيب أسرارُ	ولما حضرنا للسرور بمجلس
يطوف بها من جوهر العقل خمارُ	ودارت علينا للمعارف قهوة
أضاء لنا منها شمس وأقمارُ	فلما شربناها بأفواه فهمنا
قديم عليكم دائم العفو جبارُ	وخاطبنا في سكرنا عند صحونا
بأبصار صدق لا تواريه أستارُ	وكاشفنا حتى رأيناه جهرة
ولم تبقَ فينا بعد ذلك آثار	فغلبنا به عنا ولننا مرادنا
برؤيتنا إني أنا لكم جار	سجدنا سجوداً حين قال تمتعوا

(من بحر الطويل)

وله:

أبدًا نحن إليكم الأرواح ووصالكم ريجانها والراح

وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم
 وارحمنا للعاشقين تكلفوا
 بالسر إن باحوا تباح دماؤهم
 وإذا هم كتموا تحدث عنهم
 أحبابنا ما للذي أفسدتموه
 جودوا على مسكينكم بلقائكم
 خفض الجناح لكم وليس عليكم
 وجرت شواهد السقام عليهم
 فإلى رضاكم نفسه مشتاقة
 حبت إلى ملكوته الأرواح
 فكأنها أجسامهم وقلوبهم
 هذه الأنام هم الظلام، وإنما
 من باح بينهم بذكر حيثيذ
 عودوا بنور الوصل من غسق
 وتغنموا فالوقت طاب بقربكم
 صفاهم فصفت قلوبهم به
 لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى
 سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها
 ودعاهم داعى الحقائق دعوة
 ركبوا على سفن الوفاء فدموعهم
 والله ما طلبوا الوقوف ببابه

وإلى كمال جمالكم ترتاح
 ستر المحبة والهوى فضاح
 وكذا دماء البائحين تباح
 عند الوشاة المدمع الفضاح
 بجفائكم غير الوصال صلاح
 فالصب عند لقائكم يرتاح
 للصب في خفض الجناح جناح
 فيها لمشكل أمرهم إيضاح
 وإلى لقاءكم طرفه طماح
 وإلى لقاء سواه ما ترتاح
 في ضوئه المشكاة والمصباح
 أهل المحبة في الظلام صباح
 دمه حلال للسيوف مبساح
 فاهجر ليل، والوصال صباح
 راق الشراب ورقى الأقداح
 من نورها المشكاة والمصباح
 كتمانهم فيما الغرام وباحوا
 لما رأوا أن السباح رياح
 فغدوا بها مستأنسين وراحوا
 بحر وشدة قشوقهم ملاح
 حتى دعسوا فأتاهم المفتاح

أبداً فكل زمانهم أفراحُ
 إن لاح من أفق الواصل صباحُ
 فتتهكوا ما رأوه وصاحوا
 حجب البقاء فتلاشت الأرواحُ
 في كأسها قد دارت الأقداحُ
 لا خمرة قد داسها الفلاحُ
 غرض النديم فنعم ذاك الراحُ
 وعليه منها خلعة ووشاحُ
 أسكرت وله بذلك رنة ونباحُ

لا يطربون بغير ذكر حبيبهم
 يا صاح ليس على المحب جناح
 حضروا وقد غابت شواهد رأيهم
 أفناهم عنهم وقد كشفت لهم
 قم يا نديم إلى المدام فهاتهما
 من كرم إكرام بدن ديانة
 هي خمرة الحب القديم ومنتهى
 هي أسكرت في الخلد آدم أولاً
 وكذلك نوح في السفينة

(من بحر الكامل)

وله:

رعدهم فصداهم طلام يا قلبُ
 فما صفح عنهم وقل سلام يا قلبُ

قوم رقدوا فهم نيام يا قلب
 ما ينفع بالنصح كلام يا قلب

(من بحر الدوييت)

ولما دُفِن بظاهر جلب وجد على قبره مكتوب:

مكنونة قد براها الله من شرف
 فردّها غيره منه إلى الصدف

قد كان هذا القبر جوهرة
 فلم يكن يعرف الأنام قيمته

(من بحر البسيط)

وله:

أقول لجارقي والدمع جارى	ولى عزم الرجيل من الديار
ذرينى أن أسير فلا تنوحى	فإن الشهب أشرفها السوارى
فسير السائرين إلى نجاح	وحال المترفين إلى البوار
وأن فى الظلام رأيت ضوءاً	كأن الليل زين بالنهار
ويأتينى من الصنعاء برق	يذكرني بها قرب المزار
وكيف أكون للديدان طعماً	وفوق الفرقدين بنيت دارى
أأرضى بالإقامة فى فلاة	وأربعة العناصر فى جوارى
ألى كم أخذت الحيات صحبى	ألى كم أجعل التنين جارى
إذا لا قيت ذاك الضوء أفنى	فلا أدرى يمينى من يسارى
ولى سر عظيم أنكره	يدقون الرءوس على الجدار

(من بحر الوافر)

وقال:

من أنكر مذهب الهوى فليأت	أنبيه بما سمعته من ذاتي
أنبيه عن الحمى وعن ساكنه	ومن لم يذق الهوى من الأموات

(من بحر الدوبيت)

وقال:

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى	وصبت لمعناها القديم تشوقا
محجوبة سمرت وأسفر صبحها	وتجردت عما أجد وأخلقها
وتلفتت نحو الديار فشاهدت	ربعا عفا أطلاله فتمزقا
وغدت تردد في الفضاء حينها	فتروم مرتفعًا زلوق المرتقا
فكانها أضاءت إضاءة بارق	ثم انطوى فكانه ما أبرقا
وقفت تسائله فردّ جوابها رجع	الصدى أن لا سبيل إلى اللقا
فبكت بعين الحال مهد عهدها	أسفًا على شمل مضى وتغرقا

(من بحر الكامل)

وله:

أفريت بعدكم هل عندك خبرُ	طرفي ودمعي فلا عين ولا أثر
قد كنت أحذر أن أشقى بفرقتكم	فقد شقيت بها ولم ينفع الحذرُ
المرء في كل يوم يرتجى غده	ودون ذلك مخبولة القدرُ
القلب يأمل والآمال كاذبة	والنفس تلهو، وفي الأيام معتبرُ

(من بحر البسيط)

وقال:

فكن أبداً ما عشت في حضرة
وتلحق بالمعنى وتنأى عن الحسى
ويشرق نور منك دائرة الشمس
وفيك جميع الخلق والعرش

خليلى إن الأنس في فرقة الأنس
تعيش بلا موت، وتبقى بلا فنى
وتغبطك الأفلاك فيما أتيت
فأنت هو، والمعنى فيك وجود

(من بحر الطويل)

وقال:

على ظمأ منا إلى موقف التجوى
مقدسة لا هند فيها ولا علوى
وجدنا عليها من نحب ومن نهوى
وأشكرنا من راح لإجلاله العفوى

ولما وردنا ماء مدين نستقى
نزلنا على حى كرام بيوتهم
ولاحت لنا نار على البعد أضرمت
سقانا فحيانا وأحيا نفوسنا

(من بحر الطويل)

وقال:

أبكى عليكم بدمع مشتاق
فلا طيب لها ولا راق
فإنه رقيتى وترى افاقى

وكل صبح وكل إشراق
قد لسعت حية الهوى كبدى
غير الحبيب الذى شغفت به

(من بحر المنسرح)

وقال:

آيات نبوة الهوى بي ظهرت	قبلي كتمت وفي زماني اشتهرت
هذي كبدي إذا السماء انفطرت	شوقاً وكواكب الدموع انتشرت
يا صاح لما رأيت شهباً ظهرت	قد أحرقت القلوب ثم استترت
طربنا طرباً لشوقها حين سرت	بانست وأضاءت وتولت وسرت

(من بحر الدوييت)

وقال:

أقسمت بصفو حبكم في القدم	ما زال إلى غير هواكم قدمي
قد أمزج حبكم بلحمي ودمي	قطعي صلتى وفي وجودي عدمي

(من بحر الدوييت)

وقال:

ما اعشوشبت الربى وفاح الشيع	وأعنعجرت السحب ولاحت بوح
أو ازهرت الزهر وهبت ريح	إلا وصبت إلى لقاك روح

(من بحر الدوييت)

وقال:

بدالك سر طال عنك احتجابه ولاح ضياء كنت أنت ظلامه
وأنت حجاب القلب عن سر غيبه ولولاك لم يطعم عليه ختامه

(من بحر الطويل)

وقال:

كلامى عقار عتقت ثم روقت وبعض كلام القائلين عصير
إذا بزغت يوماً بزاة خواطرى فما لعصافير الطريق صفير

(من بحر الطويل)

ومن لطائف كلماته أشركنا الله تعالى في صالح دعواته:

ومن لم يتهج بأعاجيب سرادقات العلين، فهو من الغافلين، ومن لم يذق
مائدة رب العالمين، فهو من الخاسرين، ومن لم يتلذذ بلذة أشعة أنوار المقربين،
فهو من المحرومين.

وقال: إذا ضبطت نفسك عن الاشتغال بالزائد على مهم بدنك
الضروري، واستكملت العلم، أتيت على كثير من الفضائل، وعليك
بالتساييح والأوراد، واقطع الخواطر الرديئة، وأنفذ الخواطر الجيدة، والخواطر
الرديئة، إذا قطعتة أو لا نجوت منه، وإلا تتأدى بك إلى ما لا يلائم.

وقال: أكثر الدعاء في أمر الآخرة، وأسأل الله تعالى ما يبقى معك أبداً لا

ما يزول.

إلى حاصل.

وأعجب أحوال هذا الرجل: أنه صنّف في الحكمة كُتُبًا كثيرة، توهم أنه من الحكماء المبرزين الذين وصلوا إلى غايات المراتب، ونهايات المطالب، ولم يبلغ مرتبة أقلهم.

ثم رجع وتبصر مذهب «أبي الحسن الأشعري» المتكلم الذي لا يعرف أي طرفيه أطول؛ لأنه كان خاليًا عن الحكمتين البحثية والذوقية، ولا يعرف ترتيب جد، ولا يقيم برهائنا، بل هو شيخ مسكين متحير في مذاهب الجاهلية التي يخبط فيها خبط عشواء.

واعلم أنه وإن لم يظفر بالحكمة على جليتها، إلا أنه كان رحمه الله تعالى، شديد الاستعداد، قوي النفس في استخراج اللطائف والفوائد من كلام الحكماء إلا أن عيبه عدم التجرد والسلوك؛ لكي تحصل فراغة القلب، وهذا أمر لا يُنال إلا بهذا.

فلا جرم «أنه» لم يترك إلى مقاماتهم، ولم يقف على أسرارهم، وبعض شُبهه صحيحة، إلا أنه في الأخير يعجز عن إتمامها لعدم الأصل الذي يُبنى عليه البحث.

وسافر «الرازي» في طلب العلم إلى خراسان، وإلى مراغة، واشتغل بها على «مجد الدين الجيلي» مدة حتى حصل لنفسه استقلال التحصيل والفكر بنفسه.

ثم سافر إلى خدمة السلطان «غياث الدين»، وأخيه «شهاب الدين»..

وكانا ملكين في بلاد الغور^(١)، وأكثر تلك النواحي كرامية مجسمة^(٢)، فحظي عند «غياث الدين»، وكان بواسطة صُحبة فخر الدين، ارتفع قليلاً عن مذاهب الكرامية.

واتفق أن «فخر الدين» وعظ هناك يوماً، وتكلم بشيء ينافي مذاهبهم، فهموا به، فهرب واستجار بالسلطان فتحيّل على تخليصه.

ثم رحل من هناك إلى «غزنة»، وأقام يدرس في بعض المساجد مدةً حتى اتصل «بعلاء الدين» تكش خوارزم شاه، وصار معلماً لولده، «محمد».. حتى أفضى الملك إلى «محمد»، فصار له الجاه العريض، والمال الكثير.. حتى أنه كان يغلظ عليه في بعض الأوقات ويحتمله.

ثم رحل إلى «هراة»، وبنى له السلطان هناك مدرسة، وكان يدرس بها إلى

(١) الغور: منخفض عند أرض دمشق وأرض البيت، ولذلك سمي الغور.

(٢) وهم أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام (ولد سنة ١٩٠ هـ) مؤسس هذه المدرسة، وقد ذهبت الكرامية في تفسيرها الخاص لبعض النصوص الدينية إلى حد الشطط، إذ قالت بتجسيم الذات الإلهية بالفعل، فهي ليست مدرسة دينية فقط، وإنما مدرسة فلسفية أيضاً، وقد تفرقت هذه المدرسة إلى اثنتي عشرة فرقة، أصولها ستة: العابدية، التونسية، الزينية، الإسماعيلية، الواحدية، الهيصمية، وتشترك هذه الفرق فيما بينها في الخصائص والسمات الرئيسة للمذهب، ولكنها تختلف من حيث التفصيل، ويتسم مذهب الكرامية بالقول بالمبادئ التالية:

- إن الله واحد في حد ذاته، واحد في أفعاله، واحد في وجوده، وهذه الوحدانية لا يرقى إليها الشك، وأن الله مستوي على العرش استواءً مادياً.

- إن هذا الواحد جسم كبير، ولكنه جسم لا كالأجسام، أو هو جرم هذا العالم، وأن كل ما يحدث إنما يحدث في الذات الإلهية، فالله محل للحوادث، ولذلك فإن الحوادث لن تفتنى ما دامت توجد بوجود الجرم الإلهي.

وله:

شربنا على روض الربيع المفهف فجادلنا الساقى بصهباء قرقف
فلما شربناها ودب دبيبها على موضع الأسرار قلت لها قفى
مخافة أن يسطو على شعاعها فيظهر جلاسى على سرى الخفى

(من بحر الطويل)

وقال:

ترتاح أرواح العباد لوجهها حتى تسمى راحة الأرواح
لا تطلب الصباح إن لقائها بالليل يغنيك عن الصباح

(من بحر الكامل)

وقال: أول الشروع في الحكمة الانسلاخ عن الدنيا.. وأوسطه مشاهدة
الأنوار الإلهية، وآخره لا نهاية له.

وقال عقيب ذكر المقولات: انظر كيف انتقلت الحكمة من النظر في أمور
الروحانيات، ومعرفة الطرائق إلى مشاهدتها، وسلم الخلع بالعلوم العميقة
التي تشهد بصحتها الأمم الفاضلة، وعليها كان مدار الحكمة.

واعتماد الحكماء إلى ما فعل شيعة المشائين من الاختصار على أمور تُشبه
مقولة (حتى والجلدة)، بحيث صارت التي هي بالحقيقة حكمة، وكان عليها
السير وشهود أنوار الملكوت منقطعة لا يعرفها المتسبون إلى الحكمة في هذه

الأزمة، وإنّي لأعلم يا إخواني أنه إذا نادى منادي الحق بظهور الحقائق تنظمس هذه الأقاويل الناقضة الشاغلة.

وإن بقيت تبقى في المواقف الجدلية في رياضات المبتدئين، وتعود الحكمة الرئيسة، فإن صاحب الزورة ذات الألق إذا أنذر صدق، وإذا وعدَ حقق.

وقال بعد قوله: بين السواد والبياض أنواع غير متناهية، فمثل هذه هوسات وقعوا فيها لتضيق طرائق الحكماء الأقدمين من السلوك، وعلوم المشاهدة لأنوار الملكوت، وأسرار الخلع والتجريد، ودوام الانصباب إلى مطالعة جلال الحق.

فلما تركوا سُلط الله عليهم هذه الهوسات... أما تراها كيف تُقسي القلب وتضيق الوقت، وتشوش الفكر، وليس فيها طائل، بل يجوز النظر فيها لتشحيذ الطبع في أوائل أمر السالك؛ ليرتقي إلى أهلية العلوم الخفية.

وأما الاقتصارُ عليها فهو جهلٌ وخُسارة، وإن لم تصدقني ففكر في رموز الأقدمين، وتأمل كتب أفلاطون وهرمس؛ لتعلم أن لهم علومًا أشرف من مقولة متى والملك.

وقال بعد أن ذكر عرض الأفلاك في الحركات على رأي المشائين:

وأما أنت إن أردت أن تكون عالمًا إلهيًا من دون أن تتعب، وتواظب على الأمور المقرّبة إلى القدس.

فقد حدثت نفسك بالممتنع أو شبيه الممتنع، والناس يجتهدون في طلب باطل غاية الاجتهاد، وأيضًا رهابون الأمم وزهادهم قد يرتكبون الأمور

الشاقة، ويتركون المألوفات لا لغرض شريف، بل لمطالب خسيصة، فقبيح لطالب الحكمة ألا يجتهد، ولا يطلب الطرق.

فإن طلبت واجتهدت لا تلبث زماناً طويلاً إلا وتأتيك البارقة النورانية، وسترقى إلى السكينة الإلهية الثابتة فما فوقها إن كان لك مُرشد، وإن لم يتيسر الارتقاء إلى الملكة الطامسة، فلا أقل من ملكة البروق.

وقال: لا تحدث نفسك -إن كنت امراً ذا جد- بأن تتكئ على سرير الطبع راضياً برغد عيشه في هذه الخربة القذرة، وتمد رجلك وتقول: قد أحطت من العلوم الحقيقية بشطرها، ولنفسي على حق، كيف وقد حُزْتُ قصبَ السبق على إخواني، إن هذه خطرة ما أفلح من دام عليها قطُّ.

وقال: كل هذه العلوم صفر صغير يستيقظك من رقدة الغافلين، وما خلقت لتنغمس في مهلك، انتبه يا مسكين، وانزعج بقوة، وارفض أعداء الله تعالى فيك، واصعد إلى الطامسين لعلك ترى ربك بالمرصاد.

وقال: وليكن يومك خيراً من أمسك لو بقليل، وإلا فأنت من الخاسرين، روح سرك بترك ما ثلقت عليك تبعاته، واذكر موتك وقدومك على الله عزَّ وجلَّ في كل يوم مراراً.

واحفظ الناموس يحفظك، ولا تؤخر إلى غدٍ شغل يومك؛ فإن كل يوم آتٍ بمشاغله، ولعلك لن تلحقه.

وقال: كُن ذا عزيمة؛ فإن عزائم الرجال تحرك الأسباب.

وقال: ولباب الحق قوم لا تشغلهم صدمات الأسباب، ولا يجزعون من

البلاء؛ فإن البلاء صراطُ الله، به عبرت قوافل الرجال، ولو سلكته لوجدت عليه آثارهم، وتعرفت منه أخبارهم، فكل أرض لم يصبها صيب من المصائب أبنت أن تنبت النجاح.

وقال: نعم الرفيقان «الجوع، والسهر» يُضعفان أعداء الله من القوى بعقر مطاياها، وتعد المستشرف لسناء الإشراف.

الفقر: سوط الله به ساق الصديقين إلى فواضل الدرجات.

وقال: يا من كُلَّفَ بالنطق صبراً على ما أمرت به، أقم الذكر فلن يصدق عنه أحدٌ، وسيهلك الله الكافرين بغتة، والله تعالى هو القائم على النفوس يستوفي الحقوق للعباد.

وقال: لكل قهوة سُكاري، ولكل بحر مغرقون، كم بين حائر في الظلمات رُحِزَ عن نور الشمس، وبين حائرٍ أغرقهُ نورها في قربها الأقرب.

وقال: إن تعبد الله تعالى حباً، فخير من أن تعبدَهُ خوفاً؛ فإن التعبد بالتخويف دينُ اللثام.

وقال: اعمل لنفسك؛ فلقد ذل من أحوج إلى الشفيع.

وقال: انقش مداركك أيها الإنسان بأفضل ما يمكن، ونزهها عن خيئات الأمور؛ فإن قيم المواد بصورها.

وقال: لا تترك (الفكرة الخبيثة) تسري كالسهم، اصرفها وهي ضيعة؛ لئلا تستضعفك فوتها، أدرك صغار الأمور قبل أن يدركك كبارها؛ اسلك أيها الكفور بقلب يقظان، وقف موقف التعظيم وأنت من النور ريان، اغتتموا

قدرتكم الزائلة.

وقال: فيا من ضل أقرب الأشياء منه، ما أبعدك من أبعدها، اطلب بارئ الكل في القرب الأقرب، وإن كان في العلو الأعلى قهراً وشرفاً، أمرُ الله تعالى لا يتعطل بما توانيت أيها المتخلف، ولكنك تبقى عربياً عن الفضائل، مُدَّ عينيك مُدّاً وأبسط إسباطاً، واترك الشاغالات من بنات الظلمة؛ لترى القيوم قائماً بالقهر على رأس الوجود كله بالمرصاد.

لقد غنى الحبيب فأين الواجدون؟ هذه بزررة النور، والقوم في ملعب العشق يلعبون، لا تأنس بنقار الهمج، ولا تُبح هيبة الصمت بالوسط من الكلام.

وقال: لا تترك حامل السيف الجاهلي أن يدنو، ولا المرأة المستهونة الملقية الجسد في الطرائق أن تتشبث بذيله، وطوائف من النيران التي قرَّ ضوءها وكثُر دخانها طفقت تنطفي لهبوب ريح زعزع.

إن عبدة البطن والفرج في الدارين: لُعِنُوا لعنًا يقطع أدبارهم، ويوردهم إلى سوء البرازخ المشحون بالعذاب.

وقال: العقل نور الله، ولا يهتدي إلى النور غير النور، ولا تظهر صورة فردانية إلا في مرآة فردانية، النفس مرآة الله تعالى، ومرآة الله لا تشبهها مرآة الأجسام، إذا انحل التركيب رجع الواحد إلى التوحيد.

وقال: اصرف الفكرة إلى الآثار واعرف الله تعالى بأعاجيب آياته بشواهد بينة الحضور؛ فإن الفكرة لا تتسلط على إله الأرباب.

وقال: اذكري أيتها المدينة الفاضلة ربك بأصواتك المتجامعة والصياح،
والتفخيم والتعظيم، ما أبهاك يا مدينة (الحُجْن) بذكر الله تعالى أسواقها
ومشارعها، ومسلكها وبيوتها وسطوحها عند بلوغ رأس النبرات إلى مراسم
التسبيح، وكُبْرِي تكبيرًا جهريًا تُهزم جنود الشيطان، وتُفهر عبدة الطاغوت،
وتُرْعَد خبيثات النفوس، وتُهَزُّ النفوس، وتحرك الأشباح.

الصيحة الجمهورية بالتسبيح: فريضة في «كتاب الله المسطور» بالبيان.

وقال: لولا إزاغة المبطلين نطقت الفطرة بشواهد الإيمان.

ادفعوا سموم الحادثات بحميا الأزل.

إذا رضي صاحب اليد العليا خسرت الوشاة.

وقال: أَمَرَ الله بالرصد، إذا توغلت في الهوى عَلَّمَكَ الهوى كيف يكون
كتاب الله مشهودًا يراه الغافلون، ويقرؤه العاقلون.

ما شُكِرَ الربُّ بأفضل من الصبر، ولا أَرْضاه كالرضا.

الإمام العلامة فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الخطيب الرازي^(١)

إمام زمانه، وفاضل أيامه، صاحب التصانيف المعظمة، والمؤلفات المفخمة في أكثر العلوم.

بلغ - رحمه الله تعالى - في البحث والجدل، والقليل القال مبلغًا عظيمًا، ولم يكن في عصره أحد يُدانيه في البحث، وكان خاطره قويًا، وذهنه جليًا، كثير الفكر والنظر.

وكان لمجلسه جلالة وعظمة، وكان يتعاضم حتى على الملوك.

وكان إذا جلس للدرس قريبًا منه «الليثي»، و«المصري»، و«الشهاب»، و«النيسابور»، وغيرهم من التلاميذ الكبار، وسائر الخلق على قدر مراتبهم.

وكان يتكلم مع الكبار وهم يبحثون مع غيرهم.

وله مصنفات في أكثر العلوم، إلا أنه لا يُذكر في زُمرة الحكماء المحققين، ولا يُعدُّ في الرعيل الأول من المدققين.

أورد على الحكماء شكوكًا كثيرة وسببها، وما قدَّر على أن يتخلص منها،

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن علي الملقب بابن الخطيب، الإمام فخر الدين الرازي، ولد بالري سنة ٥٤٢هـ وقيل: سنة ٥٤٤هـ وقد ألم بجميع فروق الثقافة في عصره، ولم يترك علمًا من العلوم، أو فنًا من الفنون إلا تعلمه وصنَّف فيه، وقد بلغت مؤلفاته أكثر من مائة كتاب في مختلف العلوم والفنون المعروفة في عصره، وتوفي بهراء سنة ٦٠٦هـ.

وأكثر من جاء بعده ضل بسببها، وما قدر على التخلص منها.

وبعضهم زاد عليها أيضًا، وواجه صعوبة حلها، وعدم فهمهم مقاصد الحكماء الأقدمين، وبناء البحوث على تقرير قواعد المشائين التي هي عند حكماء الذوق متزلزلة الأركان، واهية البنيان، وإلا فإذا ظفر الإنسان بالأصول الصحيحة من جهة الذوق، علم وجه حلها بأقرب سعي.

ولا تثبت أمثال تلك الشبهات إلا في النفوس العادية الكدرة، التي لم تستعد للفيض القدسي، ولم تنهض لنزول النور الإلهي الذي ينشرح به الصدر، ويحيا به القلب، ومن ذلك النور تنحل الشبهات، وتزول الشكوك، وتحصل الحقائق والمعارف.

وإلا فمحال أن يحصل اليقين العلمي بمجرد المطالعة لتلك المؤلفات، وترديد النظر في تلك المصنفات من غير تجريد، وإخلاص إلى المنهج القوي والسلوك الحسن إلى الصراط المستقيم، وعلامة البعد عن الله تعالى وملائكته، ولطائف ملكوته ثبوت تلك الهذيان في القلوب، ورسوخ تلك الشبهات في الصدور.

وبالجملة.. فالرجل لم يحصل شيئاً من سرائر الحكماء المتألهين، ولم ينل مكنون علوم العلماء الأقدمين.

بل اشتغل طول عمره بجمع أقاويل الناس وتفريعاتها، وتعذيبها وإيضاحها، وإيجازها مرة وبسطها أخرى، والتصرف فيها بالعبارات والتغيرات من ورقة إلى ورقة، ومن مسودة إلى أخرى، طلباً للجاء الوهمي، ومحبة للترويس الخيالي من غير أن يظفر من الحكمة بظائل، أو يرجع البحث

وقال: لا تتكلم قبل الفكر، فكر مرارًا ثم قل، فإن كنت بنطقك صائرًا من الصالحين، فيوشك أن تصير بالصمت ملكًا من المقربين، ومما ينسب إليه أعلى الله رتبته، ولم أتحقق ذلك:

لو تعلم داركم لمن قد جمعت قامت رقصت وشفقت واستمعت
والقهوة لو تعلم من يشربها كانت خضعت لشاربها ودعت
(من بحر الدوييت)

وله أيده الله تعالى، برتبته فارسية:

يكجند بتقليد كريدم خودرا نادیده همی نام شنیدم خودرا
درخود بودم آزان ندیدم خودرا آن خودجون برون شدم بدیدم

وقال: لا تعجب بشيء من حالاتك، فإن الواهب غير متناهي القوة، وعليك بقراءة القرآن كأنه ما أنزل إلا في شأنك فقط، واجمع هذه الخصال في نفسك فتكون من المفلحين.

وقال: الصوفي هو الذي اجتمعت فيه الملكات الشريفة، والتصوف: اصطلاح عن هذه.

(١) ويمكن ترجمة معاني هذين البيتين كالآتي:

حاولت مرة تقليده فلم أراه لكنني سمعت عن اسمه
أنافي ذاته لأنني أرى ذاته وحين يصبح بعيدًا عني آراه

وقال: كما قَصُرَتْ قوَى الخلائق عن إيجادك، فَصُرَتْ عن إعطاء حق إرشادك، بل هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، قدرته أوجدتك، وكلمته أرشدتك، لا تلعبن بك اختلاف العبارات، فإنه إذا بُعِثَ ما في القبور وأحضر البشر في عرض الله تعالى يوم القيامة، لعل من كل ألف تسعمائة وتسع وتسعون يبعثون من أجداثهم، وهم قَتَلُوا من العبارات، وذبائح سيوف الإشارات، وعليهم دماؤها وجروحها، غفلوا المعاني فضيّعوا المباني.

وقال: الحقيقة شمس واحدة (لا تتعدد بتعدد مظاهرها من البروج، والمدينة واحدة)، والدروب كثيرة والطرق عسيرة يسيرة.

وقال: إن الرجل لا يصيرُ أهلاً للمعارف والمكاشفات العظيمة إلا بتعب عظيم.

وقال: وقد ظهر في زماننا جماعة يظنون دعابة المخيلة -إذا استهزأت بهم- مكاشفة، يريد بذلك الخيالات التي يجدها من يأكل الحشيش.

وقال شعراً:

قل لأصحابي رأوني ميتاً	فبكسوني إذ رأوني حزناً
لا يظنونني بأنى ميتاً	ليس ذا الميت والله أنا
أنا عصفورٌ وهذا قفصى	طرتُ عنه وعلى رهننا
وأنا اليوم أنا حى ملا	وأرى الله عياناً بيننا
فاخلعوا الأنفس عن أجسادها	لترون الحق حقاً بيننا

(من بحر الرمل)

أن تُوفي رحمه الله تعالى في سنة (ست وستائة هجرية)، وكان عمره يومئذٍ (ثلاث وستين سنة)، ودفن في أسفل الجبل بهراة، وأوصى أن يدفن ليلاً خوفاً من العامة.

وكان نسبه يرجع إلى «أبي بكر الصديق» رضي الله عنه، وتوفي وأسباب الدنيا عنده كاملة من مال وبنين وغللمان وجوارٍ، وأعتق بعضهم أو كلهم عند الموت، وأعطى كل واحد شيئاً.

وكان «أبو بكر» أكبر أولاده، وهو الذي ورث منصبه في التدريس والوعظ.

وكان رحمه الله تعالى على ما بلغنا كثير الأكل والمباذعة محباً للجاه والباه، وكانت أخلاقه شرسة يؤذي بها المُحصلين إذا بحثوا عنده، وهو الذي يقول في وصف أخلاقه:

شعر

أشكوا إلى الله من خلق بغيرني يمحق النور من عقلي ومن ديني
حرارة في مزاج القلب محكمة تبدو فتنمو فتغويني فتردينني

(من بحر البسيط)

ويُروى أنه دخل عليه بعض أصحابه يوماً فوجده باكياً حزينا فسأله عن ذلك.

فقال: كنت أعتقد في بعض المسائل اعتقاداً منذ مدة، وأزعم أن ذلك هو

الصواب، وأن ما عدها خطأ، حتى وقع إليّ كلامُ بعض المحصلين فيها، فرأيت أن اعتقادي كان باطلاً في هذه المدة، فما يؤمنني أن تكون جميع علومي بهذه الصفة.

وقال: كل علم يحصل بمجرد البحث والجدال من غير سلوك قدسي وتجرد، وما هذا حكمه، لا يمكن حصول اليقين بمجرد الاقتصار عليه، وحصول اليقين والطمأنينة للنفس إنما تكون بالكشف والذوق.

فعليك يا أخي بالمسارعة للتجرد، والإخلاص إلى ذلك السبيل.

وكان أكثر عمره مشغولاً بكتبه للتصنيف في كل فن، حتى أنه كان يصنّف في علوم لا يعرف حقائقها.

ويشهد بصحة هذه القضية تصنيفه للسر المكتوم في السحر، والطلسمات، والثيرنجات، وبعض خواص الفلك.

وأنا أجزم بأنه كان خالياً من سرائر هذه العلوم، وأكثر الشُّبه التي أوردها على الحكماء لأبي البركات اليهودي، ومن تصرفات ذهنه.

وهذا الذي ذكرناه من حقيقة أحواله ليس غرضنا القدح، بل غرضنا تبين طريق الحق، فإنه وراء ما اشتغل به هو وأمثاله ممن الخائضين في الدنيا، المقتصرين على البحث الصرف.

ومن كلامه الجيد قوله: والله إني أتأسف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل، فإن الوقت والزمان عزيز، وله أشعار بالعربية ليست بتلك الجيدة منها:

نهاية إقدام العقول عقأل وأكثر سعى العالمين ضلال

وحاصل دنيانا أذى ووبال
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
رجال فزالوا ولجبال جبال

وأرواحنا في غفلة من جسومنا
ولم تستفد من بحثنا طول عمرنا
وكم قد رأينا من رجال ودولة
وكم من جبال قد علا شرفاتها
(من بحر الطويل)

وله:

لما سبقت في المكرمات رجالها
لما استحققت نقصانها وكماها
ولا أتوقى سوءها وأخبارها
ومستيقن برجالها وانحلالها
وتستعظم الأفلاك طرا وصالها

فلو قنعت نفسى بميسور بلغة
ولو كانت الدنيا مناسبة لها
ولا أرمق الدنيا بعين كرامة
وذاك لأنى عارف بفنائها
أروم أمورا يصغر عندها
(من بحر الطويل)

وله:

وفي التراب توارى هذه الجثث
الله أعلم ما يخلقه عبث

أرواحنا ليس تدري أين مذهبها
كون يرى وفساد يتبعه
(من بحر البسيط)

وله من غرائب الكتب تفسير «سورة البقرة» على الوجه العقلي، لا النقلي.

وشرح «نهج البلاغة» غير تام، و«الملل والنحل»، ومنتخب كتاب

«تنكلوشا»، والله أعلم.

أفضل الدين محمد المرقى المعروف بالقاشي^(١)

كان حكيماً متأهلاً ناسكاً، انقطع آخر عمره بقرية من قرى «قاشان»^(٢)،
وتوفي بها قريباً من سنة عشر وستائة.

(١) هو أفضل الدين محمد القاشي، صوفي متفقه من آثاره: مدارج الكمال إلى معارج الوصال.

(٢) مدينة قرب، أصبهان تذكر مع «قم»، وأهلها كلهم شيعة إمامية.

أفضل الدين البامباني^(١)

حكيمًا مبرزًا، وخصوصًا في الرياضي، تُوفي سنة بضع وعشرين وستمائة.

(١) لم نقف على ترجمة له.

تاج الدين الأرموي^(١)

كان فاضلاً متبحراً، جمع بين الشريعة والفلسفة، سمعت من ملك السادة والعلماء «شرف الدين»، أنه لما شرع في الحكمة، كان من جملة محفوظاته أربعون ألف بيت من شعر العرب، «وله» شعر جزل حسن، فممن جملته من أنشدني السيد المعظم رواية عنه رحمه الله تعالى:

على كل جيد للمنون سماتٌ وقد طال عمر الأولين فماتوا
صوابح حنف والمنايا رواصد وميدانها الدنيا ونحن كراتٌ

(من بحر الطويل)

وكان حسن المنظر يتكبر على أهل الدنيا، كثير التواضع للفقراء، حج في آخر عمره، وتوفي ببغداد سنة أربع وخمسين وستمائة، وكان له من العمر مائة سنة وإحدى وعشرون سنة، سمعت ذلك من بعض تلامذته الثقات، وكان يتغذى كل يوم مرة واحدة بعد الظهر.

(١) هو محمد بن حسن تاج الدين الأرموي، وقيل: محمد بن الحسن مدرس الشرقية ببغداد، صاحب الإمام فخر الدين الرازي، ويرع في العقلية، وكان له جاه وحشمة.

كمال الدين بن يونس^(١)

كان رجلاً عالماً مُتبحراً في أكثر الفنون، ولم يصنف كتاباً، توفي سنة بضع وثلاثين وستمائة بالموصل.

(١) هو كمال الدين أبو عمران موسى بن يونس بن محمد بن منعه، علامة زمانه، وواحد أوانه، وقدوة العلماء، وسيد الحكماء، قد أتقن الحكمة، وتميز في سائر العلوم، وكان عظيمًا في العلوم الشرعية والفقه، وقد انخرط في سلك التدريس والتأليف في علم الكلام والفقه والفلسفة، وتوفي في الموصل سنة ٦٤٠هـ.

مولانا نصير الدين محمد الطوسي^(١)

وكان رجلاً فاضلاً مُتبحراً في أكثر العلوم، وخصوصاً في الرياضي.
صَنَّف كتباً كثيرة في أقسام الحكمة، وبنى الرصد بمراغة بمعاونة جماعة
من الفضلاء، منهم: «مؤيد الدين العرضي»، وهو رجل عالم بالرياضي «فخر
الدين الأخلاطي»، وكان الغالب عليه الطب، و«نجم الدين القزويني»،
والغالب عليه المنطق، «وفخر الدين المراغي»، و«محسي الدين المعري»،
والغالب عليهما الرياضي.

وكان مولد نصير الدين رحمه الله تعالى بطوس سنة سبع وتسعين
 وخمسمائة، وانتقل إلى نيسابور، واشتغل على فريد الدين داماد، و«قطب الدين
المصري» تلميذ الإمام «فخر الدين»، وانتقل منها إلى بلاد الملحد، وخدم
«علاء الدين بن مسلمان»، وكانت له ثمة فراغ فاشتغل بتصنيف شرح
«الإشارات»، وتهذيب المجسطي.

وفي سنة ثلاث وخمسين وستمائة فتح المغول القلاع، وحظي عند المغول
وأمر بالرصد، وتوفي في سابع عشر ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين وستمائة،
ودُفِنَ بمشهد موسى بن جعفر عليهما - وآبائهما - السلام من ظاهر بغداد.

(١) هو محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، ويكنى بأبي جعفر، واشتهر بلقب نصير الدين
الطوسي، والخواجة نصير الدين، وعلى الرغم من أن حياته كانت حافلة بالحروب والقلاقل،
والاضطرابات السياسية، إلا أنه خلف مؤلفات كثيرة دلت على علو قدمه، منها ما هو في
الفلسفة والمنطق، وعلم الكلام والتصوف، والتربية والأخلاق، والعقائد، والفلك... إلخ،
وتوفي الطوسي سنة ٦٧٢ هـ.

كمال الدين عبد الخالق المعروف بابن الداعي

كان يهوديًا، حكميًا شاعرًا، عالمًا بأجزاء الطب.

أقام مدة في خدمة صاحب «مذكرو»... ثم انتقل إلى خدمة «هولاكو» ملك التتار.

ثم أشخص إلى خدمة «مان» ملكهم الكبير المقيم ببلاد «الخطى»^(١)، وتوفي بها.

ومن شعره قوله:

ضوء العلوم ونور الفكر يصدعني	كأنني بسواد الخط ملتطم
حواء كمدجى حظي وأدمه	كأنها خلقت من حظي الظلم

(من بحر البسيط)

(١) بلاد الخطى: يضم أوله، وأقصر، جمع خطوة، الخطى موضوع بين الكوفة والشام.

فهرس

- ٣..... «أخبار زينون الأكبر»
- ٦..... آداب زينون
- ٩..... «أخبار الإسكندر ذي القرنين»
- ٦٢..... أخبار بطليموس
- ٦٣..... آداب بطليموس
- ٦٧..... أخبار مهادر جيس
- ٧٠..... أخبار غريغوريوس
- ٧٣..... آداب «باسيليوس»
- ٧٥..... «إقليدس» الصودي
- ٧٧..... أخبار «لقمان الحكيم»
- ٩٧..... «جالينوس» الطبيب
- ١٠٣..... آداب «جالينوس»
- ١١٥..... من أقوال «جالينوس»
- ١٢٤..... أعلام الحكماء الإسلاميين
- ١٢٥..... حنين بن إسحاق المترجم
- ١٢٦..... ابنه إسحاق
- ١٢٨..... «حيث» الطبيب
- ١٢٩..... ثابت بن قرة الحراني

- ١٣١..... أبو عثمان الدمشقي سعيد بن يعقوب
- ١٣٢..... أبو الحسن ثابت بن قرة الحرّاني
- ١٣٤..... محمد بن زكريا الرازي
- ١٣٦..... علي بن ربن الطبري
- ١٣٧..... أبو الخير الحسن بن بابا
- ١٤٣..... متى بن يونس المترجم
- ١٤٤..... محمد بن جابر بن سنان الرقي
- ١٤٥..... الشيخ الفاضل محمد بن محمد الفارابي
- ١٥١..... أبو سليمان محمد بن مسعر
- ١٥٣..... أبو عبد الله الناطلي
- ١٥٤..... يحيى النحوي الديلمي
- ١٥٥..... يعقوب بن إسحاق الكندي
- ١٥٩..... أبو زيد البلخي
- ١٦٠..... أبو الفرج بن الطيب الجاثليق
- ١٦٣..... أبو القسم الكرمانى
- ١٦٤..... أبو حامد أحمد بن إسحاق الإسفراري
- ١٦٥..... أبو الوفا البوزجاني
- ١٦٦..... بطليموس الثاني، أبو علي بن الهيثم
- ١٧٠..... أبو سهل الكوهي
- ١٧١..... ابن أعلم بن غلام

- ١٧٢ أبو الفرج علي بن الحسين بن هندو
- ١٧٥ أبو سهل المسيحي
- ١٧٧ أبو زكريا يحيى بن عدي
- ١٧٨ بهمن يار بن المرزبان
- ١٧٩ أبو منصور الحسين بن طاهر بن زيلة
- ١٨٠ أبو عبيد عبد الواحد الجوزجاني الفقيه
- ١٨١ أبو عبد الله المعصومي
- ١٨٢ أبو الحسن الأنباري
- ١٨٣ إسماعيل الهروي
- ١٨٤ ميمون بن النجيب الواسطي
- ١٨٥ أبو الفتح كوشك
- ١٨٦ أبو سهل النيلي النيسابوري
- ١٨٧ أبو القسم الحسن بن الفضل الراغب
- ١٨٨ أبو القسم عبد الرحمن بن أبي صادق
- ١٩٠ الأستاذ المختص أبو الحسن علي النسوي
- ١٩١ عضد الدنيا والدين: ملك زد
- ١٩٣ أحمد بن الطيب السرخسي أبو العباس
- ١٩٥ عمر الخيامي
- ١٩٩ أبو المعالي عبد الله بن محمد المانجي
- ٢٠١ أبو حاتم المظفر الإسفزاری

- أبو العباس اللوكري ٢٠٢
- السيد محمد بن الإيلاقي ٢٠٣
- القاضي زين الدين بن سهلان الساوي ٢٠٤
- أبو الصلت «أمية بن أبي الصلت» ٢٠٥
- أسعد الميهني ٢٠٦
- تاج الدين محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ٢٠٧
- ابن التلميذ «أبو الحسن الطيب البغدادي» ٢٠٩
- ابن الشبل ٢١٠
- الحسن بن إسحاق بن محارب القمي ٢١٧
- الأستاذ أبو الفضل بن العميد القمي ٢١٨
- أبو جعفر بن بابويه ٢٢٠
- أبو بكر الحسن بن كرده القومسي ٢٢٧
- أبو علي أحمد بن مسكويه ٢٢٨
- أبو النفيس ٢٣٠
- إبراهيم بن عدي صنويجي ٢٣٢
- أبو الحسن علي بن أحمد الجوشي ٢٣٣
- الصاحب أبو محمد البخاري ٢٣٤
- أبو البركات البغدادي ٢٣٥
- بهاء الدين أبو محمد الخرقى ٢٣٧
- محمد بن الحارثان السرخسي ٢٣٨

- ٢٣٩ محمود السرخسي
- ٢٤٠ أبو الفتح عبد الرحمن الخازن
- ٢٤٢ محمد بن أحمد المعموري البيهقي
- ٢٤٤ ظهير الدين عبد الجليل بن عبد الجبار المفتي
- ٢٤٥ علي بن شاهك القصاري الضرير البيهقي
- ٢٤٦ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني
- ٢٥٢ أبو علي عيسى بن أحمد بن زرعة الفيلسوف
- ٢٥٧ أبو الحسن بن زهرون الحراني
- ٢٥٨ ابن سيار الطيب
- ٢٥٩ أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني
- ٢٦٦ عيسى بن علي بن عيسى بن الجراح
- ٢٦٧ غلام زحل وابن سلس
- ٢٦٨ أبو تمام النيسابوري
- ٢٧١ الهوشجائي
- ٢٧٢ أبو القسم الأنطاكي المسمى المجتبى
- ٢٧٣ الحكيم أبو الحسن بن رامناس العوفي
- ٢٧٤ أبو إسحاق الصابغ، وابن عمه أبو الخطاب الصابغ
- ٢٧٦ أبو الفتح البستي
- ٢٧٧ الأمير السيد زين الدين إسماعيل أبو الحسن الجرجاني
- ٢٨٠ أبو الحسن محمد بن يوسف العامري

- شرف الملك أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري ٢٨١
- شهاب الدين السهروردي ٣٠٢
- الإمام العلامة فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الخطيب الرازي ٣٣١
- أفضل الدين محمد المرقى المعروف بالقاشي ٣٣٨
- أفضل الدين الباميانى ٣٣٩
- تاج الدين الأرموي ٣٤٠
- كمال الدين بن يونس ٣٤١
- مولانا نصير الدين محمد الطوسي ٣٤٢
- كمال الدين عبد الخالق المعروف بابن الداعي ٣٤٣
- فهرس ٣٤٥

داري
للطباعة

ت : ٢٠٢٧٢٤١٧٨٩

هاتف : ٠١١/٤٢٧٢٩١٧١ - ٠١٢/٢٢٧٨٩٤٧٥

E-mail: Dar_Elmasry@yahoo.com